D O N A L D   P O W E L L   C O L E

أنثروبولوجيا
ANTHROPOLOGY

د. عبد الله طالب
دونالد باول كول

بدو البدو

حياة آل مرّة في الربع الخالي



بدو البدو

حياة آل مرّة في الربع الخالي

بدو البدو : حياة آل مرّة في الربع الخالي / أنثروبولوجيا
د. عبد الله طالب (دونالد باول كول) / مؤلّف من الولايات المتّحدة الأمريكيّة
الطبعة الثانية، 2020



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11 ، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
سيف ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **بدو من قبيلة آل مرّة /** من تصوير المؤلّف.
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر /** بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس /** بيروت، لبنان

ISBN: 978-614-486-099-1

أنثروبولوجيا
ANTHROPOLOGY



د. عبد الله طالب
دونالد باول كول

بدو البدو

حياة آل مرّة في الربع الخالي







فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

هذه هي الترجمة لكتاب (Nomads of the Nomads بدو البدو) والذي تم نشره عام ١٣٩٥ (١٩٧٥م) . والذي نتج عن بحث ميداني ، والذي أجريته بين ١٣٨٨ إلى ١٣٩٠ (١٩٦٨ - ١٩٧٠م) في الربع الخالي والمنطقة الشرقية أثناء حكم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود .

هذا الكتاب كان من المفترض ترجمته ونشره باللغة العربية منذ زمن طويل . إنني أعتبر أنه حق لدى الناس قراءة ما يكتبه عالم في علم الإنسان عنهم وخاصة في حالتي أنا كأجنبي .

إنني أشعر بالندم لعدم استطاعتي ترجمة هذا الكتاب منذ سنوات طويلة . لذا شعرت بسعادة بالغة عندما علمت أن الأخ الأمير فيصل بن محمد بن لحوم الشريم المرّي قد بدأ بتولى مهمة ترجمة هذا الكتاب في عام «١٣٢٢ هـ» «٢٠٠٢م» . عندما تقابلت مع الأخ الأمير فيصل في نهاية ذاك العام ، وذلك بعد انقضاء العديد من السنين بغير اتصال ، اتفقنا على أن ترجمة هذا الكتاب يجب أن تعرض للنشر ، فقد أشار عليّ ووافقت على نشره .

إلا أن المادة المعروضة في هذا الكتاب تحوي جزءا كبيرا من التراث ومن التاريخ الخاص بآل مرّة وبالتأكيد بشعوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي . هذا التراث الذي يجب أن يفتخر به كل مواطن هو تراث يجب عدم نسيانه . إنه ذلك النوع من التراث الذي يمكن التعلم منه الكثير .

وقد حدثت تغييرات عديدة منذ ذلك الوقت الذي قمت فيه ببحثي هذا . فآل مرة يقيمون الآن في مساكن مكيفة بالمدن وفي أماكن أخرى . ويذهب الأبناء والبنات للمدارس ، وأصبح الكثير من الصغار ومتوسطي العمر متعلمين . وقد حقق بعض رجال آل مرة الكثير في مجال الأعمال والصناعة والمهن ، وقد توظف الكثير منهم وأصبح لديهم مراكز متميزة في الشركات وعلى وجه

التحديد في شركة أرامكو السعودية ، ويخدم آخرون في مراكز قيادية في القوات المسلحة ، أما القلة منهم فتستمر في رعي القطيع لطول الوقت . وعلى الرغم من امتلاك الكثيرين لقطعان الجمال إلا أنهم يعيشون ويعملون بمعزل عن القطيع . ويرتبط البعض أيضا بسباق الجمال وبمعرض لعرض وبيع الجمال الأصيلة والجيدة في الأسواق المتميزة في الخليج .

ولعل التغييرات التي حدثت لدى آل مرة تسير جنبا إلى جنب مع تلك التغييرات التي حدثت لبدو آخرين بين الحضر في أنحاء المملكة العربية السعودية والخليج . ذلك التحول قد أصبح جديرا بالدراسة المتعمقة والتحليل من قبل العلماء والدارسين . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن كتابنا الحالي لا يتناول المجتمع الجديد المتطور وإنما هو عن جزء من الماضي . فآل مرة لديهم الحق بأن يفخروا بأصلهم ، ولعلي أشاركهم أنا كذلك في هذا الفخر بمشاركتي في جزء من هذا الزمن .

وقد شهد بحثي ، ومن ثم كتابي مؤسسات قوية في المجتمع القديم . وقد بدأ التغير في الظهور وقد صاحبه تطور حديث في أرجاء المملكة العربية السعودية منذ ذلك الوقت . ولكن مع ذلك فإن التغيرات التكنولوجية والاقتصادية الحديثة والتي تلت ارتفاع أسعار النفط في منتصف السبعينات ، والتي تسمي بالطفرة ، لم يحدث لها مثيل ولم يكن ليحلم بها ذات يوم . ولعلنا نؤكد أن هذا الكتاب لا يصف الحياة الحديثة لآل مرة اليوم . فكان للكتاب عدة أهداف ، فالهدف الأول هو إظهار كيف أخرجت البادية طريقة ماهرة تساعد في استخدام البيئة الجافة القاسية بطريقة عقلانية ومستدامة . وكان الهدف الثاني هو فهم مظاهر الحياة للأسرة العربية ، من حيث الزواج والقرابة ، والتي كانت تمارس بين مجموعة أصيل في عرب العرابة مثل آل مرة . الهدف الثالث هو تقديم فهم أوسع وأكثر شمولا لمعرفة ثقافة لمجتمع أكثر تعقيدا يعيش في إطاره بدو المملكة العربية السعودية . لهذا فإن الكتاب يناقش بإيجاز المجتمع الحضري الشامل ، إذ يصف ملامح عامة في الإسلام ودوره في حياة البدو ، ويبين أنواع

من التغييرات والتي كان ينتظر حدوثها في المستقبل . أما الهدف العام من هذا الكتاب فهو تقديم رؤية إيجابية وواقعية لأناس كنت أعيش بينهم ، ويرجع لهم الفضل في تعليمي كل شيء له مغزى في كتابي هذا .

ولعلي أشير إلى أن هذه الترجمة إنما تمت من قبل رجل كريم والذي لا يريد ذكر اسمه . وانني إذ أقدم له خالص الشكر . كما أتقدم بالشكر إلى صفاء صدقي ، والأخ محمد دياب ولكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب . أود أن أوجه شكري الدائم والمستمر لآل مرّة . بالإضافة إلى الأخ الأمير فيصل ، وعن جزيل الشكر للأخ الأمير طالب بن محمد بن لحوم الشريم المرّي .

وأود أيضا أن أتقدم بالشكر للأخ الكربي بن علي بن سالم الكربي المرّي . والأخ راجح بن حنظل بن سعيد الطلاب المري ، والأخ سالم بن راجح بن حنظل الطلاب المري . أود أن أشير إلى أنهما قد لعبا دورا عظيما في الترحيب بي في آل مرّة بعد غياب سنوات طويلة ، ولهذا أود أن أوجه لهم جزيل الشكر .

لقد شرفت مجددا بعودة الاتصال بيني وبين إخواني من فخذ آل عازب ، من قبيلة آل فهيدة ، ومن كل قبائل آل مرّة إنني أجلس معهم حاليا كمسلم ، حيث إنني تقدمت إلى شيخ الأزهر الشريف رسميا في السادس من ربيع الأول عام ١٤٢٤ هـ بإعلان إسلامي حمدا لله وثناء عليه تعالى .

لقد اعتدت الصلاة والصيام مع آل مرّة منذ سنوات عديدة ، ولقد كان الأمير طالب بن راشد بن لحوم الشريم المرّي رحمه الله هو الذي علمني فاتحة الكتاب «القرآن الكريم» ، لذلك عندما سألني عن الاسم الإسلامي الذي سأختاره كان ردي «عبد الله طالب» نسبة للأمير طالب الذي كان مثل الأب لي في الإسلام ، كل ما سوف يأتي لاحقا هو من كتاب تم نشره باللغة الإنجليزية في عام ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م مع بعض التعديلات على نص اللغة الإنجليزية .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ . «صدق الله العظيم»

د . عبد الله طالب دونالد باول كول

القاهرة ، رجب ١٤٢٤ هـ سبتمبر ٢٠٠٣ م

إهداء

إلى مرزوق وحرّان وجميع الشباب من آل مرّة
الذين لربما يواجهون أعظم التغييرات
التي يشهدها شعب من شعوب العالم

تقديم

والتر غولد شميدت
أستاذ علم الإنسان
جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس

نحن الآن أمام مفارقة عجيبة ، إذ نعايش واقعاً غريباً يسمى الربع الخالي تسمية إلاّ أنه ليس بخالٍ حقيقة ، حيث يسكنه أناس نذروا أنفسهم لحياة البداوة حتى أطلق عليهم لقب رحالة الرحالة . بالنسبة إلينا نحن سكان المدن وبالنسبة للفلاحين من العرب القريبين من منطقة الربع الخالي ، فإن سكان تلك المنطقة هم من الجن . أما بالنسبة لآل مرّة ورعاة الإبل الآخرين فإن تلك المنطقة توفر لهم حياة غنية ومجدية ، إذ إن الحليب فيها عذب والهواء نقي ويعيشون جميعاً كإخوة .

من أجل البقاء على قيد الحياة يجب على الرجال والإبل أن يعيشوا بصورة متناغمة ؛ إذ إن كلا منهما يعتمد على الآخر . فالإبل توفر الطعام والملابس ووسيلة النقل ، بينما يوفر الإنسان المعرفة والموارد المتاحة ، ومن أهمها الماء والعشب الذي ينمو في الأماكن التي روتها الأمطار . ويوضح لنا دونالد كول في كتابه أن هذه المعادلة هي في الحقيقة مسألة معقدة وليست سهلة كما تبدو .

فهناك أولاً معرفة الصحراء المعقدة ومعرفة تقلباتها ومواردها ، لهذا السبب اعتبر الأشخاص الذين يعيشون في الصحراء من سلالة الجن ، ومن ثم يجب معرفة خصائص كل حيوان بمفرده . ومن خلال جمع هاتين المعلومتين يصبح بالإمكان استخدام الموارد إلى أقصى الحدود والمحافظة عليها .

إذ يجب على الإنسان في تلك البيئة القاسية أن يصارع من أجل كسب رزقه ، حيث يتم التعاون بين جميع الرجال ، كما أن تنظيم الحياة الاجتماعية يعتبر عنصراً حيوياً ربما كان يضاهي بالأهمية المعرفة التقنية .

ويعتبر النظام الاجتماعي لرجال القبائل نظاما مرناً ، بحيث يتيح لكل بيت

العمل بمفرده عندما تدعو الحاجة البيئية لذلك، كما يتيح له في الوقت نفسه الانضمام إلى الهيكل العام لمواجهة متطلبات الفصول. بمعنى آخر فإن هذا الأمر يتطلب نوعاً من الاستقلالية والمساواة، بينما يوفر في الوقت نفسه القيادة اللازمة، مما يعني أنه يجب على كل فرد أن يكون قادراً على تأدية جميع المهام الضرورية بينما يتم تقاسم الواجبات بالتساوي بين الجميع.

إن هذه العلاقة بين الكائنات الحية تظهر في جميع أوجه الحياة لدى آل مرّة، وما كان يبدو غامضاً يصبح أكثر وضوحاً من هذا المنظار. إننا نرى العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها تعاون وثيق تفرضه الظروف، ونكتشف أن العنصر الشخصي يشكل لغزاً كبيراً في هذا التنظيم الاجتماعي- مثل الزواج من العائلة أو الفرع المنبثق عنها. ونكتشف بعض الصفات الشخصية والتي ترتبط بوجود الصحراء.

يعيش آل مرّة وفقاً لتقاليد البيئة الصحراوية القديمة، لكن هذا لا يعني أن حياتهم لا تتغير. وقد أوضح دونالد كول أن التغييرات قد بدأت منذ عام ١٩٣٢ عندما تحولت السعودية إلى دولة، وتم وضع حد للحروب والغزوات بين القبائل. كما يوضح قدرتهم على التكيف بسبب الغزو الذي تتعرض له الصحراء من قبل وسائل النقل الميكانيكية وأدوات الحفر للتنقيب عن البترول. إن قدرة آل مرّة على البقاء على قيد الحياة في الربع الخالي تتوقف على حكمة القيادة الوطنية بالسماح لهم بإجراء التعديلات اللازمة على نظام التقاليد لديهم. ويتم هذا عندما تتحقق لديهم الرغبة والقدرة على إجراء مثل تلك التعديلات.

فيجب على الإنسان أن يعدل حياته وفقاً للمتطلبات الاقتصادية، لذا فإن مثل تلك التعديلات تعتبر ملحة في مكان مثل الصحراء العربية، حيث توجد الكثير من الحدود القاسية. وتظهر لنا قبائل الربع الخالي أنه حتى عندما تطغى تلك المتطلبات على كل وجه من أوجه التصرف تظل الحياة غنية ومعطاءة.

تمهيد

على مدى سنتين ، ما بين أبريل (نيسان) ١٩٦٨ ومايو (آيار) ١٩٧٠ كان لي شرف العيش في المملكة العربية السعودية . ذهبت إلى هناك بصفتي طالبا في الدراسات العليا بجامعة كاليفورنيا - بيركلي ، وكنت أريد إعداد بحثي والخاص برسالة الدكتوراه في علم الإنسان .

وبما أن ما من أحد من قبل قام بإجراء بحث أكاديمي في علم الإنسان في المملكة العربية السعودية ، فقد ذهبت إلى هناك بصفة الباحث في علم الإثنوغرافيا ، وقررت العمل بين أفراد القبيلة البدوية آل مرّة وفقاً للاقتراح المقدم من قبل كل من فضيلة الشيخ د .عبد العزيز الخويطر من جامعة الرياض والأخ مسعود التاجي الفاروقي من وزارة الزراعة والماء السعودية .

وكانت حكومة المملكة العربية السعودية تسعى لتطوير مشروع على المدى الواسع يعنى بتحضير البدو ويشمل قبيلة آل مرّة . وعلى الرغم من عدم إيماني بفوائد مشاريع التحضير إلا أنني رحبت بتلك الفرصة للعمل مع أعرق القبائل في المنطقة العربية ، وإعداد البحث الخاص بي حول بعض الإدارات الحكومية المعنية بتطوير البلاد .

قضيت ثمانية عشر شهراً مع آل مرّة في المناطق الصحراوية الشرقية والجنوبية الشرقية من المملكة العربية السعودية ، وقد كنت في معظم الأوقات ضيفاً مستديماً في بيت الأخ علي بن سالم بن الكربي من فخذ آل عازب ، كما تمّ توظيف الكربي ، ثاني أولاد علي ، كسائق ودليل لي من قبل وزارة الزراعة والماء السعودية ، التي تفضلت مشكورة بتوفير سيارة لاستعمالي الشخصي .

ولقد كان من المستحيل إنجاز هذا البحث لولا مساعدة وصداقة الأخ الكربي بن علي الذي قادني عبر صحاري المملكة وعرفني على آل مرة .

كان الكربي شاباً في الثلاثينات ، وقد رحب بي كأخ عزيز وساعدني على تعلم اللهجة المرية ، وقدمني إلى المئات من زملائه من رجال القبائل . وأنا أدين

لأبيه بشكل خاص ولأعمامه وأخواله بإطلاعي على التسلسل العائلي، والقبلي، وبإخباري القصص الشيقة حول الغزوات التي كانت تحدث في الماضي بين القبائل، وبتثقيفي فيما يختص بتقاليد العرب الرحّل. كما قام كل من شقيقه مرزوق وابن عمه حران بن محمد، وكلاهما من أصحاب الشعور الطويلة، بتلقيني ركوب الجمال، واصطحابي معهما في رحلات رعي الإبل وتعليمي معظم ما تعلمته عن الصحراء.

وبما أنني أقمت مع فخذ آل عازب، فقد أصبحت أعرفهم تمام المعرفة، لكنني قمت بزيارة الفخوذ الأخرى وأقمت لمدة ستة أسابيع بضيافة أمير آل مرّة طالب بن راشد بن شريم، وابنه راشد وابن أخيه فيصل بن محمد. كان استقبال آل مرّة لي استقبالاً حاراً، ومع مرور الوقت أصبحت جميع القبائل الأخرى تعرف كل شيء عني، إذ إن الأخبار في الصحراء تنتشر بسرعة. أعطوني اسم عبد اللّه ونسبوني إلى الأمير طالب مدعين أني ابنه. قالوا إني جئت لأعرّب نفسي، وهذا أمر صحيح، كما راحوا يلقنونني طرق اللياقة العربية لكي أبدو وكأني من نبلاء القوم وشريف بين الشرفاء. لقد أمضيت أسعد فترة من حياتي معهم، ولن يسعني أبداً إلا أن أرد لهم كل الحب الأخوي الذي لمسته منهم وكل ما تعلمته منهم.

وهناك العديد من الأشخاص الذين ساعدوني أثناء إقامتي في المملكة، وإنني أكن بخالص التقدير والامتنان لصاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، الذي تكرم بالموافقة شخصياً على برنامج البحث الخاص بي.

كما أخص بخالص الشكر والعرفان أصحاب السمو الملكي الأمير سعد بن فيصل، وفضيلة الشيخ أحمد زكي يماني، وفضيلة الشيخ حسن المشاري، وفضيلة الشيخ عبد العزيز الخويطر، والأخ عبد العزيز التركي، والأخت د. ثريا م. التركي، والأخ مسعود التاجي الفاروقي، والأخ طارق الشوّاف، والأخت فيكي كالدويل تيمونز. وقد تمّ تمويل هذا البحث من خلال منحة قدمتها مشكورة المؤسسة الوطنية للصحة الذهنية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ويشكل هذا الكتاب نسخة منقحة لرسالة الدكتوراه التي تقدمت بها ، والتي أشرف عليها في بركيلي لجنة مؤلفة من الأساتذة لورا نادر ، ونلسون غرابرن ، ومنح خوري . وأنا أتقدم بالشكر لأعضاء اللجنة على مساعدتهم لي في عملية إعداد هذه الرسالة . كما أود أن أتقدم بخالص الشكر للأساتذة روبيرت فرنيا ، وطلال أسد لقراءتهما هذه الرسالة بالتفصيل والتعليق عليها . وأنا أعتبر نفسي مسئولاً عن جميع ما ورد في هذا العرض من بيانات وتفسيرات .

دونالد باول كول

سان فرانسيسكو- يونيو (حزيران) ١٩٧٤

الفصل الأول

مقدمة

مقدمة

في أواخر شهر سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٦٨ ، وبعد الحصول على الإذن بالسفر من حكومة المملكة العربية السعودية ، توجهت إلى مقر أمير قبيلة آل مرّة . وكان المقر عبارة عن مساكن مهجورة للعمال قرب محطة لتكرير البترول في مدينة أبقيق ، والتي تقع في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

وكان الأمير طالب بن راشد بن شريم المري في الوقت نفسه الرئيس الأعلى لآل مرّة ورئيس فرقة في الحرس الوطني الاحتياطي السعودي ، والذي يتكون معظم أفراده من قبيلة آل مرّة .

استقبلت بكل حفاوة من قبل الأمير وأبنائه ، وأبناء أعمامه ، وفي الأيام التالية تعرفت على العديد من أفراد القبيلة الذين جاءوا لتأدية مهامهم الشهرية ضمن الحرس الوطني وقبض رواتبهم .

حاول راشد الابن الأكبر للأمير أن يشرح لي تاريخ القبيلة وشجرة العائلة فيها ، بينما راح الرجال الآخرون يطلعونني على أسمائهم وعلى الفخذ الذي ينتمون إليه ، وأسماء مجموعات الأقرباء . كانوا يجعلونني أردد تلك الأسماء لكي أحفظها . وقد أدهشتني الطريقة الصريحة والمباشرة والودية التي كانوا يتبعونها في التعريف عن أنفسهم ، وكانوا يضحكون طيلة الوقت ويمازحونني ويمازحون بعضهم البعض .

وما لمسته من ترحيب وصداقة جاء على عكس الوصف الذي كنت قد قرأته حول بدو السعودية ، على أنهم متعصبون وصارمون من ذوي الشعور الطويلة وحملة الخناجر الذين لا يقدرون إلاّ القليل من الأشياء الرفيعة في الحياة . كما جاء على عكس ما وصفت به منطقة الربع الخالي الصحراوية التي يسكنها آل مرّة على أنها أرض الجنون والموت .

وكان آل مرّة يرددون دائماً أنه : «بإمكان المرء أن يجد كل شيء في الربع الخالي ؛ أفضل الإبل ، وحليب الناقة اللذيذ ، والصيد الوفير ، والرمل النظيف ،

كإخوة .»

والهواء النقي ، وحيث يعيش الجميع كإخوة . » قضيتها معهم لم أعتبرهم في يوم من على مدى الثمانية عشر شهراً التي قضيتها معهم لم أعتبرهم في يوم من الأيام على أنهم بربريون أو متعصبون ، على العكس كانوا يتمتعون بما يمكن تسميته بالتواضع الأرستقراطي الذي كان ظاهراً في أعمالهم وأحاديثهم . فهم يرفضون العيش في المدينة لأنها ملوثة مادياً واجتماعياً ، ويفضلون الصحراء حيث بإمكانهم الحصول على حياة نقية ونظيفة كما يقولون . وقد دعم ذلك اعتقادهم بالمذهب الحنبلي ، والذي كان يؤيد عادات وتقاليد العرب مثل الكرم والضيافة والانتقام عند الظلم ، والزواج من القبيلة ذاتها .

لكن هذا الشعب المكتفي بذاته والذي يستغل البيئة الطبيعية التي تؤمن له مستوى معيشياً جيداً في الصحراء العربية التقليدية يواجه الآن صراعاً مميتاً من أجل البقاء . وليس بالمقصود هنا وجود أخطار جسدية تهدد الأفراد ، إنما التغيرات التي قد تطرأ على مجتمعهم وثقافتهم وطريقة عيشهم ضمن عملية الحداثة التي تمر بها المملكة العربية السعودية .

ولا يخفى على أحد أن أغنى آبار النفط المعروفة توجد في المملكة العربية السعودية وفي الدول الشقيقة لها التي تحد الخليج العربي . فلقد تمّ اكتشاف النفط في المملكة عام ١٩٣٨ ، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية تسارعت عمليات التنقيب وارتفع مجموع إيرادات النفط من ٥٠ مليون دولار في عام ١٩٥٠ إلى مليار دولار في عام ١٩٦٨ وإلى ٣ مليارات دولار في عام ١٩٧٣ .

وتدفقت إلى منشأ الإسلام ومهد عرب الصحراء المنتجات الاستهلاكية الغربية والشرقية . فقد حلت الشاحنات والسيارات والطائرات محل الجمال التي كانت تمثل بالنسبة للأشخاص الذين لا تزيد أعمارهم على ٣٠ سنة وسيلة النقل الوحيدة المعروفة لديهم . وقد تمّ خلال العشر سنوات الماضية سحق المدن القديمة المبنية من الطين بواسطة الجرافات من أجل بناء الشوارع العامة ، كما تداعت المباني القديمة وهجرها أهلها للسكن في الفلل المكيفة في الضواحي ، وفي الشقق الفخمة في البنايات الشاهقة .

لقد حدثت تغييرات جذرية في المدن ، فشهدت بناء المدارس والجامعات والمستشفيات والمؤسسات التجارية التي تبيع المنتجات الصناعية الواردة من جميع أنحاء العالم ، كما تمّ رصف الطرق وامتدت الشوارع على مسافات طويلة حول مدينتي الرياض وجدة .

كما تدفق على المدن ومخيمات التنقيب العديد من أفراد الطبقة المتوسطة العاملة من لبنانيين ، وفلسطينيين ، ومصريين ، وكذلك اليمنيين من الطبقة الفقيرة وبالأخص من المناطق التقليدية من اليمن مثل حضرموت ومن عمان . كما جاء إليها من أوروبا وأمريكا الشمالية وباكستان واليابان العمال المحترفون ، والمستشارون ، والفنيون ، ومديرو الشركات .

وشهدت المدن تغيرات أكثر بكثير من القرى أو الصحاري ، لكن التوازن الدقيق الذي كان قائماً بين الصحراء والأراضي الزراعية ، وبين البدو الرعاة وبين المزارعين المستقرين فقد تمّ تدميره .

ما زال معظم البدو والذين يشكلون نسبة ٢٠٪ من المجموع السكاني العام البالغ ٨ ملايين نسمة ، يتابعون عملية رعي القطعان في الصحراء من أجل تأمين عيشهم ، أما الشباب منهم فراحوا يغادرون الخيام والقطعان ويبحثون عن عمل مقابل أجر في المدن ، والتمركز هناك مع زوجاتهم وأولادهم مفضلين بذلك الحياة المقيدة لطبقة العمال على حياة رجال القبائل المستقلة .

لذا فقد أصبح مستقبل البداوة مجهولاً . فهناك العديد من البدو من غيّر نمط حياته ، لكن السؤال المطروح الآن هو : هل تمّ القضاء على حياة البدو الرعاة بشكل نهائي في المملكة العربية السعودية المعاصرة؟ لماذا نجد أنه من الأرخص والأسهل استيراد لحوم الغنم المثلجة من الأرجنتين ونيو زيلندا بدلاً من استهلاك المنتجات الوطنية؟ أما زالت الصحراء العربية توفر المرعى الذي كان يسمح بتوريد عدد كبير من الجمال والماعز والخرفان إلى جميع أنحاء المشرق ومصر والهند؟ ألا يمكن لعملية استغلال تلك الأراضي المساهمة في الاقتصاد السريع النمو والمبني على السيولة؟ تلك هي الأسئلة التي سنسعى للإجابة

عنها في الجزء الأخير من هذا الكتاب ، لكن على القارئ أن يبقيها في ذهنه أثناء القراءة لأنها تشكل جزءاً من الواقع الذي يواجهه البدو في المملكة العربية السعودية الحالية .

وقبل أن نحاول تحليل التغيرات التي يواجهها البدو في السعودية وسائر العالم العربي ، دعونا نناقش موضوع البدو الرعاة في المنطقة العربية من جميع نواحيه التقليدية . لطالما كان البدو في المنطقة العربية يمثلون جزءاً من مجموع السكان ، على الرغم من الأسطورة التي تقول إن أصل الأشخاص المقيمين غير الرّحل يعود إلى البدو . إن معظم الأشخاص الذين يعيشون في الصحراء هم من القرويين المقيمين في الواحات ، لكن ما يجذب انتباه المسافرين هم البدو الرّحل الذين وضعوا أسس التقاليد العربية بشكل عام .

وقد ركزنا على البدو الرّحل في هذا الكتاب ليس لأنهم يمثلون الصورة المثالية والعاطفية «للشخص العربي الأصيل» ، إنما بسبب اهتمامنا لمعرفة كيف يعيشون في هذه البيئة التي تعتبر قاسية في نظر معظم الأشخاص ، وكأنها أرض الجنون والموت ، حيث لا يمكن للإنسان العيش فيها . فالبدو الرّحل يعيشون في هذه البيئة الجافة حياة مريحة إلى حد ما ، ولكن كيف يمكنهم ذلك؟

سوف ننظر إلى الموضوع من الناحية البيئية - كيف يتم تكييف الهيكلية الاجتماعية والثقافية للبدو مع حياة الترحال؟ وبالأخص ما هو نوع المجموعات الاجتماعية الموجودة ضمن مجتمعهم ، وكيف توفر لهم إطار عمل تنظيمي لاستثمار محيطهم؟

كيف أن عمليات الانشقاق والانصهار الخاصة بالوحدات الاجتماعية التي تنكمش وتتوسع ، وهذه ميزة من ميزات ديناميكية التنظيم الاجتماعي لدى البدو ، ترتبط بالتغيرات الموسمية واحتياجات الحيوانات؟ ما هو تأثير سكناهم في الصحراء وعلاقتهم الوثيقة بالحيوانات على حياتهم الدينية؟ كيف تترابط جميع تلك الأوجه المتعلقة بحياتهم لتشكل وحدة متكاملة كانت ، حتى مؤخراً ، يتم توارثها من جيل إلى آخر من دون أي تغيير يذكر؟

البدو الرعاة في الشرق الأوسط

في الأصل كانت الأراضي الإسلامية الموجودة في جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا ، والتي تعرف بالشرق الأوسط ، تتمتع بعدد كبير من الميزات الطبيعية التي تسهل الجمع بين الزراعة المستقرة والترحال لرعي القطعان . فتساقط الأمطار فيها قليل بشكل عام ، ولا يصل معدله السنوي في أي من الأماكن فيها إلى ٤٠-٥٠ بوصة كما هو الحال في الولايات الشرقية الأمريكية ، وأوروبا الغربية ، وشبة الصحراء الأفريقية والهند والصين . هناك فقط بعض المناطق الساحلية والجبال التي تتمتع بمعدل يصل إلى ٢٠ بوصة سنوياً ، أي ما يساوي المعدل الذي يهطل في المناطق الإسبانية الأكثر جفافاً . أما معدل تساقط الأمطار في باقي المناطق فيتراوح بين أقل من بوصة واحدة سنوياً في منطقة الصحراء الوسطى وجنوب مصر و٤ بوصات في صحراء جنوب المنطقة العربية ، و٨ بوصات سنوياً في شمال المنطقة العربية والصحراء السورية .

وعلى الرغم من أن الزراعة تقتصر فقط على أقل من ١٠٪ من مجموع مساحة الأرض بسبب النقص الحاد في المياه ، إلاّ أن أهم الدول الزراعية والإمبراطوريات كانت موجودة في تلك المنطقة .

إن معظم المحاصيل والحيوانات التي نعرفها في الغرب اليوم ونستخدمها قد تمّ تدجينها أثناء السنوات الأولى للثورة الزراعية التي حصلت منذ ١٠٫٠٠٠ سنة على الأقل . وقد تركزت الزراعة بشكل خاص في تلك المناطق القليلة التي كانت تتمتع بتوفر المياه فيها . هناك وديان نظام الأنهار المشهورة في الشرق الأوسط ولا سيما دجلة والفرات والنيل ، والتي شهدت مشروعات الري على مدى واسع منذ ٧٫٥٠٠ سنة على الأقل ، وما رافقها من زراعة مكثفة وبناء مدن وتقسيم للمجتمع وفق التخصصات الاقتصادية ، كما كان أول ظهور لمفهوم الدولة على أنها مؤسسة في تلك المراكز الزراعية في الشرق الأوسط .

أما ضرورة التخصص في الرعي فقد ظهرت في الفترة نفسها التي ظهرت

فيها أهمية الزراعة في الشرق الأوسط . وتظهر من خلال الآثار التي وجدت صورة واضحة للنمو الذي طرأ على الزراعة والرعي بشكل متلازم ومتكافل، وكذلك التاريخ المبكر الذي بدأ فيه الإنسان الاهتمام بالنبات والحيوان في المنطقة ، مما يدل على التغيير البيئي والثقافي الذي حدث .

منذ ١٠،٠٠٠ سنة ، حين بدأ الصيادون بعملية اختيار نوع المزروعات واستخدام البذور في الزراعة ، والتي أدت إلى وفر في الغلة واتباع نمط الحياة المستقرة في القرى ، بدأوا أيضاً بعملية مراقبة قطعان الأغنام والماعز البرية ، من أجل الإبقاء عليها خارج حدود الحقول المزروعة ، ومن ثم تم أسر تلك الحيوانات ووضعها في الحظائر وتدجينها . ومع نمو الزراعة ازدادت الكثافة السكانية وظهرت بعض التخصصات الاقتصادية . وبمرور الوقت ظهر الرعاة المتخصصون الذين راحوا يستغلون المراعي البعيدة عن المناطق المزروعة .

لذا ، فإنه لا يمكننا اعتبار الرعي على أنه منصب ورثناه من طريقة عيش أجدادنا في العصر الحجري ، لأن الحيوانات البرية التي كانوا يعتمدون عليها لم يكن لهم أية سيطرة عليها ، ولم يكونوا يعرفون أي شيء عنها ، أما الحيوانات الداجنة التي تحتاج للرعي فقد وضعت تحت سيطرتهم وباتت تعتمد على الرعاة للبقاء على قيد الحياة . ويمثل الرعي بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط محاولة لاستخدام المناطق التي لا تصلح للزراعة ، لكنها توفر فوائد جمة من خلال رعي الحيوانات فيها من قبل الرعاة المهرة .

على الرغم من أن الزراعة لا تغطي سوى ١٠٪ من المساحة ، فهذا لا يعني أن بقية الأراضي تفتقر إلى النباتات . فهناك العديد من المراعي الطبيعية الممتازة التي تحتوي على أنواع مختلفة من النباتات الدائمة والسنوية ، لكن الظروف المناخية قليلاً ما تسمح بالرعي المستقر كما هو الحال في المزارع الحديثة . إن مساحة مناطق الرعي محدودة جداً ، وأفضل طريقة لاستغلالها هي في الترحال الموسمي من منطقة إلى أخرى .

وتوجد في الشرق الأوسط مناطق تختلف عن بعضها كثيراً من الناحية

البيئية ، لكنها في الوقت نفسه تكمل بعضها البعض من حيث توفر المرعى في فصول مختلفة ، مما يشجع على الترحال للرعي . على سبيل المثال في غرب وجنوب غرب إيران تشهد جبال زاغروس سنوياً هطول كميات كبيرة من الأمطار والثلوج ، مما يشكل قاعدة طبيعية للرعي في فصل الصيف . وإلى الغرب من جبال زاغروس يوجد السهل الأشوري الذي يوفر المرعى الشتوي للحيوانات ، لكنه يكون حاراً وجافاً في فصل الصيف .

كان الصيادون في العصر الحجري يلاحقون الحيوانات البرية أثناء هجرتها وتنقلها بين تلك المنطقتين ، والآن يسوق الرعاة الحيوانات من المرعى الشتوي في السهل الأشوري إلى المرعى الصيفي في وديان جبال زاغروس . ويتكرر الوضع نفسه بالنسبة للرعاة في المغرب ، حيث يرعون حيواناتهم في السهول الموجودة على الطرف الشمالي للصحراء في الشتاء ، ومن ثم يصعدون بها إلى وديان جبال الأطلس في الصيف .

وتشهد تلك المناطق والأماكن الأخرى التي تتجاور فيها أراضي الرعي المرتفعة والمنخفضة تفاعل الرعاة الرّحل مع المزارعين المستقرين الذين تربطهم بهم روابط اجتماعية واقتصادية وثقافية قوية . فمنذ أقدم العصور قام الرعاة باستخدام المناطق العليا والجافة لجبال زاغروس والتي لا تصلح للزراعة ، بينما قام المزارعون باستغلال الوديان الواسعة التي ترويها الأمطار سنوياً . وكذلك الوضع في السهل الأشوري ، حيث يستخدم الرعاة المناطق التي تشهد ملوحة في الأرض تحول دون الزراعة بينما تستخدم المناطق الغنية بالماء للزراعة .

تختلف الشروط التي تحكم عملية الترحال للرعي في الصحراء الواسعة في منطقة الشرق الأوسط . فهناك الهجرة الموسمية التي تحدث سنوياً ، لكنها بدلاً أن تتم بشكل عمودي أي من الأراضي المنخفضة في الشتاء إلى الأراضي المرتفعة في الصيف ، فهي تتم بشكل أفقي أي من موارد المياه الدائمة من فصل الصيف إلى فصل الخريف ، إلى مراع أخرى في الربيع والشتاء . إن حاجة الحيوانات لشرب الماء بشكل منتظم وأحياناً أثناء فصل الصيف الحار فقط وليس

أثناء الفصول الباردة ، يشكل العامل الأساسي الذي يتحكم بتلك الشروط وليس عدم توفر المراعي اللازمة . تلك هي ميزات الإبل التي تتكيف مع هذا الوضع . فقدرة الجمل على العيش بلا ماء لفترات طويلة لا تعود إلى قدرته الخرافية على تخزين كميات كبيرة من الماء إنما إلى «نظام التكيف» لديه الذي يسمح له بتحمل درجات عالية من الحرارة مع صرف كميات صغيرة من السوائل ، حيث يشرب الجمل في الصحراء العربية مرة كل أربعة أيام في فصل الصيف ، ومرة كل أسبوع أو ١٠ أيام في فصلي الربيع والخريف ، ومرة كل شهر أو ٦ أسابيع في فصل الشتاء ، وهذا يتوقف على درجة الحرارة وتوفر العشب الشتوي الطري الغني بالسوائل . وهناك بعض الأنواع من الأغنام والماعز التي يمكنها الاستغناء عن الماء لفترات من الزمن لكنها ليست مثل الجمل .

ولا يشكل الترحال للرعي دائماً الطريقة الفضلى لاستخدام الأراضي ، سواء كان ذلك الآن أو في بداياته . على سبيل المثال فقد قام العرب الرّحل في القرن الحادي عشر للميلاد في شمال أفريقيا بتدمير معظم قنوات الري التي أنشأها الرومان وطورها العرب الذين جاءوا بعد الفتوحات الإسلامية في القرن السابع للميلاد . وهناك أيضاً الأراضي الخصبة والمروية بالأمطار والواقعة على الساحل الأطلسي وساحل البحر الأبيض المتوسط في المغرب وتونس والجزائر ، والتي تمّ احتلالها أثناء غزوات القبائل العربية ، فقد ركزت تلك القبائل اهتمامها على الرعي بدلاً من الاستمرار في الأنشطة الزراعية المفيدة والمربحة التي كان يمارسها السكان السابقون ، وقد استؤنفت زراعة معظم تلك الأراضي في هذا العصر فقط .

ويظهر تدخل الرعاة الرّحل في الزراعة في حقبات مختلفة من التاريخ ، فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فرضت القبائل الرّحالة سيطرتها على جميع أنحاء سوريا ، حيث كانت دائماً تهدد عمليات التجارة والزراعة من خلال فرض رسوم من أجل الحماية . ويعزو أحد العلماء الزيادة في عدد سكان المدن في هذه الفترة إلى حالة الثورة وعدم الاستقرار التي كانت تشهدها المناطق

الريفية بسبب الرعاة الرّحل .

ومع نهاية القرن الثامن عشر بدأت أهمية البدو الرّحل تتراجع في المنطقة لصالح المقيمين المستقرين . وقد أدت العوامل السياسية والاقتصادية الخارجية والداخلية إلى تراجع في عملية الترحال للرعي ، وإلى انخفاض الأهمية المعطاة للقبائل في الهيكل الاجتماعي السياسي . وقد حصلت عملية التغيير بشكل معقد وعنيف في بعض الأحيان ، وبهدوء في أحيان أخرى . هناك أمثال عديدة على ذلك - لنأخذ المغرب والجزائر وتونس وليبيا وفلسطين ، فقد تعقد الوضع فيها بسبب الاستعمار ، إذ على الرغم من نجاح تلك المناطق في تفادي الاستعمار الأوروبي على شكل واسع ، إلاّ أنها لم تنج من تدخل الإمبرياليين الأوروبيين في شئون القبائل الداخلية ، والتي كانوا يجهلون كل شيء عنها .

في العقود الماضية كان اكتشاف النفط والثروات الضخمة التي أوجدها بمثابة إنذار بقرب نهاية عملية الترحال للرعي ، والتي كانت تعتبر طريقة مهمة للعيش في الشرق الأوسط . فإن إيديولوجيات الحكومات الحالية ، وسكان المدن يقفون جميعاً ضد استمرار حياة الترحال التي تعتبر متناقضة مع أهداف وتطلعات الدولة العصرية والمجتمع العصري .

وعلى الرغم من أن عملية التصنيع على المدى الواسع سوف تحدث تغييرات اقتصادية أساسية في البنية التحتية ، سواء كانت بالنسبة للرعاة الرّحل أو المزارعين المقيمين ، بحيث يستوجب علينا توخي الحذر عند وضع هذين القطاعين جنباً إلى جنب ، إذ إنهما يعتمدان على أسلوبين مختلفين من الحياة ، وهما في صراع دائم للحصول على السلطة السياسية في الشرق الأوسط . أما من الناحية البيئية ، فتشير الدلائل إلى حصول بعض التدرج في مجال التخصصات ، مما يعكس المحاولة لاستغلال البيئة بأكملها وعدم ترك أي جزء منها من دون استخدام .

بينما توجد حدود واضحة بين الصحراء والأراضي الزراعية في الشرق الأوسط بحيث يمكن للمرء أن يضع قدماً في الأرض الخصبة والقدم الثانية في

الصحراء ، فإنه ليس بالإمكان الفصل بين حدود الراعي الرحال والمزارع المستقر . باستثناء الأماكن التي تتمتع بمعدل جيد من تساقط الأمطار فإن الزراعة في الأماكن الأخرى ترتبط بشكل مباشر بالمسافة التي تستطيع أن تصل إليها قنوات الري داخل الصحراء .

وهناك أنواع مختلفة من الرعي ودرجات مختلفة من الترحال ، وهذا يتوقف على طبيعة عمل الراعي ، سواء كان ذلك بالقرب من المناطق الزراعية أو في عمق الصحراء . فالرعاة الذي يعملون على حافة الصحراء يلعبون دوراً هاماً في قطاع الزراعة وهم يهتمون بالأغنام والماعز . أما الذين يعملون في عمق الصحراء فهم قليلاً ما يتفاعلون مع المزارعين وهم يهتمون بالإبل . وهناك سلسلة متصلة تمتد من المزارع المستقر ، إلى المزارع نصف المستقر ، إلى الراعي نصف المستقر ، وإلى الراعي الدائم الترحال . كما يوجد أيضاً الذين يمارسون نوعاً آخر من الترحال وهم يشكلون نوعاً من أنواع الشعوب المختلفة الموجودة في الشرق الأوسط .

هناك نماذج اقتصادية معقدة للتفاعل الموجود بين الشعوب المستقرة والشعوب الرحالة . فالبدو يرعون حيواناتهم على مخلفات الحصاد بعد الانتهاء منه ، مساهمة منهم في توفير السماد الطبيعي للحقول ، بينما يلعب العديد من البدو الذين يسكنون بالقرب من الحقول الزراعية دورا هاما من خلال نقل المحاصيل بصفتهم المالك الأساسي للحيوان القادر على النقل في الشرق الأوسط ألا وهو الجمل . فالمزارع المستقر الذي يملك بعض الحيوانات يعهد بها إلى الراعي لكي يوفر لها المرعى ، وكذلك الراعي الذي يملك بعض أشجار النخيل أو قطعة أرض زراعية صغيرة فهو يعهد بها إلى المزارع لكي يعتني بها مقابل جزء من المحصول .

أما البدو المحاربون الذين يعيشون عادة في عمق الصحراء فهم يوفرون في آن واحد الحماية للمزارع المستقر ، والراعي نصف المستقر ضد أية هجمات أو محاولات استغلال من قبل البدو الآخرين .

تعتمد مجموعتا الرحالة والمستقرين على منتجات وخدمات بعضهما البعض ، على الرغم من أن كلاً منهما يظن أن طريقة عيشه تختلف عن طريقة عيش المجموعة الأخرى ، إلاّ أنهم جميعاً يتبعون نظاماً اقتصادياً موحداً يهدف إلى استخدام جميع الموارد المتوفرة سواء كانت زراعية ، أو متعلقة بالرعي أو بيئية شاملة . لذا فإن أية محاولة لتحضير البدو وتحويلهم إلى شعب مستقر سوف تنتج عنها خسارة قسم كبير من الموارد في الشرق الأوسط .

آل مرّة

ويعتبر آل مرّة وهم موضوع كتابنا هذا قبيلة عربية (أو بدوية) تقوم على استغلال الصحراء الموجودة في المناطق الشرقية الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية . وعلى الرغم من غياب أي تعداد لأفراد القبيلة إلاّ أن عددهم يبلغ ١٥٫٠٠٠ نسمة . وهم ينقسمون إلى عدد من المجموعات المختلفة المنحدرة من جد مختلف . أما الوحدة الأساسية التي تشكل مجتمعهم فهي مكونة من رجل وامرأة كبار في السن ، وأبنائهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم . أما معدل البيت الواحد فيبلغ ٧ أشخاص . أعلى من مستوى البيت نجد الفخذ الذي يضم جميع الأشخاص المنحدرين من الجد نفسه على مدى خمسة أجيال ، أما معدل الفخذ الواحد فهو ٥٠ بيتاً . ويجتمع كل أربعة أو ستة أفخاذ وفقاً للجد الأكبر ويشكلون قبيلة . وقبائل آل مرّة التي تضم جميع المنحدرين من مرّة تتضمن سبع قبائل .

يقف آل مرّة اليوم بين الرحالة والمستقرين ، وهم يعتبرون من البدو الذين يتحركون بواسطة الجمال . على الرغم من أن البعض منهم راح يتبع القبائل العربية الأخرى والتحول إلى أسواق رعي الأغنام والماعز ، أو البحث عن عمل مقابل أجر ، إلاّ أن معظم أفراد القبيلة ما زالوا يعتمدون على رعي الإبل ، حيث تتم تربية الجمال في المقام الأول من أجل الحليب . ويعتبر آل مرّة من أكثر البدو

التقليديين في السعودية المعاصرة ، وهم على وعي تام بالتغييرات التي تحدث .

وعلى عكس المجتمع الغربي الرومنطيقي الذي يبكي على طرق العيش القديمة ويخاف من التغيير والإفلاس المعنوي ، فإن آل مرّة يشكرون اللّه سبحانه وتعالى على نعمة الأمن والسلام التي تمتاز بها معظم الشئون القبلية في المنطقة العربية ، وعلى الحياة السهلة التي يوفرها التطور الاقتصادي العصري . أضف إلى ذلك أنهم لا يوافقون الغربيين أو المسئولين الحكوميين رأيهم فيما يتعلق بمستقبل البدو الرعاة في العالم المعاصر ، وهم الآن بصدد البحث عن الطرق (بمساعدات بسيطة وتشجيع من الخارج) لتحديث عملية الرعي والمشاركة بشكل فعّال في المجتمع الحديث . أما عدم تعرض آل مرّة للكثير من التغييرات أسوة بباقي القبائل ، فهذا أمر يعود إلى احتلالهم للربع الخالي وهو أكثر الأماكن عزلة وبعداً في الصحراء العربية وهو كما يقولون يمثل حبهم للقطعان الممتازة من الإبل الأصيلة والتي لا يمكن لهم في يوم من الأيام الاستغناء عنها .

وعلى الرغم من أن أراضي آل مرّة تقع في الأماكن المعزولة من المنطقة العربية فإن معظم حقول النفط التابعة للمملكة العربية السعودية تقع ضمن جزء من أراضيهم أو بالقرب منها . ونتيجة لذلك فقد شهدت آل مرّة تغييرات جذرية أكثر من باقي القبائل التي تحتل أراض بعيدة عن مواقع صناعة النفط . فهم يقدمون نموذجاً فريداً عن الصورة التقليدية للبدو الرعاة في الصحراء العربية ، وفي الوقت نفسه يلقون بنظرة سريعة على عوامل التغيير التي تحدث هناك وفي جميع أنحاء الشرق الأوسط حالياً .

الفصل الثاني

البيئة: الأرض، الحيوانات، المهارات الخاصة

البيئة: الأرض، الحيوانات، المهارات الخاصة

يؤمّن آل مرّة جميع احتياجاتهم الحياتية من خلال رعي الإبل والأغنام والماعز في الصحاري الواقعة في شرق وجنوب شرق الجزيرة العربية . وتعتبر الجمال أهم أنواع الحيوانات لدى آل مرّة ، وهي النوع الوحيد من الحيوانات التي يحتفظ بها آل عازب الذين عشت وسافرت معهم . وعلى غرار جميع الرعاة ، فإن لآل مرّة علاقة تكافلية مع الحيوانات التي يرعونها لأنها توفر لهم العناصر الأساسية لغذائهم ، لذا كان من الواجب عليهم بذل قصارى جهدهم في البحث عن أفضل المراعي والتحكم في ينابيع المياه . هذا لأن الإنسان والحيوان بحاجة إلى بعضهما من أجل البقاء ، ولا يمكن لأي منهما العيش بمفرده في البيئة الصحراوية من دون مساهمة الآخر .

إن علاقة الرعي الوثيقة بالحيوانات التي يستفيدون منها ويرعونها تشكل أهم ميزة من ميزات مجتمعات الرعي . فالحيوانات لا تسهم فقط في توفير الأشياء المادية الضرورية للحياة ، إنما تمثل عنصراً هاماً من عناصر الفلكلور والدين لدى الشعوب .

ولا يكتفي آل مرّة بشرب حليب الناقة فقط ، بل إنهم يعطون كلاً من الحيوانات اسماً خاصاً بها ويتغنون بها ويكتبون عنها الأشعار ، ويؤلفون حولها القصص التي لا نهاية لها ، وتوجد لديهم طريقة خاصة للتعامل معها ، كما يدعون أنهم قادرون على التخاطب معها . وتشكل الإبل بالنسبة لآل مرّة جزءاً لا يتجزأ من حياتهم المادية والثقافية والاجتماعية ، ويكون من الصعب جداً محاولة تصورهم بدونها إذ إنها تمثل حبهم الثابت الذي لا يتغير .

يشكل الحليب العنصر الأهم في النظام الغذائي لآل مرّة ، فالإبل التي يرعونها هي من فصيلة مشهورة بنوعية الحليب الذي توفره ، فبعد وضع حوارها تعطي الناقة ما يقارب جالوناً من الحليب يوميا للاستهلاك البشري ، وتستمر على هذه الحال ولكن بكميات أقل طيلة سنة كاملة . كما تشكل الجمال في

بعض المناسبات مصدراً للحم ، مع العلم أن آل مرّة لا يحبذون أبداً ذبح جمل مكتمل النمو إلاّ إذا كان مريضاً وعلى وشك الموت ، فهم يقومون في المناسبات الخاصة بذبح الحوار (صغير الناقة) ، لكنهم بشكل عام لا يعتمدون على الجمل كمصدر للبروتين .

خلال العقود الماضية ، وقبل أن يمنع الصيد ، كانت الحيوانات البرية تؤمن البروتين الحيواني ، أما اليوم فإن الخراف المشتراة من أسواق المدن أو من البدو الآخرين أصبحت تؤمن لهم اللحم ، مع العلم أنه لا يدخل كثيراً ضمن عناصرهم الغذائية .

والحليب كما ذكرنا يشكل العنصر الغذائي الأهم لدى آل مرّة ، فهم دائماً يتحدثون عن فوائده وعن القوة التي يمنحها للإنسان ، فهم يحنون دوماً إلى حليب نوقهم عندما يضطرون للسفر إلى المدينة والابتعاد عنها .

أما العنصر الغذائي الآخر فهو التمر ، بالإضافة إلى الوجبات اليومية المكونة من بعض الأرز أو الخبز المغمس بدهن الحيوان . ولا تتوفر لآل مرّة سوى كميات صغيرة من التمر يشترونها من أسواق المدن وبالأخص في منطقة الهفوف . أما المال لشراء التمر فيتم توفيره من خلال وظيفتهم ضمن الحرس الوطني الاحتياطي السعودي ، وبشكل متزايد ، من الأجور التي يتقاضونها مقابل عملهم في المدن أو في مخيمات التنقيب عن النفط في شرق المملكة . فهم نادراً ما يبيعون الإبل ، كما أنهم لا يعتمدون عليها أو على منتجاتها لتأمين العناصر الغذائية الأخرى ، بل إنهم يعتمدون على المال الذي يحصلون عليه لقاء عملهم أو بصورة مكافآت خاصة من قبل الحكومة .

فيما مضى ، وقبل إنشاء الحكومة المركزية القوية وإدماج رجال القبائل في الحرس الوطني ، وقبل ظهور الاقتصاد المبني على السيولة ، كان للبدو علاقات خاصة مع المدن والقرى ، إذ كانوا يحصلون على مكافآت عينية سنوية من التمر والحبوب مقابل حمايتهم للأسواق في المدن ولحقول القرويين من العبث والتدمير على يد القبائل الأخرى . أما الآن فإنهم يحصلون على المال نقداً من

الحرس الوطني ويستخدمونه لشراء حاجياتهم .

سوف نناقش في الفصول القادمة بالتفصيل العلاقة بين البدو والمجتمع الواسع الذين يعيشون فيه ، ومما ينبغي التأكيد عليه هو أن عقل وقلب آل مرّة دائماً موجودان مع حيواناتهم في عمق الصحراء . وسوف نتطرق في هذا الفصل إلى الميزات الطبيعية للأرض التي يعيش عليها آل مرّة والقطعان التي يرعونها ، ونمط ترحالهم ، والمهارات والمعرفة المتخصصة التي تمّ تطويرها في أواخر سنينهم من أجل البقاء بكل حرية وكرامة .

ديرة آل مرّة

منذ زمن بعيد ، لا يتذكره أحد ، وآل مرّة يستغلون مساحات واسعة من جنوب شرق وشرق الجزيرة العربية تشتمل على منطقة أساسية تعرف بديرة آل مرّة ، ومناطق أخرى تشاركهم فيها القبائل الأخرى لرعي الحيوانات في فصلي الربيع والشتاء .

تقع ديرة آل مرّة بمعظمها ضمن الحدود الوطنية للمملكة العربية السعودية الحالية ، وتغطي مساحة قدرها ٢٥٠٫٠٠٠ ميل مربع ، وهي تعتبر أكبر مساحة تحتلها قبيلة عربية مع أقل نسبة من الكثافة السكانية .

فلا توجد هناك أية حدود رسمية ، سواء كانت وطنية أو قبلية لهذه المنطقة التي تمّ أخذها بشكل كامل من باقي القبائل ، أو أية حدود داخلية تفصل بين أراضي الأفخاذ المنبثقة عن آل مرّة . فمنطقة آل مرّة تحتوي عل بعض الحدود الجغرافية ويتم استغلالها وفقاً للتقسيم الجغرافي الطبيعي .

يدعي آل مرّة أن نجران وهي واحة تقع في زاوية جنوب غرب الربع الخالي وهي مسقط رأسهم ، مع العلم أنها لا تدخل كثيراً هذه الأيام ضمن خريطة عمل أفراد القبيلة . إن ديرة آل مرّة تمتد من نجران باتجاه الشمال الشرقي على شكل قوس يمر فوق المناطق الغربية والوسطى من الربع الخالي حتى الطرف

الجنوبي منه والذي يشكل حدودهم الجنوبية . أما من الجهة الشرقية من الربع الخالي فإن ديرة آل مرّة تمتد في اتجاه الشمال لتشمل كثبان الرمل في الدهناء والجبال في الغرب وصحراء الجافوره في الشرق . أما الحدود التقليدية لديرة آل مرّة فتتمثل بالمنطقة الموجودة حول واحة الإحساء ، على الرغم من أن المراعي الشتوية والربيعية تمتد شمالاً حتى حدود الكويت وجنوب العراق .

أما آبار المياه التي يدعون الملكية الحصرية لها فهي تقع من جنوب الإحساء مباشرة حتى الرمال الوسطى في الربع الخالي ، بالإضافة إلى مجموعة آبار أخرى في منطقة نجران . ويتقابل آل مرّة بشكل دوري مع باقي القبائل فقط عند تواجدهم في شمال الإحساء ، أو إلى الشرق من الجافوره ، أو في منطقة نجران . أما المنطقة الشاسعة الجوهرية التي تقع وسط ديرتهم فلا يسمح لأي من القبائل بالتردد عليها إلاّ في بعض المناسبات ، حيث يسمح لمجموعات صغيرة تنتمي إلى القبائل القليلة التي تمتلك آباراً ضمن أو قرب أطراف الربع الخالي بالوصول إليها . ويمكننا القول بشكل عام إن آل مرّة يمتلكون أرضاً تضاهي مساحتها مساحة بلد مثل فرنسا .

كما يمتلكون أيضاً ضمن الجزء الشمالي من المنطقة أربع واحات لزراعة النخيل ، جبرين التي تعتبر أقدمها وأكبرها ، والخن ، والسكك ، وانباك التي تطورت خلال الخمسين سنة الماضية ، وتستخدم تلك الواحات في فصل الصيف فقط على الرغم من وجود بعض المباني الثابتة في كل منها . كما تمّ بناء المدارس الابتدائية فيها ما عدا الخن . يمكن لثلث عدد أفراد القبيلة قضاء فصل الصيف في الواحات ، بينما يمضيه باقي أفراد القبيلة قرب الآبار حيث لا توجد أية مبان أو حياة زراعية . وهنا يختلف آل مرّة عن بقية البدو في المملكة العربية السعودية الذين يقضون فصل الصيف بالقرب من الواحات الصغيرة التي يقطنها باستمرار مزارعون تربطهم بالقبيلة صلة القرابة .

الربع الخالي

إن ما يلفت نظر الغرباء حول آل مرّة هو سكناهم للمنطقة الواسعة والغامضة في جنوب شرق الجزيرة العربية والتي تعرف بالربع الخالي . وربما كانت هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها ٢٠٠،٠٠٠ ميل مربع واحدة من آخر المناطق التي استكشفها الأوروبيون وكشف عن أسرارها إلى الفضوليين من سكان الغرب . فقد كان كل من برترام توماس (Thomas 1931) وفيلبي (Philby 1932) أول من سافرا إلى الربع الخالي لإثبات وجوده واستخدامه من قبل بعض رجال القبائل البدوية . قام ويلفرد تيسيغر بعدة سفرات إلى الربع الخالي ما بين ١٩٤٥ و١٩٥٠ وترك لنا وصفاً مؤثراً لجمال الطبيعة البرية لهذه البقعة المعزولة والقاسية ، كما تحدث عن رفاقه في السفر من قبيلة آل راشد (Thesiger, 1959) . وقد قام مؤخراً عمال النفط وفرق المسح الجيولوجي باجتياز معظم هذه المنطقة ، سواء عن طريق البر أو طريق الجو ووضعوا لها خرائط تفصيلية ممتازة .

وكانت تجربة المسافرين مع الربع الخالي تجربة قاسية مما أدى إلى وصفهم للربع الخالي على أنه أرض برية وقاسية ، حيث فرص البقاء فيها ضئيلة للغاية . ولم يعرف أحد منهم الجوانب اللطيفة منه لأنه لم تتح لهم فرصة الإقامة مع السكان الأصليين ومشاركتهم أنشطتهم ، بل كانوا يستخدمون البدو ليرشدوهم إلى الطريق ولم يتنقلوا مع الرعاة والقطعان . والذهاب إلى هناك بدون القطعان يشكل ما يسميه آل مرّة مغازلة الموت ، إذ يمكن لتلك الأرض أن تكون معطاءة برفقة القطعان .

ويظن بعض سكان المملكة العربية السعودية وكذلك بعض الأجانب أن الربع الخالي يعني بالفعل أنه خالٍ من كل شيء . ويؤكد كل من ديكسون (Dickson 1949: 287) وتيسيغر (Thesiger 1959: 37) أن البدو الذين تعرفوا عليهم لم يسمعوا باسم الربع الخالي من قبل ، مما دعاهم للتفكير بأن هذا الاسم كان يستخدم فقط من قبل سكان المدن الذين يجهلون كل شيء

عن حياة الصحراء ، ويخافون من تلك المنطقة بحجة أنه بإمكان الجن والشياطين فقط العيش فيها . أما بالنسبة لآل مرّة فإنهم يستخدمون هذه التسمية للإشارة إلى المنطقة ككل ومن ثم يقسمونها إلى أقسام جغرافية يحمل كل قسم منها اسماً خاصاً به . وإطلاق اسم الربع الخالي على جميع تلك المناطق الصغيرة يعود لاعتقاد آل مرّة بخلو المنطقة من أية مستوطنات دائمة . هذا لا يعني أن البدو لا يقومون على استغلالها بشكل منتظم ولا يستفيدون منها لتلبية احتياجاتهم الأساسية .

وتفصل سهول الحصى الشاسعة والخالية من أية نباتات بين الربع الخالي والمناطق الآهلة الواقعة إلى شمال شرق الجزيرة العربية . وتكون بداية تلك السهول على مسافة ٣٠ ميلاً إلى الجنوب من جبرين ، واحة النخيل الصغيرة التابعة لآل مرّة ، والتي تعتبر آخر مستوطنة زراعية قبل الربع الخالي ، وتمتد لمسافة ٣٥٠ ميلاً عبر المنطقة الوسطى من الربع الخالي من جهة ولمسافة ٥٠ ميلاً من الجهة الأخرى .

أما من ناحية الغرب فهي تمتد من أقصى جنوب الدهناء ، وهي عبارة عن مساحة طويلة وضيقة من الكثبان والجبال الرملية ، وهي بحد ذاتها تشكل الحدود الجغرافية الطبيعية التي تفصل بين الشعوب في شرق ووسط الجزيرة العربية . وتمتد الدهناء على شكل قوس يبدأ من صحراء النافود الكبيرة الواقعة في شمال غرب الجزيرة وينتهي عند الطرف الجنوبي من الربع الخالي . وقلما تصل القبائل العربية الشرقية إلى الطرف الغربي لأن تحركاتها تكون عادة باتجاه الشمال-الجنوب ، أما قبائل الجنوب الغربي فهي تجتازها أحياناً للوصول إلى المنطقة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية .

وكما يقول آل مرّة ، إنهم بعد اجتيازهم لسهول الحصى يصلون إلى الأرض التي تمتلك كل شيء : الرمال النظيفة ، وأفضل النباتات للإبل ، والصيد الوفير حيث يعيش الجميع كإخوة . أما بالنسبة لأفراد قبيلة آل مرّة ، فإنهم لا يستخدمون جميعهم هذه المنطقة بانتظام لكنهم يحتفظون فيها بأفضل ما لديهم

من قطعان النوق المشهورة بحليبها والتي تعتبر الأفضل في الجزيرة العربية .

إن مالكي تلك القطعان ورعاتها والذين يشكلون حوالي ثلث القبيلة ، يعرفون وبكل فخر باسم بدو البدو ، ومجموعة فخذ آل عازب ، المنبثق عن آل مرّة ، التي عاشت وتنقلت معها تدخل ضمن هذه التسمية ، وهي التي سأتناولها بالتفصيل في سياق كتابي .

إن النباتات التي تنمو في الربع الخالي والتي تستغل في عملية الرعي ترتبط مباشرة بالرمال ، وقد تم تقدير كمية الرمال الموجودة في الربع الخالي بحوالي ٤٠٠٠ ميل مكعب (Cressey 1960:83) . وحسب آل مرّة هناك ثلاثة أنواع رئيسية من التشكيلات الرملية وهي : الجزيرة والقوز ، والعرق .

فالجزيرة هي كناية عن رقعة صغيرة من الرمال تنتشر عبر سهول الحصى وتحتوي على بعض الأعشاب الصحراوية ، وارتفاعها عن سطح السهل فلا يزيد عن بوصات قليلة . أما القوز فهو عبارة عن تلال من الرمال يصل علوها من ٣٠ إلى ٤٠ قدماً فوق سطح السهل ، وتحتوي على الشجيرات والأعشاب .

والعرق وهو ثالث تشكيلة فيعتبر الميزة الأكثر إثارة للإعجاب في الربع الخالي ، حيث نجد في القطاعين الأوسط والغربي منه عروقاً يتراوح طولها بين ٢٥ و ١٠٠ ميل ، وعرضها بين عدة مئات من الياردات و٢ ميل . وتكون العروق متوازية دائماً وتمتد بالاتجاه الجنوبي الغربي- الشمالي الشرقي ، ويصل علو أقصى نقطة فيها من ١٠٠ إلى ٢٠٠ قدم ؛ إذ تنمو الشجيرات وأنواع أخرى مختلفة من النباتات في أسفل العرق والمناطق الرملية الأخرى ما وراءه ، والتي تمتد على مسافة عدة أميال .

وشجرة العبال هي النبتة الوحيدة والمهمة التي تنمو في العرق وفي القوز ، ووفقاً لما يقوله آل مرّة فإن تلك الشجرة تحافظ على لونها الأخضر لفترة أربع سنوات بعد مطرة غزيرة واحدة ، كما تحافظ على نداوتها لعدة فصول .

تتضمن ديرة آل مرّة إلى الشمال من الربع الخالي مساحتين طويلتين وضيقتين ومتلامستين من الأرض الرملية تمتدان في الاتجاهين الشمالي

والجنوبي . كما أن الطبيعة الجيولوجية ونوع النباتات في كل منهما تختلف تماماً عن الأخرى ، وهما لا تستخدمان للأغراض نفسها ، إذ تعتبر المساحة الأولى امتداداً لرمال الربع الخالي وتعرف بصحراء الجافورة التي تمتد عبر قاعدة شبه جزيرة قطر لتصل إلى شمال منطقة الإحساء ، وتوجد فيها تشكيلات غير مألوفة من الرمال تتراوح بين الكثبان والمنحدرات .

أما المساحة الثانية فتقع في شرق الجافورة وتفصلها عنها سهول الحصى ، وهي تتضمن نصف جنوب المنطقة المعروفة بالصمّان . وتحتوي تلك المساحة على حجارة كلسية ورملية وتلال وجبال تآكلت مع مرور الزمن . ولا توجد أية نباتات في هذه المساحة باستثناء منطقة الوديان الغنية بالممرات المائية الجوفية التي تجتازها بالاتجاه الشرقي الغربي . وهناك أيضاً الوديان المثيرة للإعجاب والتي يصل عرضها إلى ١٠ أميال ، أما عرض المساحة ككل فلا يتعدى ٥٠ قدماً . وتنمو النباتات في الوديان بشكل مستمر بسبب المياه الجوفية ، وبما أن تلك المناطق هي أيضاً مناطق رملية ، فإن النباتات تنبت بسرعة بعد هطول المطر .

أما المناطق الأخرى التي يستغلها آل مرّة فهي لا تقع مباشرة ضمن ما نسميه ديرة آل مرّة ، بل إنها مجاورة لمنطقتهم الأصلية وهي تتضمن المنطقة التي تمتد من الإحساء في أقصى الشمال ، والعراق والكويت وشبه جزيرة قطر في أقصى الجنوب ، والمناطق التي تحد الربع الخالي في أقصى الجنوب الغربي . ويتم استخدام تلك المناطق أثناء فصلي الشتاء والربيع وفقاً لحالة المراعي في كل منها مما يوضح نمط هطول الأمطار ويفسر وجود البدو .

المياه

تتوقف عملية الترحال للرعي في الجزيرة العربية على نمط هطول الأمطار ، وإمكانية الوصول إلى المياه الجوفية . وقبل حفر الآبار المملوكة من قبل الحكومة كان الوصول إلى المياه الجوفية يقتصر فقط على أقرباء مالكي تلك الأراضي

ولفترات قصيرة فقط . أما بالنسبة للمراعي التي ترويها مياه الأمطار فلقد كان الأمر أسهل إذ كان يستفيد منها من يصل إليها أولاً .

وفيما يتعلق بنمط هطول الأمطار فإن الربع الخالي يقع في منطقة غير آهلة بين منطقتين مناخيتين . فهناك المنطقة الساحلية الجنوبية من الجزيرة العربية ومرتفعات اليمن ، وعسير ، وجنوبي الحجاز التي تتعرض للأمطار الموسمية السنوية الآتيـة من المحـيط الهندي ، التي لا تطال المناطق الوسطى من الربع الخالي إنما تروي بعض الشيء أطرافه الجنوبية والغربية وأقصى الطرف الشرقي . أما المنطقة الثانية فهي تشكل معظم منطقة الشرق الأوسط ، حيث تهب الرياح الشمالية ويكون فصل الصيف فيها جافاً وفصل الشتاء متقلباً .

أما الجزيرة العربية فهي تشهد تساقط بعض الأمطار التي تصاحب الجبهات البـاردة القـادمـة من الشـمـال ، وتغطي تلك الأمطار في بعض الأحيـان مجـمل المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية ، لكنها عادة ما تكون متقطعة . وتأتي تلك الأمطار على دفعات من بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) وتستمر حتى شهر مارس (آذار) . كما تشهد المنطقة بعض الأمطار الرعدية أثناء فصل الربيع وحتى منتصف شهر يونيو (حزيران) . ويصنف البدو أمطار الشتاء وفقاً للفترات الزمنية لتساقطها ، إذ إن ظهور الأعشاب يعتمد على تلك الفترات ، وتشكل كـميات المطر والأماكن التي تهطل فيها محور الأحاديث أثناء فصلي الخريف والشتاء ، ويجب أن لا ننسى أن الأمطار هي التي تحدد نمط الهجرة من مكان إلى آخر .

إن الأمطار التي تهطل في فصل الشتاء تساهم في ري الجزء الشمالي من الربع الخـالي ، لكنهـا لا تصل إلى تلك المنطقة إلا في نهاية الفصل ، مما يجعل كمياتها أقل من تلك التي تهطل في الشمـال . لكن هذا التأخير يعني كون مناطق المراعي الجنوبية ندية عند وصول آل مرّة إليها في نهاية فصل الربيع عند عودتهم من المراعي الشتوية الواقعة في الشمال .

وتشهد بعض السنوات طقساً شمالياً بارداً أثناء فصل الشتاء مع كميات قليلة من الأمطار ، مما يتسبب بموجة جفاف في المملكة العربية السعودية ، مثل

تلك التي دامت فترة ١٠ سنوات ، وذلك حتى عام ١٩٦٧ مما تسبب في موت عدد كبير من قطعان الأغنام والماعز والإبل . وفي مثل تلك السنوات يستفيد آل مرّة من علاقاتهم مع الأقاليم الواقعة إلى جنوب غرب نجران ، فيعبرون الربع الخالي لرعي قطعانهم في المراعي الموجودة هناك والتي ترويها الأمطار الموسمية .

وفي عام ١٩٦٧-١٩٦٨ هطل المطر بشكل منقطع النظير في الشمال فنبت العشب بكثرة ، لذلك أطلق آل مـرّة على تلك السنة اسم سنة العشب .

وشهدت الأعوام التالية وحتى ١٩٧٠ هطول كميات وافرة من المطر . فقد هطلت أمطار غزيرة في شمال الصمّان والجافورة والشمال الأوسط من الربع الخالي ، في أواخر فصل الربيع من عام ١٩٦٩ ، كان من نتيجتها العشب الوفير في المراعي ، مما جعل آل مرّة لا يتوقفون عن شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه . وفي عام ١٩٦٨-١٩٦٠ لم تهطل أية أمطار على المنطقة الوسطى من الربع الخالي ، بينما شهدت منطقة ريداء الواقعة في الغرب كميات قليلة منها . أما في أواخر فصل الشتاء من عام ١٩٧٠ فقد تساقطت بعض الأمطار على منطقة جبرين وضواحيها ، مع حصول زخات قوية على المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من الربع الخالي ، وكذلك المناطق الشرقية الوسطى منه . في السنة التالية لم تشهد منطقة ريداء أية أمطار بل هطلت أمطار غزيرة على الثلث الغربي من الربع الخالي .

وشهدت المراعي الشمالية الوسطى الواقعة بالقرب من بئر فاضل طفرة من الأعشاب بسبب الأمطار التي هطلت في ربيع ١٩٦٩ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يتم استخدام تلك المراعي في المواسم السابقة ، إذ فضل البدو استغلال المراعي ، حيث لا يدوم العشب طويلاً في مثل تلك الواقعة القرب من منطقة جبرين وترك الربع الخالي للعام المقبل . وقد وصف تيسيغر الأحوال المناخية في الربع الخالي كالتالي :

تتكتل الغيوم ، يتساقط المطر ، فيحيا الإنسان ؛ تتناثر الغيوم بلا مطر ، فيموت الإنسان والحيوان ؛ لا يوجد في صحاري جنوب الجزيرة العربية أي إيقاع

محدد للفصول ، ولا أي تدرج في نمو النباتات ؛ هناك فقط المساحات الشاسعة والخالية ، حيث تشكل التغييرات التي تطرأ على درجات الحرارة المؤشر الوحيد على مرور السنة ؛ إنها أرض مريرة ومشرّحة لا تعرف الراحة أو اللطف (Thesiger 1959:1) .

تلك ليست هي الحال مع آل مرّة ، إذ إنهم غير ملزمين باستغلال منطقة واحدة في السنة ، وإذا «تناثرت الغيوم دون مطر» فإنهم ينتقلون بحيواناتهم إلى حيث تهطل الأمطار ، وقد كان تيسيغر أول من أشار إلى أن المطر يتساقط دائماً على مكان ما من الربع الخالي سنوياً . وبما أن هطول الأمطار لبضع ساعات يكفي لإحياء النباتات الرئيسية لمدة أربع سنوات ، فهذا يضمن فرص وجود المراعي باستمرار في هذه المنطقة . ويعتبر هذا الأمر صحيحاً حتى لو لم تكن النباتات المتوفرة في أي من المناطق كثيفة . لكن آل مرّة لا يحبون المجازفة لذا تراهم يتنقلون دائما مع إبلهم حتى خلال أشهر الصيف الحارة ، محافظين بذلك على الربع الخالي والخروج منه كلما سنحت الفرصة للاستفادة من النباتات التي تعمر قليلاً في المناطق المعتدلة .

وتوفر الآبار يشكل العنصر الآخر والهام في عملية استغلال المراعي في الصحراء العربية . ويمتلك آل مرّة حوالي ٢٠ بئراً رئيسية موزعة عبر المنطقة الشرقية الوسطى من الربع الخالي تفصل بينها مسافات تتراوح بين ٥٠ و١٠٠ ميل ، كما يمتلكون عدداً مماثلاً منها في الأقاليم التابعة لهم والواقعة في الشمال . وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من الآبار :

البير وهو عبارة عن بئر عميقة ومكشوفة يتم سحب المياه منها بواسطة الدلاء المصنوعة من الجلد ، ويتم استخدام الجمال في هذه العملية . وهناك القلامة وهي عبارة عن ماسورة يتدفق منها الماء بحرية . وأخيراً هناك العين التي تكون بشكل بئر حديثة وعميقة يتم استخراج المياه منها بواسطة المضخات اليدوية ، أو على شكل بئر مفتوحة حيث يتدفق الماء بشكل طبيعي . لم يقم آل مرّة بحفر أي من الآبار الرئيسية بل يقولون إنها كانت ملكاً لأجدادهم منذ أيام الجاهلية .

القطعان

ترتكز عملية البقاء لدى آل مرّة وبالأخص آل عازب على الإبل، ولا يحتفظ أي من الذين يترددون على الربع الخالي بأي من الخرفان أو الماعز، كما أن البيوت ضمن القبيلة لا تخلط بين الإبل والخرفان والماعز. لذا فهم يختلفون عن باقي الرعاة من البدو مثل العرب القبابيش في السودان.

وتتحرك الإبل بطريقة أسرع ولمدة أطول من الخرفان والماعز، كما أنها تستطيع أن ترعى في الأماكن البعيدة عن أي مصدر للماء أو عن المقر الرئيسي للقبيلة. ويجري تصنيف القطعان التي تتضمن أنواعاً مختلفة من الحيوانات وتكوين مجموعات مختلفة أثناء بعض الفصول. وهذا ما يفرضه القبابيش على كل بيت، إذ يضطر أفراده للانقسام إلى مجموعات أثناء الفصل الجاف، حيث ترعى مجموعات منهم الخرفان والماعز، بينما ترعى المجموعات الأخرى الإبل. أما بالنسبة لآل مرّة فإن التقسيم يتم بين البيوت على سبيل المثال، إذا كان أحد البيوت يمتلك بعض الجمال ضمن قطعان الخراف أو الماعز فإنه يتركها للبيت المتخصص برعي الإبل، مع العلم أن العديد من آل مرّة باتوا اليوم يفضلون تربية الخرفان والماعز على تربية الإبل.

وهناك أنواع متعددة من الإبل، فالقوية والبطيئة منها تخصص لنقل الأثقال، أما السريعة والرشيقة منها فتخصص للركوب، ويتخصص النوع الثالث في توفير الحليب. ويحتفظ آل مرّة بالأنواع الثلاثة من الإبل، أما ما يشكل ثروتهم الأساسية فهي النوق ذات اللون الأسود أو البني الداكن والتي توفر أفضل أنواع الحليب. ويدعي آل عازب أنهم قد حصلوا على جميع الحيوانات الأصيلة والتي تعرف بالشروف بعد إغارتهم على قبائل أخرى خلال القرن الماضي، أما الإبل ذات اللون الفاتح والمخصصة للركوب فقد حصلوا عليها بعد الغارات التي شنوها على القبائل في عمان.

يتراوح عدد الحيوانات في قطعان آل عازب بين ٤٠ و٧٥ ناقة أي بمعدل ٥٠

ناقـة في القطيع الواحـد . وتشكل النوق الهم الأسـاسي لدى الرعـاة الذين ينقسمون إلى ٣ مجموعات . فالمجموعة الأولى ترافق الحيران (صغار الناقة) إذ إنهم بحاجة إلى عناية خاصة في البداية لأنهم لا يستطيعون التنقل بسرعة ، أما الناقة الأم فيجب أن تحصل على الماء مرة واحدة في الأسبوع حتى خلال فصل الشتاء ، إلا إذا توفرت كميات كبيرة وطرية من المرعى . ولا يسمح آل عازب لإبلهم بالتزاوج إلاّ بعد انقضاء فصل الصيف ، مما يؤدي إلى ولادة الحيران في أواخر فصل الخريف أو أوائل فصل الشتاء ، مع العلم أن فترة الحمل لدى الناقة تدوم ١٢ شهراً .

ويكون حليب تلك النوق غنياً وغزيراً ولذيذ الطعم بالنسبة للبدو . وتوكل عملية رعي الناقة وحوارها عادة إلى الابن الأكبر في البيت والبالغ من العمر ١٠ سنوات ، وتتم العملية بالقرب من الخيمة البدوية (بيت شعر) أثناء النهار ، وعلى الراعي أن يتوقع زيارة والده أو جده أو بعض الأطفال الآخرين الذين يأتون لمشاهدة النوق الشهيرة وهي ترعى العشب وبجانبها الحوار الصغير ، أما الغرض الرئيسي من وراء الزيارة فهو السعي وراء الحصول على الحليب الرائع المزبد .

أما المجموعة الثانية من النوق فهي تتضمن تلك التي ما زالت تدر الحليب ، ولديها حوار يبلغ من العمر ما بين ٨ و١٨ شهراً ما زالت ترضعه . حليب تلك النوق يكون أقل حلاوة مع العلم أنه يظل غزيراً لدى تلك الحيوانات الأصيلة . ويمكن لتلك النوق أن تتحرك بسرعة أكبر من الآخرين ، لأنه قد أصبح بمقدور صغارها التحرك بسرعة أيضاً . وتوكل رعاية هذه المجموعة إلى الابن الأكبر البالغ من العمر ١٠ سنوات أو إلى الفتاة غير المتزوجة ، وتتم العملية أثناء النهار بعيداً بعض الشيء عن الخيمة . أما خلال مواسم الشح يمكن لتلك المجموعة أن تنفصل عن القطيع الرئيسي لمدة أسابيع عدة أثناء فصلي الربيع والصيف للبحث عن مراع مناسبة . وتشكل النوق الحوامل المجموعة الثالثة حيث تترك لترعى بمفردها طيلة النهار ، ويتم جمعها من قبل أحد الأشخاص وإعادتها إلى المخيم قبل غروب الشمس .

أما المجموعة الرابعة فتتضمن الإبل المخصصة لنقل الأمتعة وللركوب . ويبلغ عدد الإبل المخصصة للنقل بين ٢٠ و٣٥ وتتضمن جملاً ذكراً يتخذ للاستدلال ، ويكون ملك المرأة الأكبر سناً في البيت . وأثناء الترحال تقوم النساء بركوب تلك الإبل التي تحمل الخيام واللوازم الحياتية والمياه .

كما يقوم الرجال والشبان بركوب الإبل المخصصة لذلك ، ومعظمها من الإناث وذلك كجزء من أنشطة الرعي . أثناء أوقات فراغها تقيد قوائم الإبل وتترك لترعى بمفردها ويتم إرسال امرأة أو فتاة شابة للإتيان بها إذا دعت الحاجة إليها .

والقطيع من الحجم العادي يتطلب عمل اثنين من الرعاة بدوام كامل وراع واحد بدوام جزئي . ويصل مجموع الرعاة الذين ينتمون إلى البيوت التسعة التي تخص آل كربي المتفرع من آل عازب ٢٠ راعياً بدوام كامل (منهم ١١ راعياً من الذكور غير المتزوجين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٢ سنة- ٦ رعاة من الذكور المتزوجين في العشرينات من العمر ، ٣ منهم يترأسون بيوتهم - و٣ رعاة من الإناث غير المتزوجات في سن الثامنة عشرة) ، أما الصبية فهم يعملون بدوام جزئي . أما باقي الذكور الذين ينتمون إلى البيوت التسعة ، والذين لا يعملون بالرعي فهم إما من كبار السن أو من الذين يعملون مقابل أجر بدوام كامل . ويبلغ مجموع أفراد البيوت التسعة التابعة لآل كربي ٤٦ شخصاً .

يقوم الرجال على حلب النوق أثناء الليل بمساعدة الشابات من أفراد البيت أحياناً . أما بعد أن ترعى الإبل طيلة النهار فإنه يتم تجميعها وتساق إلى المخيم قبل غروب الشمس بساعة تقريباً ، ثم تترك لتنام حيث تبدأ عملية الاجترار . بعد ساعة أو ساعتين من الوقت يتم إيقاظ النوق المرضعة الواحدة تلو الأخرى ، ويزال الغطاء الواقي المصنوع من الصوف والمربوط حول ضرعها أثناء النهار لكي تتمكن الحيران من الرضاعة ، ثم يتم حلبها ويوضع الحليب في أوعية كبيرة مطلية بالمينا ويؤخذ إلى البيت . يتم استهلاك معظم الحليب أثناء الليل والكمية المتبقية صباح اليوم التالي . بعد الانتهاء من حلبها تعود الناقة إلى النوم والاجترار مجدداً .

يستيقظ الجميع عند أذان الفجر ، ومع شروق الشمس تستيقظ الإبل وتبقى لمدة بضع ساعات تجول أمام الخيام بمراقبة الراعي الذي يعمل بدوام جزئي ، والذي يقوم على تقسيمها إلى أربع مجموعات ، بعدها تذهب كل مجموعة باتجاه معين . ويغادر الرعاة الذين يعملون بدوام كامل المخيم في منتصف الصباح مشياً على الأقدام ، حاملين بنادقهم الغالية للانضمام إلى القطعان لبقية النهار . ذلك هو نمط الحياة المتبع سواء كان المخيم دائماً أو متنقلاً ضمن المنطقة العامة . فإذا كان المخيم متنقلاً تعمل النساء على تحميل الخيام واللوازم الحياتية بعد منتصف الصباح ، وتغادر إلى مخيم آخر حيث تلحق بهن القطعان في المساء . أما أثناء الهجرة من منطقة إلى أخرى مثل التنقل بين مراعي الخريف ومراعي الشتاء تزداد وتيرة الإيقاع ، وهنا تركن أهمية الرعي على الطريق إلى المرتبة الثانية ، حيث يصبح الهم الأول إيصال القطعان وأهل البيوت إلى وجهتها . وتترك الإبل أثناء فصل الصيف لترعى بمفردها ، وينتظر أصحابها عودتها إلى البئر كل أربعة أيام لتوفير الماء لها وحلبها .

الإيقاع الموسمي للرعي

يتنقل آل مرّة ضمن مساحة واسعة من الأراضي على مدار السنة ، فآل عازب على سبيل المثال يقطعون مسافة ٢٠٠ ميل للانتقال من مخيمهم الصيفي للوصول إلى مراعي الخريف الواقعة في الشمال الغربي ، بينما تقع مراعي الشتاء والربيع على بعد ٦٠٠ ميل من مراعي الخريف . في الحالات الطبيعية يقطع آل عازب مسافة ما يقارب ١٢٠٠ ميل كحد أدنى سنوياً انطلاقاً من قاعدتهم وصولاً إلى مراعي الخريف والشتاء والربيع ، ومن ثم العودة إلى القاعدة حيث توجد آبار المياه لقضاء فصل الصيف ، ولم يحتسب ضمن هذا التقدير المسافات التي يقطعونها للبحث عن مراع جديدة ، أو عن الإبل الضائعة ، أو للصيد ، أو للذهاب إلى المراكز التجارية في المدن ، أو لأداء مهامهم ضمن الحرس الوطني الاحتياطي .

والمسافة التي قطعتها أنا شخصياً خلال السنة الأولى التي أمضيتها مع آل مرّة تقدر بحوالي ٣٠٠٠ ميلا على الأقل هذا ما عدا الرحلات التي قمت بها إلى الرياض والطائف لأمور تتعلق بالبحث الذي أقوم به .

الفصول أو المواسم

تنقسم سنة الرعي لدى آل مرّة إلى أربع وأحياناً خمس فترات ، ويتوقف عدد الفترات وموعد بدايتها على كميات المطر التي هطلت وموعد هطولها. فالأصفري أو الخريف يبدأ في منتصف شهر سبتمبر (أيلول) ويمتد حتى نهاية ديسمبر (كانون الأول) أو بداية يناير (كانون الثاني) ، ويتبعه الشتاء . وفي حال هطول كمية وافرة من الأمطار في منتصف فصل الخريف يتمتع البدو بموسم الربيع الذي يمتد لعدة أسابيع في شهر فبراير (شباط) حتى أوائل شهر مارس (آذار) . أما الصيف فيمتد من نهاية شهر مارس (آذار) حتى أوائل شهر يونيو (حزيران) . وآخر فترة تسمى القيظ وهذا يعني التوقف قرب الآبار الصيفية. ويتمتع كل موسم بمراع خاصة به .

وتتضمن الدورة السنوية هجرتين كبيرتين يختلف توقيتهما وطرقهما من سنة إلى سنة ، وتختلف أهمية الوحدات التي تشكل التنظيم الاجتماعي وفقاً للموسم على الرغم من محافظة كل بيت على حريته . فأفراد السلالة الذين يشاركون آل مرّة في الآبار الصيفية يغادرون إلى مراعي الخريف في منتصف شهر سبتمبر (أيلول) ، أما الهجرة في شهر ديسمبر (كانون الأول) أو يناير (كانون الثاني) فتتطلب انتقالاً سريعاً ومكثفاً نحو الشمال عبر مسافة لا تقل عن ٤٠٠ ميل للوصول إلى مراعي الشتاء . ويحاول أفراد السلالة الواحدة أثناء عملية الرعي في فصل الخريف والهجرة إلى الشمال البقاء في المنطقة العامة نفسها واتباع الطريق نفسه في هجرتهم على الرغم من عدم وجود أي تنسيق مسبق لكنهم قد يضطرون للافتراق في بعض الأحيان .

وتشكل عملية الرعي في فصلي الشتاء والربيع فترة يختلط فيها جميع أفراد السلالة الواحدة والعشائر والقبائل ، ويلتقي بدو الربع الخالي خلال هذه الفترة بسكان القرى والمدن بالأخص في الشمال ، وتتزايد وتيرة الاحتفالات بسبب تلاقي البيوت من مختلف السلالات والعشائر ، وتكثر الزيارات لتناول الطعام أو القهوة أو الشاي ، والاستماع إلى آخر الأخبار عن كل مجموعة والتحدث مطولاً عن أحوال المراعي والقطعان .

كما يشكل فصل الشتاء أيضاً الفترة التي يقوم خلالها شيوخ آل مرّة برحلات خاصة إلى الصحراء ، حيث يتم الاحتفاء به مقابل ضيافتهم الكريمة التي يوفرونها من خيامهم التي تكون عادة قريبة من المستوطنات . كما يقوم أصحاب السمو الأمراء من الأسرة المالكة السعودية ودول الخليج الأخرى بزيارة الصحراء لزيارة البدو والقنص . ويتم خلال هذه الفترة إعادة التأكيد على الانتماءات والتحالفات الموجودة بين الشيوخ ورجال القبائل وبين الأسر المالكة والقبائل . يمكننا هنا أن نلمس بوضوح تعقيدات المجتمع الصحراوي .

وتشهد نهاية فصل الربيع عودة الترحال باتجاه الجنوب ولكن ليس بنسبة الكثافة نفسها التي تشهدها عملية الانتقال إلى مراعي الشتاء ، إذ تتوجه بعض البيوت باتجاه الجنوب بدلاً من العودة إلى القاعدة . ومع بداية شهر يونيو (حزيران) يتوجه جميع البدو مع قطعانهم إلى الآبار الصيفية ، وتحدد كميات المياه الموجودة فيها إمكانية بقائهم جميعاً سوياً . تمضي قبيلة آل جابر بجميع أفرادها فصول الصيف في واحة جبرين وينتشر الأنساب في المخيمات الصيفية.

لكن هذا النظام من الترحال يتغير من سنة إلى أخرى ، وتشكل المخيمات الصيفية الرابطة الاجتماعية الوحيدة والمستقرة نوعاً ما ، لكنها أيضاً تختلف من سنة إلى أخرى . فالتحالفات السياسية التي تنتج عن الخلافات تشكل بعداً هاماً في حياة آل مرّة الاجتماعية .

ومن أجل توضيح الأوجه البيئية للتفاعل الحاصل بين الهيكل الاجتماعي

لآل مرّة وعملية استغلال الصحراء بغرض الرعي ، سوف نتطرق لكل فصل على حده .

الخريف

بعد أيام طويلة من الحر الشديد يأتي شهر سبتمبر (أيلول) حاملاً معه تغييرات ملحوظة في درجات الحرارة ، فيقصر النهار في منتصف الشهر وتتدنى درجات الحرارة من ١٢٠ درجة فهرنهايت لتصل إلى ٥٩ درجة ، فلا تعود الإبل بحاجة للشرب كل أربعة أيام . ونتيجة لذلك يبدأ كل بيت ، وبمحض إرادته ، بمغادرة المخيم الصيفي والبحث عن مرعى آخر بالقرب من الآبار . يتوقف موعد الرحيل الفعلي على تغير نمط الشرب لدى الإبل ، وعلى الرغم من عدم وجود أي تنسيق رسمي ، فإن جميع الذين ينتمون إلى السلالة نفسها وأمضوا الوقت في المخيم نفسه يتوجهون عادة إلى المنطقة نفسها .

فمعظم آل عازب وآخرون مثل آل عوير من قبيلة آل غفران يتوجهون إلى مراعي الخريف في عمق الربع الخالي ، حيث يكون الجو معتدلاً خلال هذا الفصل ؛ لذا فهم يتركون خيمهم والملابس الثقيلة في منطقة الآبار الصيفية ويأخذون معهم سياجاً للخيام يسمونه الحمى لكي يحميهم من شمس الظهيرة ، والرياح ويوفر لهم بعض الخصوصية . وينام الأزواج والفتيات العازبات بالقرب من السياج الذي يوضع عادة بشكل نصف دائرة ، بينما ينام الشباب العزاب والذكور من الزوار ، مثلي أنا ، في العراء تحت النجوم .

وتنخفض الكثافة السكانية إلى أدنى مستوى لها خلال هذه الفترة ، ففي فصل الخريف من عام ١٩٦٨ كان هناك ٤٠ بيتاً فقط يعملون في مساحة قدرها ٤٠٠٠ ميل مربع ، وعادة ما يعمل كل بيت بمفرده أثناء تلك الفترة . وبسبب وجود بعض الكتل من الأعشاب الجافة والمتناثرة والتي توفر نوعاً من المرعى يتفرق الرعاة في جميع الأنحاء للاستفادة من الأراضي الموجودة فيها بقدر

الإمكان . ويقطع كل بيت أثناء الخريف مسافات قصيرة تقدر بسبعة أميال كل يومين .

وتتحد بعض البيوت أثناء فصل الخريف وخلال ما تبقى من سنة الرعي ، وتنتقل سوياً خلال فترات تتراوح بين أيام معدودة وعدة شهور ، وهذا ما يسميه آل مرّة مشاركة الدار مع وجود علاقات مميزة بينهم ، على الرغم من بقاء كل بيت مستقل . فأفراد الدار يستجيرون ببعضهم في عملية الدفاع ضد أية هجمات حتى تلك التي يشنها الأقرباء . خلال فصل الخريف من عام ١٩٦٨ انضم أكثر من نصف أفراد آل عازب إلى مجموعتين من الدور للرعي في مساحة تقدر بـ ٢٠٠ ميل تقع فى الشمال الغربي من منزلهم الصيفي في بئر فاضل . أما أقرب نقطة للمياه فكانت توجد في ريداء على بعد ٧٥ ميلاً . وتمركزت معظم الدور في الوديان الواقعة بين كثبان الرمل ، حيث تتوافر شجيرات العبال والأعشاب الطويلة ، بينما عملت باقي البيوت بمفردها في سهول ريداء وأبو بحر ، حيث تنمو بعض الكتل من الأعشاب الجافة والتي من خلالها يمكن رؤية تلال الرمال التي تبعد حوالي ١٥ ميلاً .

ترعى الإبل قرب المخيمات لفترة سبعة أيام لا شرب الماء ، وفي اليوم الثامن يقوم اثنان من المراهقين ، أو شاب وفتاة بالسير لمدة يومين مع القطعان لتوفير المياه لها من الآبار الحكومية الحديثة التي تم إنشاؤها في منطقة ريداء والحصول على المياه للاستخدام المنزلي ، والموضوعة في إطارات مطاطية كبيرة قبل البدء برحلة العودة والتي تستغرق أيضاً مدة يومين . وقبل أن تقوم شركة أرامكو (الشركة العربية الأمريكية للنفط) بحفر تلك البئر كان على آل عازب العودة إلى بئر فاضل الخاصة بهم ، وكانت الرحلة تستغرق ستة أيام . وأثناء وجودهم في منطقة ريداء قليلاً ما يشرب البدو الماء حيث يعتمدون على حليب النوق .

وذهاب آل عازب إلى ريداء يتوقف على كميات الأمطار التي هطلت في العام السابق ، فبعد كمية المطر القليلة التي هطلت في نهاية فصل الربيع من عام ١٩٦٨ تمكن آل عازب من استغلال هذه المنطقة للرعي في الخريف التالي ،

بينما لم تهطل أية أمطار هناك خلال فصل الشتاء من عام ١٩٦٩ ، فلم يتوجهوا إلى تلك المنطقة خلال فصل الخريف من السنة ذاتها ، على الرغم من وجود بعض الشجيرات والأعشاب ، بل توجهوا إلى منطقة قريبة من بئر فاضل التي ارتوت بنسبة جيدة من الأمطار خلال فصل الربيع .

وكان فصل الخريف في كل من السنوات ١٩٦٨ و١٩٦٩ متميزاً بالنسبة لآل عازب ؛ إذ كانت معنوياتهم عالية بسبب توفر المرعى ، وصحة الإبل الجيدة ، والزيادة في عدد الغزلان في المنطقة الشمالية من الربع الخالي . فالصحراء فيما مضى كانت تعج بالحيوانات البرية مثل الغزلان والأبقار الوحشية وطيور النعام ، أما الآن فلم يتبق منها سوى قطعان صغيرة من الغزلان في المناطق المعزولة من الربع الخالي ؛ لذا فإن زيادة عددها يدخل الفرحة إلى قلب آل مرّة .

وصيد الغزلان بات يعتبر جرماً في المملكة العربية السعودية يعاقب عليه القانون بالسجن لمدة سنة واحدة على الأقل . مع أن هذا لم يمنع خلال الخمسينات وأوائل الستينات ، حيث تم القضاء على قطعان هائلة من الحيوانات البرية من قبل صيادي المدن الذين كانوا يطلقون النار على الحيوانات بواسطة الأسلحة الرشاشة الموضوعة على الشاحنات الصغيرة ، والتي كانت تجوب الصحراء . وما زال بعض السعوديين يمارسون هذا النشاط في هذه الأيام مع قيام بعض الأثرياء من الدول الخليجية بتنظيم رحلات غير مشروعة للصيد في الربع الخالي خلال فصلي الخريف والشتاء . وكان بعض البدو يرافقون صيادي المدن أثناء القنص تحت غطاء الرياضة ، وكانوا يتركون وراءهم المئات من جثث الحيوانات . وكان آل عازب يكرهون تلك الممارسات ، وكانوا مثلهم مثل آل مرّة من الصيادين المحافظين الذين كانوا يتبعون أثر الحيوانات لأيام عديدة قبل أن يقتلوا واحداً منها ، بغرض الحصول على القليل من اللحم . أما اليوم فهم يستنكرون القيود المفروضة على عملية الصيد بسبب ما قام به الآخرون من عمليات قتل للحيوانات للمتعة فقط .

الهجرة إلى مراعي الشتاء

تشكل عملية الرعي خلال فصل الخريف في عمق الربع الخالي أسعد الأوقات وأمتعها بالنسبة لآل عازب ، فهم دائماً يقولون إنه أفضل فصل بين فصول السنة . فهناك يجدون متعة العيش ، بعيداً عن تأثيرات المدن والواحات والحكومة المركزية ؛ وحيث يوجد المرعى الوفير . ومع بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) يبدأ الرعاة بتفحص السماء بدقة على أمل رؤية بعض البرق في البعيد ، مما يعني أن المطر قادم إن شاء اللّه .

أما فترة الرعي خلال فصل الخريف فتتوقف على نوعية الأمطار التي تهطل في الشمال والأوقات التي تهطل فيها . ففي عام ١٩٦٨ بدأ هطول الأمطار في أوائل شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ، فبدأ آل عازب هجرتهم نحو الشمال خلال الأسبوع الأول من شهر ديسمبر (كانون الأول) . أما في العام التالي ، فبدأت كميات ضئيلة من المطر بالهطول في منتصف شهر ديسمبر (كانون الأول) فقط ، ولم يبدأ آل عازب رحلتهم إلاّ في بداية شهر يناير (كانون الثاني) .

ويهتم الرعاة كثيراً في نهاية فصل الخريف بأخبار المطر التي يزودهم بها مرة كل شهر أفراد الحرس الوطني الاحتياطي الذين يقصدون أبقيق ، مقر أمير آل مرّة . وأثناء تواجدهم في أبقيق فهم يحصلون على معلومات دقيقة من أفراد آل مرّة العائدين من الشمال أو ممن هم على اتصال برجال القبائل في الشمال . ويتم التدقيق مع كل شخص ينقل أخبارا عن حالة المطر للتأكد من مصدرها ، وفي حال الشك بصحة الأخبار(لأن هناك من يبالغ عند التحدث عن المطر) يطلب من الأمير إعطاء رأيه بالموضوع . فالأمير على اطلاع واسع بجميع التقارير المرفوعة من قبل عدد كبير من رجال القبائل ، ويشكل توفير المعلومات الدقيقة للرعاة حول وضع الأمطار جزءاً من عمله ، مع العلم أن الرعاة هم وحدهم المسئولون عن اتخاذ قرار الترحال .

قد تتوفر معلومات متضاربة حول معدل الأمطار التي هطلت كما حصل في

فصل الخريف من عام ١٩٦٩ ، ومن أجل التحقق من المعلومات أرسل الأمير الكربي (مضيفي ودليلي) وشقيق والده في مهمة استكشافية على متن شاحنتي الصغيرة عبر المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي . فوجدوا أن أمطاراً غزيرة ومتفرقة قد هطلت على المنطقة الواقعة على الحدود العراقية فقط . وقد رفعوا تقريراً بذلك إلى الأمير أثناء زيارة ليلية قاموا بها إلى خيمته في الصحراء خارج أبقيق . بعدها توقفوا لأخذي من القطاع البدوي القديم من الإحساء حوالي منتصف الليل ، وقطعنا مسافة ٤٠٠ ميل باتجاه الجنوب داخل الربع الخالي لإيصال الأخبار إلى آل عازب ، وكل من التقينا بهم على الطريق . وبعد عودتنا إلى القطعان بيوم واحد كانت عملية الترحال نحو الجنوب على أشدها .

بعد انقضاء الأول من ديسمبر (كانون الأول) وكلما وردت معلومات أكيدة حول هطول الأمطار في الشمال ، يبدأ كل بيت من بيوت آل عازب بتغيير نمط تحركاته . فبدلاً من القيام بتحركات قصيرة كل بضعة أيام وضمن منطقة محددة ، تساق الإبل مجدداً إلى بئر فاضل ، وتستغرق تلك العملية قبل شروق الشمس بساعتين تقريباً وحتى غروبها ، وتترك الإبل لترعى لبضع ساعات قرب المخيم بعد غروب الشمس .

ووفقاً لبرودة الطقس يتم نصب الخيام أو الحمى بحوالي ساعة قبل غروب الشمس ، وتتابع القطعان الرعي لمدة ساعتين على الأقل ، وتعاد قبل حلول الظلام حيث يتم حلبها . وترتفع نيران السمر في قسم الخيمة المخصص للرجال ، أو أمام الحمى حيث يسمع صوت سحق حبات البن في الأجران النحاسية . يتجمع الرجال والشبان حول النيران ويتحدثون عما شاهدوه أثناء النهار ، فبعضهم من التقى أفراداً من العشائر أو السلالات الأخرى تبادل معهم التحيات والأخبار . وهذا يعيد كبار السن من الرجال بالذاكرة إلى الأيام الخوالي ، وإلى أعمال الغزو والحروب التي شاركوا فيها .

بعد الغروب بثلاث ساعات تقريباً يتناول الرجال وجبة من الأرز وبعدها يشربون الحليب - ويسهر الشباب حتى منتصف الليل يتحدثون عن الإبل ،

وحالة المراعي ، أو يقولون الشعر ، أو يستمعون إلى برنامج ساعة البدو الذي تبثه إذاعة الكويت . ولا يلبث أن يرفع أذان الفجر معلناً بداية يوم جديد واستئناف الرحلة نحو الشمال .

تستغرق عملية الهجرة إلى الشمال ما بين ١٠ و١٥ يومياً بعد مغادرة بئر فاضل ، ويتم قطع مسافة تتراوح بين ٣٠ و٤٠ ميل يومياً ، كما تتبع جميع وحدات آل عازب الطريق نفسها تقريباً وهي تقيم بعض المباريات المسلية فيما بينها خلال سباقها للوصول إلى الشمال . وعادة ما يتحرك آل عازب نحو الشمال عبر منطقة الصمان الواقعة إلى شرق الدهناء ، ويتم سقي الإبل من الآبار المتوفرة إلى أقصى غرب منطقة حرض . لكنهم في عام ١٩٧٠ وتفادياً لإخافة الإبل اضطروا لاستئجار صهاريج المياه لتوفير الماء للقطعان ، وذلك بسبب الأشغال الجارية على مشروع الملك فيصل للتوطين الهادف إلى جعل آل مرّة يستقرون في مكان واحد . ويتم سقي الإبل مرة ثانية من الآبار التي أوجدتها الحكومة في منطقة الخريس ، وذلك قبل أيام قليلة من وصولهم إلى المناطق المعتادة حيث توجد المراعي الشتوية .

أما المناطق التي يستغلونها عادة فهي تقع في شمال واحة الإحساء مباشرة ، وتمتد شمالاً حتى الكويت وجنوب العراق ، بما في ذلك منطقة الدهناء إلى الغرب . وفي السنوات غير العادية ، حين لا تتوفر أية نباتات في المنطقة ، يقوم بعض أفراد آل مرّة ، وبالأخص آل عازب ، بالهجرة عبر الدهناء إلى المنطقة الوسطى من نجد وصولاً حتى دواديمي الواقعة في الغرب ، أما خلال فترات الجفاف المطولة في شمال الجزيرة العربية فيمضي آل عازب وبعض أفراد آل مرّة المتمركزين في الربع الخالي فصل الشتاء في جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من جران .

لا تتضمن ديرة آل مرّة أياً من المراعي الشتوية ، فجميعها تقع ضمن الأراضي التقليدية ، كما لا يمتلك آل مرّة أية آبار إلى الشمال من الإحساء . فإن الآبار والواحات الموجودة هناك هي ملك للقبائل المتمركزة فيها ، أما الآبار التي

أوجدتها الحكومة في تلك المنطقة فهي ملك للجميع، وتستفيد منها جميع القبائل.

في الماضي كان آل مرّة والقبائل الأخرى التي تقصد المكان من أجل المراعي الشتوية يعتمدون على علاقاتهم الطيبة مع القبائل المقيمة، لكي تسمح لهم باستخدام جزء من مخزون المياه لديها، علماً بأن كمية المياه التي يحتاجون إليها في فصل الشتاء تكون ضئيلة.

وتحتوي الأعشاب الشتوية على كمية كبيرة من النداوة يمكن للإبل امتصاصها، وبسبب انخفاض درجات الحرارة فلا تحتاج للشرب. وتتجمع مياه الأمطار في برك صغيرة يقصدها الرعاة؛ إذ يقدرون مياهها النقية ويفضلونها على مياه الآبار؛ لأنها تشكل بالنسبة إليهم هدية مباشرة من اللّه سبحانه وتعالى. وتقل حاجة آل مرّة للآبار في سنوات الرخاء التي تشهد الكثير من الأعشاب الشتوية الخضراء والأمطار الغزيرة.

لا يحتاج آل مرّة لطلب الإذن من أي كان لرعي إبلهم في الشمال، فالحق يعود لمن يصل أولاً، وما من قبيلة من قبائل الشمال ادعت حتى اليوم أنها تملك الحق في تلك المراعي. فقبل إنشاء المملكة العربية السعودية العصرية، وخلال العقود الأولى من هذا القرن، كانت القبائل التي تمتلك الإبل في تعرض دائم للغزوات في هذه المنطقة، حتى آل مرّة فلم يسلموا منها أثناء تواجدهم خارج إقليمهم القبلي، لكنهم يدعون أن الحظ كان دائماً إلى جانبهم، إذ استطاعوا أن يجمعوا العديد من الإبل من خلال شن الغزوات على القبائل الرئيسية في الشمال في القرن التاسع عشر للميلاد.

وتربط بين آل مرّة وآل عجمان، وهي من أهم قبائل الشمال الشرقي للجزيرة العربية علاقات خاصة، إذ إنهم يعتبرون أنفسهم «أولاد عم» لأنهم ينحدرون مباشرة من يام. وكان آل مرّة وآل عجمان يشنان الغزوات على بعضهما، لكنهما كانا يتحدان لشن الغزوات على قبائل أخرى، لذا يمكن لآل مرّة الوصول إلى آبار آل عجمان في حال خلافهم مع باقي القبائل، حيث تسيطران إلى

جانب آل عجمان على الشمال الشرقي ، كما أن لآل مره وآل عجمان صلات قرابة مع القبائل المتواجدة في منطقة نجران الواقعة في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية ، بما يضمن لهما الوصول إلى المراعي والآبار في تلك المنطقة . مع العلم أنه خلال العقود الماضية لم تحدث أية خلافات هامة بين آل مرّة وباقي القبائل بسبب الآبار أو مناطق الرعي الشتوية . وقد وضعت الآبار التي أوجدتها الحكومة حداً لمشكلة «حق المياه» ، إذ إن الحصول على الماء لم يعد يعتمد فقط على إمكانية الوصول إلى الآبار المملوكة من قبل القبائل الأخرى .

يتمتع البدو بما يسمونه فترة الربيع عند وجود مراع شتوية ندية ، ووفقاً لحالة المراعي يمكن لهذه الفترة أن تمتد من ٦ إلى ١٠ أسابيع ، ابتداءً من شهر يناير (كانون الثاني) . أما خلال السنوات التي لا تشهد سوى كمية قليلة من الأمطار ولا تتوافر فيها النباتات ، يمضي البدو فصل الشتاء في استغلال الأعشاب والشجيرات التي نبتت في العام السابق ، ولا يتمتعون بأي ربيع ، مع العلم أنه في حال وجود الربيع يتمركز البدو في منطقة واحدة لرعي إبلهم بدل التنقل بصورة واسعة للبحث عن مراع مناسبة .

عندما يصل البدو الرحّل إلى مناطق المراعي الشتوية بعد رحلة دامت لمدة أسبوعين ، فإنهم يتمركزون فيها ويتبعون النمط نفسه الذي يتبعونه أثناء فصل الخريف ، فتجتمع البيوت لتشكل الدور المكونة من ٢ إلى ٤ وحدات تنتقل سوياً لمسافات قصيرة تتراوح بين ٦ إلى ١٠ أميال كل ثلاثة أو أربعة أيام ، مع العلم أن البيوت التي تتحد تكون عادة من الفخذ نفسها لكنها لا تقتصر عليها فقط ، كما تدخل الروابط الزوجية في عملية اجتماع عدة بيوت في دار واحدة ، لكن في بعض الحالات لا نجد أية صلات دم أو زواج تربط ما بين البيوت . ويتم تشكيل الدور أثناء الهجرة إلى الشمال أو في المراعي الشتوية ، وتبقى كذلك حتى نهاية فصل الشتاء ، على الرغم من أن حالة المراعي في بعض الأحيان قد تستدعي تفرقها عند الحاجة للانتشار فوق مساحة أوسع من الأراضي .

باستثناء المخيمات الصيفية تبلغ الكثافة السكانية أعلى نسبة لها خلال

أشهر الشتاء إذ إنه مع وجود المرعى الجيد تتوافد معظم القبائل الرئيسية السعودية مثل آل مرّة ، وآل عجمان ، والمطير ، والسباعي ، والدواسر إلى مناطق الرعي نفسها الواقعة إلى شمال شرق الجزيرة العربية ، كما تتوافد إليها قبائل الرعاة من المستوى الاجتماعي الأدنى وقبائل الغجر ، أضف إلى ذلك كله البائعين والفلاحين من سكان المدن والواحات في تلك المنطقة .

ينشغل الرعاة كثيراً خلال فصل الشتاء ، ويقوم آل مرّة بمراقبة عملية التزاوج لدى الإبل ، بحيث تولد الحيران في نهاية فصل الخريف القادم أو أوائل فصل الشتاء . ولا يخفى على أحد أن رعي القسم من القطيع الذي يتضمن النوق والحيران يتطلب وقتاً وجهداً كبيرين أكثر بكثير مما تتطلبه عملية رعي الأقسام الأخرى ، لكن البدو يحبذون هذا العمل الشاق لأنهم يقدرون الحليب الذي توفره تلك النوق .

وعادة ما تضل الإبل طريقها خلال فصل الشتاء ، مما يتطلب من الشباب وقتاً طويلاً في البحث عنها وإعادتها ، و ما يهم الرعاة في هذه المرحلة فهو تسمين الحيوانات بقدر المستطاع خلال فصل الشتاء ، والبحث عن أفضل الأعشاب لها ، لذا تتنقل القطعان باستمرار وهي نادراً ما ترعى في المكان نفسه لأكثر من يوم واحد إلاّ خلال فترة الربيع حيث تشهد بعض الاستقرار .

تتخذ القرارات الخاصة بنقل المخيم البدوية بموافقة جميع أفراد الدار : صباح كل يوم بعد صلاة الفجر وقبل شروق الشمس توقد النار أمام القسم المخصص للرجال في كل بيت لتحضير القهوة ، فيشرب الرجال بعضها ويأكلون حبتين أو ثلاثاً من التمر ثم يعطون النساء ما تبقى من القهوة ، بعدها ينتقلون إلى بيت الرجل الأكبر سناً في الدار ويشربون القهوة مجدداً ، ويتدفئون حول النار ويناقشون إمكانية الرحيل نظراً لحالة المرعى وعدد المجموعات المختلفة المتواجدة في المنطقة نفسها ، ويشارك الأبناء الراشدون والمتزوجون في المناقشة بينما يكتفي الشباب بالاستماع أو إضافة المعلومات حول نوعية الأعشاب التي رأوها في مناطق أخرى .

فإذا اتفقوا على البقاء ، أضافوا بعض الوقود إلى النار لصنع المزيد من القهوة أو الحليب بالزنجبيل ، أما إذا كان الاتفاق على الرحيل تبدأ النساء اللواتي كن يستمعن إلى الحديث من خلف الرواق بتفكيك بيت الشعر وتحميل الأغراض على الإبل . بعد أربع أو خمس ساعات من شروق الشمس تغادر النساء على ظهور الإبل في رحلة تستغرق أربع ساعات نحو المقر الجديد ، حيث يترجلن ويبدأن بنصب الخيام . أما القطعان فهي ترعى باتجاه المخيم الجديد حيث تساق إليه في المساء ويرافقها اثنان أو ثلاثة من الرعاة .

ليس الرعاة وحدهم من ينشغلون خلال فصل الشتاء إنما أهل البيت أيضاً ، فالنساء تنشغل بتفكيك ونصب الخيام وتحميل المعدات وإنزالها ، إذ إن وتيرة التنقل في فصل الشتاء تتزايد أكثر منه في فصل الخريف ، وتتعدد مناسبات الاحتفالات التي تستمر لعدة أيام ، سواء كان بسبب التقاء النسايب بعد فراق قصري من أجل الرعي خلال فصل الخريف ، أو التقاء الأقرباء بالمصاهرة ، أو زيارة بعض الأفراد من العشائر الأخرى التابعة لآل مرّة ، ويدعى إلى تلك الاحتفالات الزوار من القبائل الأخرى . ونتيجة لذلك تمضي النساء أوقاتاً طويلة في إعداد الطعام .

تساهم الزيادة في نسبة الكثافة السكانية خلال فصل الشتاء ، ووجود عدد كبير من الأفراد من مختلف السلالات والعشائر والقبائل ، وتوفر الأغنام في الأسواق في تبرير الاحتفالات ، ويقوم كل بيت من قبيلة آل مرّة بذبح ثلاثة أو أربعة حيران مولودة حديثاً كل سنة خلال فصل الشتاء ، إذ إنهم وكما ذكرنا سابقاً لا يذبحون أية ناقة على الإطلاق إلاّ إذا كانت مريضة وغير قادرة على الاستمرار في البقاء . كما يشتري كل بيت عدداً مماثلاً من الخرفان من قبائل الرعاة التي تسوق قطعانها إلى المنطقة ، ويقل ثمن الخرفان التي يشتريها آل مرّة من الرعاة من تلك المعروضة في أسواق المدينة ، بسبب توافر كميات كبيرة منها للبيع .

ويقوم الشبان بذبح الخرفان وسلخ جلدها بينما تهتم النساء بطهيها ،

فيضعها في قدر كبيرة على النار ويضفن إليها بعض الماء والبصل والبهارات ، ثم تعد الأرز . عندما ينضج اللحم يقوم أحد الرجال بفرش الأرز في صينية دائرية كبيرة يبلغ قطرها أربع أقدام ، ثم يضع اللحم فوق الأرز وتؤخذ الصينية إلى القسم المخصص للرجال في البيت ، حيث يتجمع الذكور للأكل مستخدمين فقط يدهم اليمنى إذ إن اليد اليسرى تعتبر نجسة .

ووفقاً للأصول العربية فإن المضيف لا يتوقف عن الأكل إلاّ عندما يشبع جميع ضيوفه ، وعادة ما يحتفظ ببعض اللحم وبالأخص قطعة الكتف للمضيف والنساء . عند الانتهاء من الأكل يحين موعد الشاي والقهوة والتمر والبخور الذي يسبق ويلي كل وجبة .

الربيع

يعتبر الربيع في المناطق الشمالية الفصل الذي تبدأ فيه الحياة بالتحرك وتزهر النباتات ، أما في الصحاري العربية ، وعلى الرغم من تواجدها في شمال المنطقة الاستوائية ، فهو لا يدعو إلى حياة جديدة إنما إلى همود في الحركة . فالنباتات التي كانت خضراء أثناء فصل الشتاء تجف وتصبح بنية اللون ، وترتفع درجة الحرارة يومياً ، ومع نهاية شهر مارس (آذار) وشهر أبريل (نيسان) تشهد المنطقة عواصف رملية حارة تدوم بين يوم واحد وخمسة أيام ، حيث يتعرض خلالها الإنسان والحيوان إلى الدوامات الرملية الحارقة . تتوقف الزيارات والاحتفالات وتبدأ الدور بالتفكك إذ يستعد كل بيت للتوجه إلى البئر المخصصة لسلالته .

ويطلق آل مرّة على تلك الفترة الصيف مع العلم أنها بالنسبة لأهل المدن تشير إلى فصل الربيع . وتبدأ خلال هذه الفترة الرحلات الطويلة للعودة إلى المخيمات الصيفية ، لكن ليس بالسرعة نفسها التي تشهدها الرحلة من مراعي الخريف إلى مراعي الشتاء . ويتم تقسيم القطعان خلال هذه الفترة حيث يسرح

كل راع ، وهو شاب أعزب ، بمفرده مع ثلث القطيع بعيداً عن الآخرين .

قبل التمركز في المخيمات الصيفية في نهاية شهر يونيو (حزيران) على أبعد تقدير ، فإن آل عازب يتوقفون قرب آبار صغيرة يدعون ملكيتها تقع إلى شمال منطقة بئر فاضل في الربع الخالي . فهم يخيمون في مجموعات تضم خمسة أو ستة بيوت قرب الآبار الضحلة أثناء شهر مايو (آيار) ، لاستغلال النباتات الموجودة في تلال الرمال الواقعة في شمال السهول ، التي تفصل الربع الخالي عن باقي شمال المنطقة العربية . وليست تلك الآبار حكراً على آل عازب فقط ، إنما تستفيد منها السلالات والعشائر التي تمر في هذه المنطقة وهي في طريقها إلى آبارها الخاصة .

هكذا ويستمر الرعاة في مرافقة القطعان خلال الأيام الأخيرة من فصل الربيع ، ويسوقونها إلى المخيم كل ليلة حيث يتم حلبها وتركها لتنام ، وفي نهاية شهر يونيو (حزيران) ، بعد أن تكون درجات الحرارة قد وصلت إلى ١١٠ درجة فهرنهايت وما فوق ، يتم تفكيك الخيام ووضعها على ظهور الجمال للمرة الأخيرة ، ويبدأ البدو بعبور السهول الشاسعة والقاحلة . تستغرق الرحلة لمدة يومين بعدها يستقرون لفترة ثلاثة أشهر قرب الآبار الصيفية .

الصيف

لم تتح لي خلال فصلي الصيف(١٩٦٨-١٩٦٩) اللذين أمضيتهما في المملكة العربية السعودية الفرصة لرؤية جميع أفراد آل عازب في مخيم واحد ، مع العلم أنهم يدعون أنهم دائماً يمضون فصل الصيف في منطقة بئر فاضل . فبعد أن تنقلت لمدة ٩ أشهر مع مجموعات لا تضم أكثر من أربعة بيوت ، وأحياناً بيت أو بيتين ، كنت أتوق لرؤية جميع الأفراد مجتمعين ، ليس فقط للتعرف على البيوت بشكل أفضل إنما للتعرف على نمط حياتهم عندما يكونون مجتمعين في منطقة واحدة ولمدة ٣ أشهر .

ولكن لسوء الحظ ، لم تتح لي تلك الفرصة بسبب الأشغال التي قررت وزارة الزراعة والماء في المملكة القيام بها في عام ١٩٦٨ ، من أجل تحديث بئر فاضل وتنظيفها وبناء حائطا من الإسمنت حول ثلث القسم الأعلى منه ، وكانت تلك الأشغال ما تزال جارية خلال صيف ١٩٦٩ ، مما حال دون تجمع آل عازب في منطقة واحدة مرة أخرى ، بل إنهم اضطروا للانقسام إلى ٣ مجموعات استقرت كل منها قرب الآبار الصغيرة التي تبعد مسافة تتراوح بين ١٠ و٤٠ ميلاً عن بئر فاضل . ولم يتمكن آل عازب من العودة جميعهم إلى بئر فاضل إلا في صيف ١٩٧١ حسب ما أخبرني به بعض الأصدقاء من آل مرّة حين التقيت بهم في عام ١٩٧٢ .

إن الوحدات التي تشكل قاعدة آل مرّة الأساسية في المنازل الصيفية تضم مجموع أفراد الفخذ الواحد . فجميع أفراد قبيلة آل جابر ينزلون سوياً في واحة جبرين ، حيث يحدد مكان خاص لكل فخذ منها . والشيء الوحيد الذي يتغير بالنسبة لآل مرّة خلال فصل الصيف هو نمط الرعي ووجودهم في المنازل الصيفية ذات الكثافة السكانية العالية .

وعلى الرغم من التغيير الذي يطرأ على تشكيلات المنازل الصيفية ، فإن أفراد الفخذ الواحد يبقون مجتمعين لسبب واحد ، وهو حسب آل مرّة متعلق بالحيوانات التي تقودها غريزتها إلى المكان نفسه كل سنة ، ويقال إن الإبل التي تضيع أو تترك أثناء الرعي في فصل الشتاء تعود دائماً وبمفردها إلى البئر الخاصة بالفخذ التي تملكها .

لا تلعب حالة المراعي أي دور هام في عملية اختيار موقع المخيم الصيفي ، فعادة ما يبقى أفراد آل عازب بالقرب من الآبار الصغيرة الواقعة في ضواحي بئر فاضل ، إلاّ أنها قد تؤثر على عملية القرار بالتجمع في منطقة واحدة أو الانقسام إلى وحدات صغيرة . وفي حين يعطى الرعي الأولوية خلال فصول الخريف والشتاء والربيع إلاّ أن أهمية الماء تطغى عليه خلال فصل الصيف .

كما سبق وذكرنا فإنه يتم تسمين الإبل بقدر المستطاع وفقاً لحالة المراعي

وذلك قبل حلول فصل الصيف ، حيث يكون من المفترض فيها استخدام الطاقة التي تخزنها في أنسجة سنامها الدهنية .

بعد التمركز في المخيم الصيفي تترك الإبل لترعى بمفردها ، وهناك من يهتم بحلبها وتوفير المياه لها من البئر ، أما باقي الأوقات فهي ترعى حيث تجد العشب والشجيرات . ويبقى القطيع متماسكاً على الرغم من غياب الرعاة ، وهو يعود من تلقاء نفسه إلى البئر كل أربعة أيام للحصول على الماء ، ويهتم كل بيت بسقي الإبل التابعة له من دون أي تعاون من أحد ، باستثناء بعض المساعدة لسحب المياه من البئر .

ويختلف عمق الآبار التي استخدمها آل عازب في السنوات ١٩٦٨ - ١٩٦٩ و١٩٧٠ بين ٢٠ و٦٠ قدماً ، على الرغم من أن عمق بئر فاضل يصل إلى ١٥٠ قدماً . يتم سحب المياه بواسطة الدلاء المصنوعة من الجلد والتي يتم ربطها إلى سرج خشبي يوضع على ظهر الجمل ، أما الحبل المستخدم فهو يمر عبر بكرة موضوعة بين قضيبين على جانبي البئر . تقوم إحدى الفتيات بركوب هذا الجمل ودفعه إلى الأمام وإلى الخلف ، مما يسمح بإنزال الدلو داخل البئر ومن ثم سحبه إلى الخارج .

أما المكان الذي تشرب منه الجمال فهو عبارة عن حوض ، بيضوي الشكل مصنوع من الجلد ، ويبلغ قطره ٤ أقدام وعمقه قدمان يقوم الشبان على سكب الماء الذي يتم سحبه بداخله .

تحتاج عملية سقي الإبل إلى ساعتين من الوقت تقريباً ، فبعد أن تنتهي من الشرب يتم حلب النوق ، ثم تعطى بعض الماء وتترك لترعى في المخيم مجدداً . وتكون كميات الحليب خلال فصل الصيف وفيرة لكنها ليست دسمة مثل الحليب المتوفر في فصلي الخريف والربيع أو عندما تضع النوق حيرانها ، ويتم تقاسم الحليب بين البيوت إذ لا يمكن الحصول على حليب طازج إلاّ كل أربعة أيام أثناء فصل الصيف .

مهارات المعرفة الخاصة بالبدو

يدعي سكان المدن والقرى في الجزيرة العربية أن البدو هم جماعة من الأغبياء يستمتعون بحياة الشقاء، فهم في نظرهم يمثلون سكان الأرياف البسطاء ويسخرون من جهلهم لطرق العيش المدنية، والصعوبة التي يواجهونها في اللحاق بركب العالم العصري. وتتركز بعض الانتقادات حول افتقارهم للفقه الإسلامي، إلاّ أنهم في الوقت نفسه يضربون الأمثال بفطنتهم ومهاراتهم وقدرتهم على العيش في الصحراء. بالفعل فإنهم يصابون بالدهشة أمام مهارات البدو التي يعتبرونها بمثابة حاسة سادسة يفتقر إليها أهل المدن.

وتشتمل الثقافة العربية على تيارين فكريين متناقضين، أحدهما يزدهر بين العرب المقيمين وهو مبني على العلم، ويتضمن المعرفة الواسعة للدين الإسلامي وأدب اللغة العربية الفصحى. أما الثاني فيزدهر بين العرب البدو الذين من خلال طريقة عيشهم القبلية يجسدون قيم التقشف، والمثابرة، والعدالة والضيافة.

في ما مضى كان سكان المدن يرسلون أطفالهم للعيش مع البدو في الصحراء لعدة فصول، من أجل تعلم طرقهم واكتساب القيم الإيجابية لطرق العيش البسيطة في كنف الصحراء النقية وبرفقة الإبل. وحتى اليوم ما زال الأعضاء البارزون في المجتمع الحضري السعودي ودول الخليج يقومون بزيارات إلى الصحراء للقنص ولزيارة البدو والاستماع إلى قصص حياة البداوة.

ترتبط معظم مهارات البدو ومعرفتهم بشكل مباشر بأنشطة الرعي التي تتطلب في آن واحد دقة الملاحظة ومعرفة دقيقة وشاملة بالميزات الجغرافية، والنباتات الصحراوية، والحيوانات. ويتمتع البدوي المتوسط بمعرفة عميقة بالتسلسل الأسري، كما يمكنه إلقاء الأشعار والتحدث عن التقاليد العربية لساعات طويلة. لكن جميع البدو لا يتمتعون بمهارات متساوية في أمور الرعي أو باطلاع واسع على جغرافية الصحراء والحياة النباتية والحيوانية فيها. ويعتبر

رعاة الإبل من أكثر الناس معرفة بهذه الأمور ، وبالأخص أولئك الذين يسكنون في الربع الخالي ، فهم يتفوقون على بقية الرعاة في هذا المجال .

ولطالما سمعت رعاة الأغنام والماعز وبقية البدو من الرعاة يتحدثون عن آل عازب بكل إعجاب وتقدير بسبب قدرتهم على اقتفاء أثر الحيوانات ، ومعرفتهم الجغرافية الواسعة ، ودقة ملاحظتهم ، وقدرة الاتجاه لديهم .

ويشتهر آل مرّة بقدرتهم على اقتفاء الأثر ، فهم يستطيعون أن يميزوا بكل سهولة بين أثر الإنسان وأثر الحيوان على رمال الصحراء ؛ إذ إن جميع أفراد البيت الواحد يعرفون تمام المعرفة أثر أقدام كل واحد من إبلهم وأثر أقدام إبل أقربائهم ، بل يمكن لأي من الشباب أو الراشدين أن ينظر إلى مجموعة من آثار الأقدام ويحدد آثار أقدام إبله من بينها ، وتلك هي مهارة مفيدة تنفع عند البحث عن الإبل الضائعة ، أو عن البيت الذي انتقل إلى مكان آخر أثناء غياب أحد أفراده .

يمكن لأي فتى أو فتاة تحديد أثر كل حيوان يعيش في الصحراء الغربية ، وعند بلوغهم سن المراهقة يصبح بإمكانهم تحديد الوقت الذي مضى على وجود الأثر وعدد الحيوانات أو الأشخاص ، والميزات الخاصة بالأفراد . على سبيل المثال باستطاعتهم تحديد ما إذا كان الأثر عائداً لامرأة أم رجل ، أو إذا كان صاحب الأثر عجوزاً أم شاباً ، وإذا كان يخص امرأة باستطاعتهم تحديد ما إذا كانت حاملاً أم لا ، كما بإمكانهم إعطاء النوع نفسه من المعلومات بالنسبة للإبل .

بسبب هذه المهارة كانت مراكز الشرطة الرئيسية في السعودية تستخدم حتى مؤخراً أفراد آل مرّة في مهمة اقتفاء الأثر ، فعند حصول جريمة ما ، يتوجه مقفي الأثر إلى مسرح الجريمة ويعاين آثار الأقدام في المنطقة ، من ثم يذهب إلى سوق المدينة أو القرية لمراقبة أقدام الأشخاص الذين يرتادونه . وقد نجح العديد منهم بحل لغز الجريمة بهذه الطريقة ، كما أن شهادتهم في المحكمة توازي شهادة الشاهد العيان .

وهذه المهارة مع أهميتها فإنها لم تزد من شعبية آل مرّة لدى الحضر من السعوديين، لا لأنهم قادرون على اكتشاف المجرمين بل بسبب قدرتهم على إيجاد الشخص من خلال قدميه والآثار التي تتركها. لذا راح العديد منهم يتهم آل مرّة بأنهم ينتمون إلى الجن. أما اليوم فلم تعد الشرطة تستعين بهم في هذا المجال باستثناء بعض القرى والمدن التقليدية. على كل حال أصبح جميع الأشخاص في المدن ينتعلون الأحذية في هذه الأيام.

هناك مهارة أخرى تستوجب الحديث عنها وهي القدرة على الاتجاه. لقد تنقلت عدة مرات مع آل مرّة عبر سهول خالية ومسطحة لا تحتوي على أي علامة جغرافية، تقع على الجهة الشمالية من الربع الخالي، وكنت كل مرة أصاب بالدهشة عندما نصل إلى المكان المقصود بلا أية مشاكل بعد سفر يوم كامل، على الرغم من غياب أي معلم مهما كان نوعه. وفي بعض الأحيان كنت أتولى قيادة الشاحنة أثناء نوم الكربي ورفاقه، فما كان منه عند فتحه لعينيه غير أن يصحح مساري مباشرة من دون النظر الى من حوله.

وكانت تلك المهارة تدهش أيضاً البدو من القبائل الأخرى الذين كانوا يرافقوننا في بعض الأحيان في الشمال خلال فصل الشتاء. فهم يقدرون مهارتهم في إيجاد طريقهم والمحافظة على المسار الصحيح، حتى عندما كانت تدعو الحاجة للدوران حول التلال أو المعالم الجغرافية الأخرى. أما اليوم فإن معظم بدو المنطقة الشمالية يتنقلون في الصحراء عبر الطرق المرسومة فقط حتى لو كان هذا ضمن دائرتهم القبلية.

بالإضافة إلى هذه القدرة على الاتجاه، هناك المعرفة الجغرافية الواسعة، فكبار السن من آل مرّة يتمتعون بمعرفة دقيقة لجميع التفاصيل الطبيعية للجزيرة العربية، وهي منطقة توازي مساحتها ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. هم بالطبع يعرفون ديرتهم وقد قاموا في يوم أو في آخر بزيارة كل جزء من الصحراء العربية سواء بسبب الرعي، أو بسبب مشاركتهم في الغزوات، أو بسبب انضمامهم إلى جيوش إخوة الإسلام خلال العقدين الثاني والثالث من

القرن العشرين . أما الشبان منهم والذين لم يشاركوا في الأنشطة العسكرية التي كانت تقود الرجال بعيداً عن ديارهم ، فهم يتمتعون بمعرفة أقل لكنهم ما زالوا يعرفون الكثير . فآل مرّة ، أثناء ترحالهم يراقبون بدقة الأرض والنباتات التي تنمو فيها ، ومواقع الآبار ، والأشخاص الذين يعيشون عليها .

تحمل الميزات الطبيعية الأساسية للأرض العربية أسماءً خاصة بها ، كما تمّ تصنيفها ضمن نوع معين من الظواهر العامة ، فهناك الوديان ، وكثبان الرمال ، وتلال الرمال ، والجبال ، وسهول الحصى ، ويحمل كل من الوديان أو كثبان الرمال اسماً خاصاً به . ويمكن لجميع أفراد آل مرّة تحديد الميزات التي تقع ضمن دائرتهم وفي شمال شرق الجزيرة العربية ، مع العلم أن الذين لا يقيمون في الربع الخالي يصعب عليهم تحديدها بدقة . وتظهر تلك المعرفة بكل وضوح في نهاية فصل الخريف ، حين يبدأ آل مرّة بتجميع المعلومات حول أماكن هطول الأمطار ، إذ عليهم معرفة المكان بدقة من أجل تحديد موقع المراعي الشتوية .

ويعرف آل مرّة أيضاً جميع أنواع النباتات والشجيرات التي تنمو في كل منطقة ، كما يعرفون اسم جميع أنواع النباتات التي تنمو في الأقاليم التي يرتادونها ، فهم يهتمون جداً بالنباتات ، وقد حاولوا مراراً عديدة تعليمي أسماء الأنواع المختلفة من النباتات وميزاتها ، لكنهم فشلوا في هذه المهمة على ما يبدو ؛ لأنني لم أحفظ سوى القليل من الأسماء العربية لأهم النباتات التي تتواجد في جميع الأماكن . وإذا ما قرر أحدهم يوماً من الأيام إجراء دراسة حول جغرافية الصحراء والحياة النباتية فيها فإنه سيجد بين آل مرّة من يغنيه بالمعلومات الدقيقة والشاملة حول الصحراء والرعي في السهول الشاسعة والخالية .

وكما ذكرت سابقاً فإن الإبل تمثل الحب الثابت لدى آل مرّة ، فمهما كانت المواضيع التي تناقش فإن موضوع الإبل يدخل دائماً ضمن الأحاديث . وقد لاحظ علماء اللغات أن اللغة العربية تتضمن عدداً كبيراً من الكلمات التي تستخدم للإشارة إلى الإبل ، كما أنه يتم استخدام أسماء مختلفة لتحديد

الأنواع المختلفة من الإبل والجوانب المختلفة التي تميزها . فعندما يتحدث آل مرّة عن إبلهم فهم يشيرون إليها بعبارات خاصة ذات معان مختلفة ، وذلك وفقاً لما يريدون التركيز عليه : الجنس ، السن ، اللون ، نوعية الاستخدام ، السلالة .

وتوجد هناك خمسة تعابير مختلفة على الأقل تستخدم للإشارة إلى الجمل ، تحدد سلالة كل جمل ، وبالأخص الأصيل منها ، ويعطى اسماً خاصاً به تماماً كما كان يحصل مع الخيول التي كانت تستخدم أثناء الحروب والغزوات ، إلى أن أقنعهم ابن سعود بالتخلي عنها لعدم الحاجة إليها في المجتمع المسالم .

ويعتبر آل مرّة أنفسهم قادرين على علاج أي جمل مريض من خلال عملية الكي ، حيث يستخدمون الحديد الحار لحرق بعض أجزاء من جسم الحيوان وفقاً لنوعية المرض .

تعود تلك المهارات والمعرفة التي يتمتع بها آل مرّة إلى سكناهم في الصحراء ، فجميعها ضرورية من أجل استخدام جميع الموارد المتوفرة بنجاح . فالبيئة الصحراوية ، بحد ذاتها تنمي حاسة المراقبة والوعي التي يفتقر إليها سكان المدن والقرى .

والبدو يقضون معظم أوقاتهم في العراء بالقرب من الحيوانات ، فليس بالعجيب أن يسهل عليهم التعرف على آثار أقدامها وإيجادها عندما تضيع ، فالمساحات الواسعة والمفتوحة في الربع الخالي تدفع الإنسان إلى التحديق بالأفق لمحاولة رؤية الأشياء البعيدة ، كما أنهم من خلال النظر إلى السماء يمكنهم تحديد الفصول والوقت أثناء الليل .

تشكل التجارب والإصغاء لمن هم أكبر منهم سناً أفضل مدرسة بالنسبة لآل مرّة ، إذ لا تتضمن تقاليدهم القبلية وجود أية مدارس أو أي نوع من التعليم المدرسي ، فهم يتعلمون من خلال انغماسهم في بيئتهم وليس كما يدعي الآخرون أنهم يتمتعون بتلك القدرات الخارقة لأنهم ينتمون إلى الجن .

إن بقاءهم على قيد الحياة يتوقف على مهارتهم الخاصة باستغلال الطبيعة القاسية التي تحيط بهم ، وتشكل معرفتهم العملية لها أداة يواجهونها بها .

الفصل الثالث

البيت، الزواج، الحياة الأسرية

البيت، الزواج، الحياة الأسرية

خلال معظم أوقات السنة تكون بيوت آل مرّة في عمق الصحراء ، والوصول إليها يحتاج إلى دليل ، لذا فإن أول عمل قمت به قبل البدء برسالة البحث هذه كان إيجاد الدليل . فخلال الأسابيع الأولى التي أمضيتها بضيافة أمير آل مرّة في أبقيق ، تعرفت على شاب في الثلاثينات من العمر ينتمي إلى الحرس الوطني الاحتياطي ، فأخبرني أن بيت والده والإبل الخاصة بهم توجد في أعماق الربع الخالي .

عمل هذا الشاب في الكويت لعدة سنوات ، وادخر بعض المال مما سمح له بشراء شاحنة صغيرة مستعملة ينوي استخدامها لأغراض النقل داخل الصحراء مقابل بعض الأجر . فأخبرته إن وزارة الزراعة والماء السعودية قد وعدتني بشاحنة لاستخدامي الشخصي ، وإنني بحاجة لمن يعمل كسائق ودليل في آن واحد ، فأجابني إنه الشخص المناسب لهذا العمل وتوجهنا سوياً للحصول على موافقة الأمير .

تحمس الأمير للفكرة وأخبرني إن هذا الرجل ينتمي إلى واحدة من سلالات البدو العريقة والتقليدية والمشهورة في الجزيرة العربية . فأفراد تلك السلالة يمتلكون أفضل الإبل على الإطلاق ، وهم عادة يتوجهون إلى أعماق الربع الخالي بحثاً عن أفضل المراعي . وكان هذا الشاب الكربي قد أصبح بالنسبة لي بمثابة الدليل والرفيق والصديق على مدى الثمانية عشر شهراً التي قضيتها مع آل مرّة .

في نهاية شهر سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٦٨ وبعد انتهاء الكربي وبقية أفراد آل مرّة من تأدية مهامهم في الحرس الوطني الاحتياطي وقبض رواتبهم ، غادرنا أبقيق وتوجهنا في شاحنة الكربي إلى منطقة الهفوف ، التي تعتبر المركز الإداري والتجاري لواحة الإحساء . أمضينا الليل في الخلاء على أطراف المدينة وتوجهنا إلى السوق في اليوم التالي حيث قام الكربي ، بواسطة المال الذي كان قد

حصل عليه (٢٢٠ ريالاً سعودياً) بشراء بعض المواد الغذائية من أرز، وتمر، وحبوب القهوة، والسكر، وحب الهال، والبخور وبعض الملابس لأولاده وأولاد شقيقه الأكبر. وفي فترة بعد الظهر تمّ تحميل المشتريات ومشتريات الرجال الأربعة من قبيلة آل جابر في الشاحنة. وبينما كنا نهم بمغادرة منطقة الهفوف فوجئنا بزوجة الكربي التي كانت قد قدمت إلى المدينة لمراجعة الطبيب، ووالدها الذي هو عمه في الوقت نفسه، ورجل آخر من السلالة نفسها، وثلاثة نساء من قبيلة آل جابر. فركب الجميع في الشاحنة وغادرنا المنطقة بعد صلاة المغرب.

حوالي منتصف الليل، وبعد مرورنا بطرق صحراوية وعرة باتجاه الجنوب توقفنا للراحة والنوم بعض الشيء في أحد السهول الصخرية الجرداء. كانت الحرارة متدنية جداً قبل بزوغ الفجر، واستفاق الجميع لأداء الصلوات، ثم تناولنا بعض التمر وصنعنا بعض القهوة، وبعدها تابعنا طريقنا لمدة ساعة ونصف الساعة إلى أن وصلنا إلى مجموعة من ٣ خيام سوداء نصبت الواحدة بجانب الأخرى في أسفل تل صغير. كانت تلك خيام رفاقنا من آل جابر الذين ترجلوا وأخذوا أمتعتهم، ومن ثم دعينا لتناول الشاي والقهوة وحليب الناقة، وتابعنا طريقنا.

ثم مضينا باتجاه الجنوب لفترة ساعة من الزمن، بعدها شاهدنا على بعد أشجار النخيل في جبرين وهي آخر واحة قبل الربع الخالي. وراح الطريق الذي كنا نسير فيه يختفي شيئاً فشيئاً فتركناه وأكملنا السير عبر الحقول. قرابة الظهر كنا نسير بالاتجاه الجنوب الغربي عبر سهل أبو بحر الواسع، مستعينين ببعض الجزر أو التلال الرملية لإيجاد الطريق، فتوقفنا على حافة أحد الكثبان الرملية وجمعنا بعض الشجيرات اليابسة لإضرام النار وإعداد بعض الأرز والقهوة. بعد ذلك تمتعنا بقيلولة صغيرة في ظلال الشاحنة، وبعد صلاة العصر تابعنا سيرنا حتى المغرب حيث توقفنا للصلاة مجدداً. ومنذ أن تركنا آل جابر لم نشاهد أية خيام، أو إبل أو أي أثر للحياة البشرية، على الرغم من أننا قد قطعنا مسافة تقارب ٣٠٠ ميل.

كان الجميع يشعرون بالتعب فتوقفنا للنوم ، لكن هذه المرة على الرمال المريحة وليس في السهول الصخرية مثل الليلة السابقة . واستفقنا في اليوم التالي قبل بزوغ الفجر وتابعنا رحلتنا . وسرعان ما شاهدنا بعض آثار لأقدام الإبل فنزل الكربي ورفاقه لتفحصها ، فتعرف عمه على بعض منها وقال إن تاريخها يعود إلى يوم أمس . بعد تحديد الاتجاه الذي تبعته الإبل قرر الجميع أنهم سيجدون عربهم وراء أحد الكثبان الرملية الطويلة الظاهرة في الأفق إلى الجنوب .

سلكنا هذا الاتجاه حتى وصلنا إلى منطقة رملية ترعى فيها الإبل بعض الأعشاب اليابسة وشجيرات العبال ، وكان يرافق الإبل شابان من ذوي الشعور الطويلة يحمل كل واحد منهما بندقية ، فتوقفنا بالقرب منهما وبعد التحية سألناهما عن موقع العرب . فصعد أحدهما ويدعى حران إلى الشاحنة وقادنا إلى حيث توجد ٣ خيام سوداء نصبت جنباً إلى جنب على سفح تل من الرمال . كانت إحداها ملكاً لأحد أقرباء الكربي الذي كان يسافر معنا ، فدعانا لتناول القهوة والشاي وحليب الناقة وبعض الأرز .

تجمع الرجال حول القهوة وراح الكربي وعمه يطلعان الجميع على أخبار رحلتهما إلى أبقيق ، وعندما سأل أحدهم الكربي عن هويتي أجاب : «هذا شقيقي وقد جاء ليعيش في الصحراء» . فأخبرتهم إنني طالب في الجامعة وقد جئت إلى هذه المنطقة لكي أكتب رسالة علمية حول آل مرة وتقاليدهم وذلك للحصول على درجة الدكتوراه . بعدها جاء حرّان ومعه جمل الركوب وطلب مني ركوبه حول المخيم ، ثم دعاني لسباق في الجري وتركني أتغلب عليه ، ثم سمح لي باستخدام بندقيته لكي أجرب حظي وأصيب الهدف الذي وضعه أمامي .

كانت جميع تلك الأمور تجري أمام سمع وبصر النساء اللاتي جلسن بعيداً عن الرجال في خيمة بدوية أخرى يراقبن الوضع من خلال فتحات النقاب الأسود . كان حرّان قد قرر أننا سنصبح أصدقاء وأنه سيعلمني كيف أكون

بدوياً . لكن أسرته قررت التوجه نحو الشمال ولم تتح لي فرصة رؤيته مجدداً إلاّ بعد مرور سبعة أشهر ، مع العلم أن أسرته تنتمي إلى سلالة الكربي نفسها .

في منتصف بعد الظهر غادرنا أنا والكربي وعمه وزوجته المكان وتابعنا رحلتنا ، وبعد مسافة ٥١ ميلاً وصلنا إلى سهل شاسع تتناثر فيه بعض كتل الأعشاب ، وكان يظهر في الأفق البعيد كثيب واحد فقط من الرمال ، مما ساهم في كسر رتابة المنظر . أوقف الكربي الشاحنة وراح ينظر إلى البعيد فشاهد نقطة سوداء صغيرة تدل على مخيم والده الذي كان ينتصب وحيداً في هذه الأرض الواسعة ومن حوله الإبل التي ترعى .

عند وصولنا إلى المخيم عرفني الكربي على والده علي ؛ ووالدته بنت راجح ؛ وشقيقيه محمد ومرزوق ؛ وزوجة أخيه محمد بنت الكربي ؛ وابنه بتهان . أما شقيقه الأكبر راجح فكان يملك بيت شعر بمفرده ويعمل في منشآت النفط في الشمال . ومكث عمه معنا لبعض الوقت إذ لم يكن يملك أي بيت شعر بسبب موت زوجته .

شكل بيت والد الكربي مقر إقامتي خلال الثمانية عشر شهراً التي قضيتها مع آل مرّة حيث تنقلت معهم وساعدت في رعي الإبل ، وصنعت القهوة في البيت وساعدت في جمع الحطب لإيقاد النار . أصبحت أعرف كل واحد منهم تمام المعرفة وكأنهم من أفراد أسرتي ، وأذكر دائماً ما قاله لي محمد شقيق الكربي في يوم من الأيام : «نحن أشقاؤك ، فلا تخشَ شيئاً ، وإذا حدث أن اعتدى عليك أحد ما فسوف ننتقم لك .»

وبقي البيت منتصباً بمفرده طيلة فصل الخريف من عام ١٩٦٨ ، وكان مرزوق يصطحبني معه دائماً لرعي القطعان ويعلمني أنواع الإبل ، وأسماء النباتات والشجيرات المختلفة ، وكنا نتحدث كثيراً عن الصيد . كانت الحياة بسيطة وكنت أشعر أنني قريب منهم جداً ، لكنني في الوقت نفسه كنت أشعر ببعض الإحباط ، فأنا قطعت كل تلك المسافات لكي أدرس وضع قبيلة بأكملها وإذ بي أجد نفسي مع بيت واحد فقط . كنت أود مقابلة بقية أفراد آل عازب وهم

الفخذ التي ينتمي إليها الكربي ، لكن أقرب خيمة إلينا كانت تقع على مسافة ١٥ ميلاً ، ولم نكن نملك ما يكفي من البترول لكي نبدده على الزيارات غير الضرورية كما كانوا يقولون .

لكن مع مرور الوقت استطعت أن أقدر أهمية البيت ، إذ إنه يمثل الوحدة الأساسية التي تشكل اقتصاد ومجتمع آل مرّة ، كما أدركت أن الدرجة العالية من التشتت تشكل العنصر الأساسي من حياة آل مرّة الاجتماعية ، على الرغم من قولهم المتكرر بأنهم أسرة واحدة يعيش الجميع فيها كإخوة إلاّ أنهم يمضون معظم أوقاتهم بمفردهم أو برفقة بيتين أو ثلاثة .

البيت

يستخدم آل مرّة كلمة بيت للإشارة إلى بيت شعر والأسرة ، فبيت شعر تستخدم للتفريق عن كلمة قصر التي تعني المبنى الذي يعيش فيه الحضر ، أما عندما تعني أسرة فهي تشير إلى الوحدة الاجتماعية سواء كان أهلها من البدو أو الحضر .

أما الدار فهي تعني اجتماع بيتين أو ثلاثة للترحال سوياً أو للمكوث سوياً في مكان واحد ، وتستمر هذه التسمية طيلة فترة بقائهم سوياً ، حيث يكون كل بيت بمثابة القصير للبيت الآخر ، وهذا يطغى على كل ما عداه من روابط الدم وصلات القرابة . فالرجل يدافع عن قصيره ضد أي اعتداءات حتى لو كانت من قبل أقرب المقربين إليه .

لا علاقة لروابط الدم في عملية تكوين الدار ، على الرغم من وجودها بين أفراد الدار الواحدة ، بينما تشكل الروابط الزوجية العنصر الأهم لحدوث هذا التجمع خاصة إذا كان الأمر يتعلق بارتباط شخصين من فخذين مختلفتين ؛ لذا نرى أن الرجل يسعى دائماً لجمع بيته مع بيت أقربائه بالمصاهرة لكي يتسنى لزوجته من زيارة أهلها ، أما الصداقات فلا تلعب أي دور مهم في هذه العملية .

على الرغم من انتمائهم إلى دار واحدة يتمتع كل بيت بالاستقلالية

الكاملة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، إذ لا يتم تقسيم مهمات الرعي على البيوت بل يهتم كل بيت بحيواناته . ويتم تقديم القهوة والشاي في جميع البيوت بالتساوي ، ويتنقل الرجال والنساء من بيت إلى آخر خلال النهار لشربهما . أما بالنسبة للطعام يشارك جميع الذكور في الوجبة اليومية الأساسية التي يتم إعدادها مداورة في أحد البيوت ، مع العلم أنه لا يوجد هناك أي جدول موضوع لعملية إعداد الطعام .

لا تلعب الأمور الاقتصادية أي دور في عملية تشكيل الدار إنما الصدف وحدها تقرر هذا الأمر ، بعد أن يكون بيتان أو ثلاثة قد أمضوا بعض الوقت سوياً في المراعي يقررون البقاء سوياً ، وعند الانتقال إلى مراع أخرى فهم لا يترددون عن الانفصال . وفي مجتمع مثل مجتمع آل مرّة المبني على صلات القرابة نرى أن معظم أفراد الدور هم من الأقرباء .

في بعض الحالات النادرة نجد أن السبب وراء تكوين الدار يعود إلى البحث عن الحماية ، فعند حدوث جريمة ما يسعى القاتل إلى جمع بيته مع بيت آخر لتشكيل دار توفر له الحماية ، إذ وفقاً للتقاليد يؤمن أفراد الدار الحماية لبعضهم البعض لفترة سنة ويوم .

يشار إلى كل بيت باسم الرجل الأكبر سناً الذي يسكن فيه ، مثل بيت آل علي أو أسرة العلي ، أما الخيمة البدوية (بيت الشعر) بحد ذاتها فهي ملك للمرأة الأكبر سناً . وعادة ما تقوم تلك المرأة وبناتها وزوجات أبنائها بحياكة هذا البيت من شعر الماعز الذي يجمعنه . أما اليوم فإن معظم الخيام هي من صنع الآلات ويمكن شراؤها من الأسواق بمبلغ ٤٫٥٠٠ ريال لبيت الشعر العادي ، لكن القليل من الناس يشترون الخيمة الكاملة دفعة واحدة . يتم شراء بعض القطع من الصوف المصنوع من شعر الماعز ، وتقوم النساء على خياطتها لصنع البيت أو إصلاح البيت القديم . ويوفر الرجال المال لشراء تلك الأشياء لكن بيت الشعر يظل ملك المرأة .

على الرغم من تزايد عملية الشراء لمستلزمات الخيام التي تلت النمو

الصناعي في المملكة بعد ظهور النفط ، فما زالت الحياكة تشكل أهم عمل بالنسبة للنساء ، وما زالت الأجزاء الرئيسية من البيت ، ولا سيما الرواق الذي يفصل بين قسمي الرجال والنساء ، تصنع في البيت وفقاً لرسوم ونقوش كل قبيلة وكل سلالة . فالخيمة البدوية تعتبر مسئولية المرأة وحدها ، فهي التي تقوم على فكها ، ونقلها ونصبها مجدداً . بالإضافة إلى ذلك فما من رجل يعيش بمفرده في خيمته أو برفقة رجال آخرين من دون وجود أية امرأة ، بينما نجد الأرملة أو المرأة المطلقة تعيش بمفردها مع عيالها . أما الرجل الأعزب فهو يقيم في بيت شخص آخر .

وعلى عكس خيام العديد من رعاة الغنم ، فإن خيام آل مرّة صغيرة وذلك بسبب كونهم رعاة إبل ؛ إذ يجب عليهم التنقل باستمرار وبسرعة مما يفسر عدم وجود الخيام الكبيرة التي تشكل عبئاً ثقيلاً .

إن معظم الخيام لدى آل مرّة تقف على عمودين أو ثلاثة أعمدة مركزية باستثناء خمس أو ست خيام ، ثلاث منها تخص الأمير ، تقف على أربعة أعمدة . وهناك بيت شعر واحد فقط يقف على خمسة أعمدة وهو يخص زوجة الأمير السابق .

تنصب الخيام عادة بمواجهة الجنوب ، ويحتل قسم الرجال ربع أو ثلث البيت إلى الجهة الشرقية منها ، ويشكل هذا القسم المدخل الوحيد الذي يقترب منه الذكور ، كما يشهد هذا لقسم جميع الأنشطة الخاصة بالرجال .

أما قسم النساء فهو مجزأ من الداخل بواسطة الأواني المنزلية والمؤن ، مما يتيح لكل وحدة زوجية أن يكون لها مكانها الخاص داخل الخيمة . تحتل كل امرأة متزوجة جزءا من هذه الأجزاء تمضي فيه الليلة مع زوجها وأطفالها . أما الذكور الذين تخطوا سن الطفولة فهم ينامون في قسم الرجال . ويقع الموقد الذي تستخدمه المرأة للطهي أو لتحضير القهوة لزوارها في الزاوية الجنوبية الغربية من الخيمة أو خارجها ، بينما يقع الموقد الخاص بتحضير قهوة الرجال أمام القسم المخصص لهم .

تضم معظم خيام آل مرّة أكثر من وحدة زوجية واحدة ، فهي عادة تتألف من ثلاثة أجيال من الذكور : الجد والأب والابن وزوجاتهم . أما البيت الذي عشت فيه فكان مؤلفاً من ثلاث وحدات زوجية - كان هناك علي رب البيت الذي يقارب السبعين سنة ، وزوجته بنت راجح ، وابنهما الثاني وزوجته وابنهما ، وابن علي العازب والبالغ من العمر عشرين سنة . أما ابنة علي وبنت راجح الوحيدة فقد تزوجت ورحلت لتعيش مع زوجها ، بينما قرر راجح ، ابن علي البكر تأسيس بيت خاص به وحصل على نصيبه من القطعان . لكنه قبل حصوله على هذا النصيب قام بنصب بيته (الذي اشتراه) بطريقة تتقاطع أوتادها مع أوتاده بيت والده ، مما يدل على البيت الواحد .

ويشكل بيت علي أنموذجاً تقليدياً لمعظم بيوت آل مرّة ، فالأبناء يبقون في بيت أبيهم ويجلبون إليه زوجاتهم ، بينما تغادر البنات البيت للعيش في بيوت أزواجهن . ويطرأ على هذا النموذج بعض التغييرات إذا حصل فسخ للزواج ، بسبب الطلاق أو موت أحد الزوجين ، أو عندما يتزوج أحد الزوجين مرة أخرى بعد طلاقهما . أما الأبناء فهم لا يسكنون أبداً خيمة المرأة الأكبر مقاماً إذا لم تكن والدتهم .

لنأخذ على سبيل المثال ما حصل لأسرة أمير آل مرّة الذي طلق زوجته الأولى وتزوج امرأة أخرى . فما زالت زوجته الأولى تعيش في خيمتها وهي إحدى أكبر خيام القبيلة ، بينما انتقل الأمير إلى بيت آخر نصب على بعد مائة ياردة من الأول . أما ابنه البكر فهو يعيش في بيت والدته ومع زوجته وولده الصغير وشقيقاته غير المتزوجات ، وأخيه من أبيه الذي فقد أمه أثناء الولادة (زوجة الأمير الثانية) ، والذي يفضل العيش مع زوجة والده الأولى على العيش مع والده وزوجته الجديدة . أما زوجة الأمير الثالثة والتي طلقها أيضاً فهي تعيش بمفردها في خيمتها مع ولديها . وفي حال زواج الأرملة أو المرأة المطلقة مجدداً فإن أبناءها يسعون لتأسيس بيت مستقل حالاً لزواجهم .

إن معظم بيوت آل مرّة تخضع لنظام بيت الأب ، أي أن الأبناء يأتون بزوجاتهم للعيش في بيت أبيهم ، ولا يؤسسون بيوتاً جديدة إلاّ في حال زواج والديهما من أشخاص آخرين بعد أن يتم الطلاق بينهما . أما نظام بيت الأم فلا يتبع إلاّ في حالات نادرة عندما لا تتزوج الأرملة أو المطلقة مرة أخرى ، عندها يأتي الأبناء بزوجاتهم للعيش في بيت الأم .

في ثقافة ومجتمع آل مرّة يرتكز البيت على ثلاثة عناصر أساسية هي : الضيافة ، والرعي ، والملكية الخاصة لنساء آل مرّة . تشكل الضيافة الكريمة إحدى أهم القيم لدى آل مرّة ، كما أن أفضل صفة يمكن أن ينعت بها شخص ما هي القول بأنه رجل كريم على استعداد لذبح حيوان- مهما كان لديه من حيوانات- من أجل ضيوفه ، لأن الضيف يعتبر أمانة مقدسة يجب تكريمه حتى لو كان ينتمي إلى مجموعة معادية .

وتتمتع جميع بيوت آل مرّة ، مهما كان وضعها الاجتماعي ، بكرم الضيافة وهذا ما يميزهم عن باقي القبائل في الصحراء السورية ، حيث تقتصر الضيافة على شيوخ القبيلة فقط . فهؤلاء الشيوخ يستقبلون الضيوف بكل كرم لذا ترى الغريب يتوجه دائماً إلى خيامهم ولا يتوجه إلى بيت شخص آخر من أفراد القبيلة ، على الرغم من أن التقاليد تفرض حتى على أفقر الأفراد في القبيلة منح الضيافة لطالبها من دون طرح أية أسئلة .

ويتميز آل مرّة في مجال تقديم القهوة عن الشمار ، حيث لا يمكن شرب القهوة إلاّ في بيت الشيخ ، بينما يفتخر كل بيت من بيوت آل مرّة بدلّة القهوة لديه ، كما أنك ستجد الضيافة الكريمة نفسها في كل منها (مع العلم أن كرم شيوخ آل مرّة لا مثيل له) . أحد رجال القبائل قرب مدينة صغيرة تقع في شمال شرق الجزيرة العربية لم يقدم لنا سوى بعض القهوة والشاي ، ولم يعرض علينا أي زاد ، لذا عند مغادرتنا للمكان وصفوه بالرجل الصغير .

عند زيارتنا لأي من شيوخ آل مرّة كان يقدم لنا أفضل الطعام ، بما في ذلك الخروف الذي يذبح على شرفنا ، وكنا نلاقي كرم الضيافة نفسه في كل بيت

وكنت أرفض دائماً أن يذبح الحيوان إلاّ في المناسبات الخاصة، حيث كنت أستطيع رد المجاملة بمثلها.

في يوم من الأيام قام راشد بن طالب الابن الأكبر لأمير آل مرّة بزيارة قصيرة إلى إيران، وعلى الطريق بين شيراز وأصفهان شاهد بعض الخيام السوداء العائدة للبدو الإيرانيين، فرغب في مقابلتهم لأنه كان معجباً بهم وبثقافتهم وبلغتهم المختلفة، لكنه صعق لافتقارهم لأدنى أصول الضيافة، إذ إنهم سألوه مباشرة عن غرضه ولم يقدموا له حتى كوباً من الشاي. عندما أخبرني بالأمر حاولنا سوياً تفسير هذا الأمر، وفي النهاية توصلنا إلى أنه عائد إلى التفاوت الموجود بين الطبقات الاجتماعية لدى معظم القبائل الإيرانية، حيث يتمتع رئيس القبيلة بسلطة كبيرة، وبسبب وجود فرق كبير بين نمط العيش لدى رئيس القبيلة والأفراد العاديين فيها. هكذا هو الحال أيضاً بالنسبة للقبائل الموجودة في الصحراء السورية، حيث يسيطر الشيخ سيطرة تامة على الحياة القبلية، بينما يتساوى جميع بيوت آل مرّة بكرم الضيافة، مما يدل على الحرية والاستقلالية التي يتمتع بها كل بيت ضمن ثقافة ومجتمع آل مرّة، وهما نتيجة لتكيفهم البيئي مع حياتهم كرعاة إبل.

تعتبر مراسم تقديم القهوة في القسم المخصص للرجال من البيت الميزة الأساسية لضيافة آل مرّة، وطقساً من طقوس حياتهم اليومية. فآل مرّة يشربون القهوة على مدى ساعات النهار، لكن الأمر يتخذ أهمية أخرى عند وصول أحد الضيوف. فعلى الرغم من توفر القهوة في الدلّة الموجودة على النار إلاّ أنه يصار إلى تحضير دلّة جديدة على شرف الضيف. فيقوم أحد الشباب بزيادة الحطب في الموقد أمام قسم الرجال ويطلب من النساء إعطاءه بعض الماء وحبات البن. بعد تسليمه الأشياء المطلوبة عبر الفاصل من دون أن يرى أحد وجه المرأة، يضع الماء في دلّة سوداء ويتركه ليغلي على النار. في هذه الأثناء يقوم بتحميص حبات البن في مقلاة ذات يد طويلة حتى يصبح لونها بنياً قاتماً، ثم يضعها في هاون من النحاس ويتركها لتبرد لبعض الوقت. بعدها يقوم

الشاب بطحنها بواسطة مدقة من النحاس، مصدراً أصواتاً رنانة تشكل مثابة دعوة لمن يريد شرب القهوة الطازجة.

بعد أن ينتهي من طحن حبات البن يضعها الشاب في دلّة نحاسية ذات عنق طويلة ويضيف إليها الماء المغلي ويعيدها إلى فوق النار لتغلي مجدداً، بعدها يطلب من النساء بعض حبات الهيل التي يطحنها في الهاون ويضيفها إلى القهوة التي تغلي. يتم تقديم بعض حبات التمر للضيف أولاً ثم لبقية الرجال وفقاً لسنهم. أما الشاب الذي أعد القهوة فهو يحمل ٥ أو ٦ فناجين في يده اليمنى ودلّة القهوة في يده اليسرى، ثم يسكب قطرات قليلة من القهوة في أحد الفناجين ويتذوق القليل منها ويفرغ باقي الفنجان على الأرض، ثم يتوجه إلى وسط نصف الدائرة حيث يجلس الضيف خلف الموقد، ويملأ له حوالي ثلث الفنجان بالقهوة ويقدمه إليه، ويتابع دورته حتى نفاد الفناجين من يده، فيعود أدراجه لسكب المزيد من القهوة في الفناجين، ويتابع السكب حتى يشير له الشخص بأنه اكتفى ويعيد الفنجان إليه، من ثم يتابع تقديم القهوة للآخرين.

بعد أن يفرغ من شرب القهوة يقوم الضيف بالتعبير عن غرضه إذا كان هناك من غرض. وعلى الرغم من أن الشاي لا يشكل طقساً من الطقوس، وأنه يحق للضيف مغادرة المكان بعد شرب القهوة، إلاّ أنه جرت العادة على تقديم الشاي بعد القهوة مباشرة، ومن ثم تقديم القهوة مجدداً لغسل طعم الشاي، وفي النهاية يأتي دور البخور.

أما العنصر الثاني الأساسي في ثقافة ومجتمع آل مرّة فهو الرعي الذي يعتبر الوحدة الاقتصادية الهامة للإنتاج والاستهلاك، والتبادل الضئيل الذي يحصل في هذا المجال يتم بين أفراد البيت والمجتمع القبلي الواسع عن طريق الأسواق في المدن. وكما رأينا سابقاً توجد هناك تقسيمات أخرى غير البيوت في تنظيم آل مرّة. فآبار الماء والأراضي الزراعية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالفخذ، لذا نرى خلال فصل الصيف أن معظم الأشخاص الذين يمكثون في تلك المناطق هم من فخذ واحد، كما أن معظم أفراد الفخذ الواحد يقصدون المراعي

نفسها خلال فصول الخريف والشتاء والربيع ، وليس ما يجبرهم على ذلك سوى التقاليد ، فالتضامن لا يكون ضمن الفخذ الواحدة فقط . وعلى الرغم من أن المرء يتأثر بسلالته ، ويهتم بأقربائه بالمصاهرة ، إلاّ أن كل بيت يؤمن معيشته الخاصة وهو المسئول الوحيد عن قطيعه .

فإن كل بيت يملك القطيع الخاص به ، على الرغم من اختلاط تلك القطعان بحيوانات مملوكة من قبل أفراد من خارج البيت ، لكن نتاج تلك الحيوانات يعود إلى الرعاة . وقد تكون بعض حيوانات القطيع ملكاً خاصاً لبعض أفراد البيت ، إلاّ أن معظم القطيع يعتبر ملكاً للبيت ككل ، وعادة ما يكون موروثاً عن الجد من جهة الأب ، مع وجود بعض الحيوانات التي أتت نتيجة لمهر أو إرث المرأة التي انضمت إلى هذا البيت عن طريق الزواج من أحد أفراده .

ويعتبر القطيع أمانة موضوعة بين يدي رب البيت الذي يحافظ عليها . فهو لا يستطيع أن يبيع أو يهب أياً من الحيوانات من دون موافقة باقي أفراد البيت ؛ وتقسيم القطيع يعتبر انقساماً داخل البيت الواحد .

أما العنصر الأساسي الثالث في ثقافة ومجتمع آل مرّة فهو الملكية الخاصة للنساء . فعلى الرغم من أن معظم الزيجات تتم ضمن الفخذ الواحدة ، فإن البيت يشكل الوحدة التي تنضم الزوجة إليها وتخرج الابنة منها . فالمرأة تترك البيت الذي ولدت فيه وتنتقل إلى البيت الذي يعيش فيه زوجها . فالرجال من خلال هذا النظام لا يغادرون البيت إلاّ لإنشاء بيت جديد عند تقسيم القطعان الموروثة عادة بعد موت رب البيت . وقد يظن البعض أن الرجل هو الذي يشكل العنصر الجوهري في البيت ، إلاّ أن حقيقة الحياة الأسرية لدى آل مرّة والتي ترتبط بعقيدتهم تظهر أن المرأة هي الجوهر الحقيقي للبيت .

وكما ذكرنا سابقاً فإن بيت الشعر هو ملك للمرأة ، خارجها يكتسب كل من الرجل وسلالته الأهمية والاعتبار ، لكن ضمن البيت نفسه فإن المرأة هي التي تشكل العنصر الأهم فيه . وقد وصف فتحي حسن ، وهو مهندس هذا

الوجه الرئيسي للبيت العربي (البيت الحضري) بقوله :

إن داخل البيت العربي الذي ينفتح على هدوء السماء ، ويزينه العنصر الأنثوي الممثل بالمياه ، والذي يشكل تناقضاً مع الحياة العامة القاسية والحروب والتجارة هو الملكية الخاصة للمرأة . إن الاسم العربي «سكن» الذي يشير إلى المنزل يرتبط بكلمة سكينة التي تعني السلام ، بينما كلمة حريم التي تعني المرأة ترتبط بكلمة حرم أي المقدس التي تعني الأسرة التي تعيش ضمن المنزل العربي (Fathy 1969: 77-78) .

وينطبق هذا المعنى على آل مرّة تماماً . فوجود المرأة فقط يشكل الجوهر الأساسي للبيت ، إذ يتنقل الرجال دائماً ويقضون معظم الليالي خارج البيت إما بسبب الرعي ، أو الصيد ، أو الرحلات إلى المدن ، بينما تبقى المرأة في خيمتها وسط الصحراء ، حتى عندما يعمل الرجل في المدينة بشكل دائم ، فسكن المرأة بشكل دائم مع زوجها في المدينة ، يعني الانفصال عن المجتمع القبلي ، لكن بوجود المرأة في خيمتها مع القطيع يضمن بقاء هذا الرجل كفرد من أفراد القبيلة على الرغم من غيابه عنها لسنوات طويلة .

الزواج والطلاق

يحتل الحديث عن الزواج والطلاق المرتبة الثانية بعد الإبل لدى آل مرّة ، فأول ما تريد الزوجة معرفته عند عودة زوجها المسافر بعد غيبة طويلة هو الأخبار المتعلقة بالزواج والطلاق والولادة . فمسألتا الزواج والطلاق تتطلبان عادة مفاوضات ومناقشات طويلة تعتبر من أهم الأحداث التي تحصل ضمن مجتمع آل مرّة . فعملية الزواج لا تتعلق فقط بارتباط الرجل بالمرأة بل تتعلق بالأقرباء أيضاً . فعند حصول زواج يتم إنشاء سلسلة من الروابط بين أسرتي العريس والعروس ، كما أن معظم النزاعات التي تحصل وتؤدي إلى الطلاق يكون سببها المشاكل العائلية أكثر منه المشاكل بين الرجل والمرأة .

في معظم الأوقات يتزوج أفراد آل مرّة من أشخاص من ضمن دائرة الأقارب الضيقة ، ومثلهم مثل جميع شعوب الشرق الأوسط فإن الرجل يفضل الزواج من بنت عمه التي تعتبر الأقرب إليه ومن جيله . وزواج الرجل من امرأة تنتمي إلى فخذه المباشرة بدلاً من فخذ آخرى هو أمر عادي ضمن المجتمعات التي توصي بهذا النوع من الزيجات يطرح سؤالاً مهماً في نظرية علم الإنسان التي تقول أن الزواج ضمن النطاق الضيق في المجتمعات التي تعتمد على صلات القرابة يعتبر بمثابة تحالف بين المجموعات المشتتة . لكن بسبب صلات القرابة الموجودة أصلاً بين أسرتي العريس والعروس هل يمكن اعتبار أن الزواج يلعب دوراً هاماً في مجال التحالف في المجتمعات الشرق أوسطية؟

لسنا هنا بصدد مراجعة نظريات علم الإنسان المتعلق بالزواج بين الأقارب في الشرق الأوسط ، إن ما نود أن ننوه به أن آل مرّة لا يتزوجون دائماً من بنت العم ، فهناك عدد كبير من الزيجات تتم مع نساء من الفخذ نفسها ، وقلما يتم الزواج من نساء من خارج الفخذ أو القبيلة .

قد يتزوج الرجال من أسرة الشيخ نساء من قبائل أخرى ، كما تتزوج نساء تلك الأسرة من أفراد من الأسر المالكة في السعودية أو في دول الخليج العربية ، لكن آل مرّة لا يسمحون لنسائهم بالزواج ممن هو دونهم مقاماً ، على الرغم من أن بعض الرجال قد يتزوجون ممن هي دونهم مقاماً . إلاّ أن أولادهم في هذه الحال لا يعتبرون من أفراد القبيلة ولا يسمح لهم الزواج بأي من نساء آل مرّة . ويعتبر أي زواج يعقد بين فريقين متساويين بالمقام ، حتى لو كانا من قبيلتين مختلفتين ، حلالاً بالنسبة لآل مرّة على الرغم من أنهم يفضلون أن يتزوج الرجل من إحدى قريباته .

أما السبب الرئيسي وراء تفضيل آل مرّة الزواج من أشخاص يمتون إليهم بصلة القرابة الوثيقة فيعود إلى أن مثل تلك الزيجات عادة ما تكون ناجحة ولا تؤدي إلى الطلاق . وكما يقولون فإن العروس تشعر بسعادة أكبر عندما تتزوج ضمن الأسرة التي تعرفها ، وهكذا فإنها تبقى بالقرب من أهلها عند الارتحال

وأثناء المخيم الصيفي . أما المرأة التي تتزوج رجلاً من فخذ ، أو عشيرة ، أو قبيلة أخرى فسوف تشتاق إلى أهلها الذين لا يستطيعون تأمين حمايتها بسبب بعدهم عنها . لكن مثل تلك المشاكل لا توجد بين الأسر من الأفخاذ المختلفة ، والتي اعتادت على التزاوج فيما بينها ، على الرغم من ابتعادها عن بعضها لفترات طويلة أثناء الرعي والمخيمات الصيفية . والنتيجة الأساسية للتزاوج بين الأقرباء فتكون في عدم حصول أية مشاكل بين المرأة وأهل زوجها ، لأن والدة العريس قد تكون خالتها(شقيقة أمها) التي تربطها بها علاقات وثيقة وودية .

على الرغم من أننا لا نستطيع الدخول في مناقشات واسعة حول مضامين الممارسات الخاصة بالزواج لدى آل مرّة لكي نفهم الأنظمة الشرق أوسطية المتبعة في عملية الزواج ، إلاّ أنه بإمكاننا التركيز على مطلب أساسي لدى آل مرّة ، وهو أن يتم الزواج بين شخصين متساويين بالمقام وليس أن يتزوج المرء بابنة عمه(باستثناء الفتيات اللواتي يسمح لهن بالزواج من أفراد الأسر المالكة) . فإن إصرارهم على عقد الزواج بين شخصين متساويين من الناحية الاجتماعية مرده برأيي إلى أن الاندماج في هذا النوع من المجتمعات يتم من خلال التعاون الاقتصادي الحاصل بين مجموعات مختلفة من الاختصاصيين وليس من خلال الزواج . وسنقوم من خلال الفصل الخامس من هذا الكتاب بشرح كيف تتم عملية انضمام آل مرّة وأفراد القبائل البدوية السعودية الأخرى إلى هذا المخطط على أساس المجتمع الواسع .

على الرغم من أن التحالف لا يشكل السبب الرئيسي الكامن وراء عقد الزواج لدى آل مرّة ، إلاّ أنه يسهم في عملية التعاون بين مختلف البيوت ، فروابط الزواج تطغى على روابط السلالة . ويقال لدى آل مرّة إنه يجب على الرجل محاولة التوسط في الخلافات التي تنشأ بين أقربائه بالدم وأقربائه بالمصاهرة ، وأن يقف إلى جانب أقربائه بالمصاهرة ، على الرغم من أنه في حال حصول قتال بينهما يجب على الرجل القتال إلى جانب أقربائه بالدم . ومن الملاحظ أن أوثق العلاقات وأكثرها ودية ، وعلى مدى الأجيال ، تكون بين

الشباب وأخوالهم وخالاتهم (أشقاء وشقيقات والدتهم) الذين وفقاً لآل مرّة لا يعتبرون أقرباء بالدم بل أقرباء بالمصاهرة .

وكما رأينا في الفصل الثاني فإن الزواج يؤثر على هيكلية المخيمات خلال الترحال الموسمي ، حيث يسعى الأقرباء بالمصاهرة للتواجد في المخيم نفسه .

فيما يختص بالمفاوضات حول عقد الزواج فلا تتم من قبل أحد العريسين ، وفي معظم الحالات حيث يتم الزواج بين أبناء العم باتخاذ القرار بشأنهما منذ صغرهما من قبل والد كل منهما . عندما تكتمل لحية الشاب ما بين سن ١٨ ـ ٢٠ سنة ، وتكون الفتاة قد بلغت سن ١٨ ، ويقوم والد الشاب بالتحدث إلى أخيه ويتم تحديد موعد الزفاف . لكن في حال عدم وجود ابنة عم يقوم والد الشاب (أو أحد أشقائه الأكبر سناً) بالبحث عمن توجد لديه الفتاة المناسبة .

يبدأ البحث في البداية ضمن الأسر التي تربط أسرته بها علاقات زواج ، وفي حالة عدم توفر أية فتاة لديها أو لدى الأسر من سلالات أخرى يصار إلى تأخير زواج الشاب إلى حين إيجاد الفتاة المناسبة ضمن مجموعتهم . ومن المستحيل أن يفكر الشاب الطلب من أسرته التحدث عن فتاة كان قد تعرف عليها في مكان ما ، إذ مثل تلك الأمور لا يمكن لها أن تحدث .

تتم المفاوضات حول عقد الزواج بلا أية ضجة لكنها قد تستمر لفترة سنة أو سنتين . في البداية يقوم والد الشاب بالتلميح فقط أمام والد الفتاة ، ثم يتحدث بالأمر مع زوجته ، فإذا اتفقا يمكن البدء بالاستعدادات . يتفق الوالدان على المهر الذي يجب أن يدفع لأسرة الفتاة ، والذي عادة ما يكون رمزياً بين أبناء العم . أما إذا كان الزواج من خارج أبناء العم فذلك يتطلب تحويل مبلغ ١٠٠٠ ريال سعودي (١٩٦٨-١٩٧٠) إلى أسرة العروس ، ويتم استخدام مجمل هذا المبلغ لشراء اللوازم المنزلية التي ستأخذها العروس معها إلى منزل زوجها .

بعد أن يتم الاتفاق على الزواج ودفع المهر يتوجه وكيل العروس ، وعادة ما يكون شقيقها ، برفقة العريس إلى مقر شيخ الدين في المدينة حيث يعلنان عن رغبتهما في عقد الزواج . فيستفسر شيخ الدين عن صلة القرابة بينهما وعن

موافقة العروس، وفي حال استيفاء الشروط يمنحهما موافقته ويسجل عقد الزواج.

بعد فترة من الوقت تقام الاحتفالات في بيت العروس، حيث يجلس جميع أقرباء العريس والعروس من الذكور على السجاد في أقصى القسم الشرقي من البيت لشرب الشاي والقهوة، والتلذذ بلحم الجمل الذي تمّ ذبحه بالمناسبة، بينما تتجمع النساء في القسم المخصص لهن للاحتفال على طريقتهن. يقوم بعض الرجال بالرقص وإطلاق الأعيرة النارية في الهواء، لكن هذا لا يحدث غالباً لدى آل مرّة على الرغم من أنهم يستمتعون بذلك. أثناء الاحتفال يغادر العريس قسم الرجال ويتوجه إلى مكان محدد ضمن قسم النساء تمّ إعداده خصيصاً لليلة العرس، ويدخل على عروسه.

ويشترط أن تكون العروس عذراء، مع العلم أن آل مرّة لا يصرون على رؤية الملاءة الملطخة بالدم كدليل على هذه العذرية، كما هو حاصل في بعض المجتمعات الشرق أوسطية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. وعندما أخبرت آل مرّة عن تلك العادات وصفوها بالبربرية. وبعد أيام قليلة تنتقل العروس إلى بيت زوجها وتمكث هناك حتى موعد وضع طفلها الأول (الأمر الذي يحصل ضمن السنة الأولى التي تلي الزواج)، بعدها تعود إلى بيت أهلها لتضع طفلها تحت إشراف والدتها.

وتأتي احتفالات الزواج لدى آل مرّة على عكس الاحتفالات التي تجري لدى العديد من الحضر أو باقي الرعاة من البدو، حيث يتجمع عدد كبير من الأشخاص. فتلك الأعراس تشهد المرح الصاخب، والمباريات الشعرية، وقرع الطبول والرقص، بينما لدى آل مرّة فتقتصر على عدد ضئيل من الأقارب وضيف أو ضيفين. ويتم العرس والمفاوضات التي تسبقه بشكل عادي. وغياب الاحتفالات الصاخبة لا يعني عدم الاهتمام بالزواج، إنما عدم وجود قوة دافعة لإقامتها من قبل أولئك الأقرباء الذين اعتادوا على العزلة في الصحراء العربية.

وعلى الرغم من نمو الروابط الوثيقة بين الزوج وزوجته، إلاّ أنها لا تظهر على

العلن أبدا إلاّ لدى كبار السن ، وذلك ضمن حدود بيتهم . فالبرودة واللامبالاة اللتان تميزان تحية الزوج لزوجته بعد غياب طويل تقابلهما الحرارة والاهتمام اللذان يظهرهما لوالدته وعماته وخالاته وشقيقاته . وعلى الرغم من أن آل مرّة يقرون بوجود الحب المتأصل داخل كل رجل وامرأة ، إلاّ أن الزواج اللائق كما يقولون لا يتم على أساس الحب ، فإذا علم والد الفتاة أنها مغرمة بشخص ما فلن يسمح لها أبدا بالزواج منه خوفاً على سمعتها .

كما أنهم لا يعزون الطلاق إلى عدم التوافق بين الزوجين ، فالمشاكل الرئيسية التي تؤدي إلى الطلاق ، ولا سيما تلك التي تنشأ بين الزوجة ووالدة زوجها ، وبين أهل العروس وأهل العريس ، تنجم عن العيش في بيت واحد . وفي القليل من الحالات يطلق الرجل زوجته الأولى للزواج من امرأة شابة ، على الرغم من أن آل مرّة يعتبرون أن هذا الأمر غير مستحب .

إلاّ أن نسبة الطلاق مرتفعة بعض الشيء ، هناك أربعة من بين تسعة من رجال آل كربي الكبار الذين عشت معهم طلقوا زوجاتهم مرة واحدة ، وثلاثة منهم طلقوا ثلاث مرات ، كما نجد ثمانية رجال من الجيل المتوسط الذين طلقوا زوجاتهم . بشكل عام من بين السبعة عشر رجلاً متزوجاً هناك ٣٥٪ منهم من طلق زوجته مرة واحدة على الأقل .

ويعتبر الطلاق حكراً على الرجال فقط ، حيث يتنازل الرجل عن المهر الذي دفعه لأسرة العروس ، وتعود المرأة إلى بيت أهلها وتأخذ معها المهر والأشياء الثمينة الخاصة بها التي حصلت عليها خلال فترة الزواج . وكما في الزواج ، فإن الطلاق يتطلب مفاوضات طويلة قد تدوم عدة أشهر أو سنوات قبل التوصل إلى حل نهائي . ويجب على الرجل أن يطلق زوجته أمام الشهود ثلاث مرات قبل أن يصبح الزواج لاغياً .

في البداية يطلق الرجل زوجته مرة واحدة ، تغادر بعدها إلى بيت أهلها ، وبعد عدة أشهر من الانفصال تتم المصالحة بينهما أحياناً ، ويقدم الرجل للمرأة هدية قيمة مصنوعة من الذهب وتعود إلى بيته . وقد يحصل طلاق ثانٍ وتتبعه

مصالحة ولو بعد عدة سنوات من الانفصال ، أما الطلاق الثالث فيكون نهائياً تصبح المرأة بعده حرة ويمكنها أن تتزوج ثانية من شخص آخر . كما يمكن التفوه بالطلاق ثلاث مرات متتالية ، لكن هذا الأمر يتطلب مفاوضات أسرية طويلة قبل حدوثه .

لا يحق للمرأة أن تبدأ بإجراءات الطلاق أو الطلب من زوجها استرداد حريتها ، لكنه يحق لها أن تتركه في أي وقت والعودة إلى أسرتها ، ولا يمكن للزوج إرغامها على العودة لكنه يستطيع رفض الطلاق ، مما يحرمها من حرية الزواج مجدداً . وعادة ما يكون إصرار الزوجة عائدا إلى شعورها بالتعاسة في البيت أكثر منه وجود خلافات بين الأسرتين .

نماذج التفاعل

تتأثر نماذج التفاعل ضمن البيت الواحد وضمن القبيلة باعتبارات عدة منها : السن ، والجنس ، والعلاقة الأسرية . يوجد هناك فاصل كبير بين الذكور والنساء لدى الحضر من السعوديين وبشكل أقل لدى آل مرّة ، إذ إنه من المفترض أن يقوم كل منهما بالمهام الموكلة إليه بعيداً عن بعضهما البعض ، كما أن لكل منهما نظرة مختلفة في الحياة . لكن النساء لدى آل مرّة يتمتعن بحرية العيش ، على عكس النساء في المدن والقرى العربية ، كما يستطعن التنقل مع القطعان والقيام بالأعمال المنزلية والذهاب إلى المدن للتسوق .

عند وصول بعض الضيوف من الذكور إلى البيت تقلص المرأة من تحركاتها خارج قسم الخيمة المخصص لها وفقاً لدرجة قرابتها بالضيوف ، ومدة زيارتهم ، وحاجتها الملحة للخروج من الخيمة . وفي حال عدم وجود زوار تقضي النساء ، ولا سيما الكبار بالسن منهن ، معظم أوقاتهن في القسم المخصص للرجال في المساء للمشاركة في الأحاديث ، بينما تظل الشابات منهن بعيدات عن القسم على الرغم من أنهن قد يستخدمنه في بعض الأحيان بغياب الرجال ،

فيتجمعن حول النار ويستمعن (ويشاركن قليلاً) في الأحاديث التي تدوم حتى منتصف الليل . .

أما كيف تؤثر العلاقات على عملية التفاعل بين الأفراد فيبدو ظاهراً بوضوح من خلال الطقوس المتبعة في نمط التحية بين مختلف أنواع الأشخاص . فالزائرون الذكور من آل مرّة يقتربون من القسم المخصص للرجال ضمن البيت ، ويلقون التحية على الرجال المتواجدين فيها واحداً تلو الآخر ، وإذا كانوا من الشباب ، حتى سن الثلاثين ، أو إذا كانوا ينتمون إلى أفخاذ أخرى يلمس كل واحد منهم بأنفه أنف الرجل الآخر مرتين أو ثلاث مرات متتالية . عند تحية الرجال الكبار بالسن يقوم الأصغر منهم سناً والذي ينتمي إلى الفخذ نفسها بتقبيل أنفه ، بينما يكتفي الآخرون من أفخاذ أخرى بتقبيل أنفه أو لمسه بأنفهم .

بعد أن ينتهوا من تحية الرجال ، يقوم الزوار بتحية نساء البيت . إذا كانوا من أفخاذ أخرى أو إذا كانت لا توجد بينهم أية روابط مصاهرة ، فهم يكتفون بالتحية الشفهية عبر الرواق ولا يدخلون القسم المخصص للنساء لرؤيتهن . أما إذا كانوا من الفخذ نفسها ، بإمكانهم دخول قسم النساء وتحيتهن باشرة . وإذا كانوا ينتمون إلى فخذ فرعي صغير يتم السلام بواسطة الأيدي ، أما إذا كانوا ينتمون إلى فخذ متفرع عن فخذهم فيحق لهم رفع غشاء المرأة وتقبيلها على الخدين وفقاً لسنها أو لوضعها الاجتماعي .

أما إذا كان الزوار من خارج قبيلة آل مرّة ، فإنهم يكتفون بالسلام بالأيدي مع باقي الرجال ولا يلقون أية تحية على المرأة . أما إذا كانت المرأة تعرف الزوار فبإمكانها تحيتهم شفهياً من القسم المخصص لها . أما النساء اللواتي يرافقن الرجال فيتوجهن مباشرة إلى القسم المخصص للنساء من وراء البيت ، أما إذا كانوا من نساء آل مرّة يتوجه رجال البيت صوبهن لبعض البيت لتحيتهن .

وتظهر تلك الطرق المختلفة في التحية مدى الاختلافات الموجودة في نماذج التفاعل العامة . إن أعمق العلاقات الودية وغير الرسمية تكون بين الصبية

الشباب من الفخذ نفسها ، فكلما التقوا ببعضهم خارج أوقات الرعي راحوا يتصارعون ، ويتبارون في الجري ، والتحدث لأوقات طويلة والمزاح مع بعضهم البعض . لكن عندما يكبرون يصبحون جديين ، ويتعاملون مع بعضهم بشكل رسمي ، على الرغم من أن كل مرّي تحت سن الخمسين هو دائماً على استعداد لخوض سباقات في الجري أو المصارعة مع صديقه والمزاح معه . وتتم معاملة كبار السن والرجال من الأفخاذ الأخرى بكل احترام ، بينما يعامل الأفراد الآخرون من القبائل بكل تحفظ إلاّ إذا كانت معرفتهم وثيقة بهم .

من المفترض أن يعامل رجال آل مرّة نساء آل مرّة بكل احترام واعتبار ، ويتصرفون بتحفظ في المناسبات الرسمية ، أما الشباب منهم فهم يلهون ويمزحون عندما يكونون بمفردهم أو برفقة أقربائهم ، كما أن هناك نوعاً من الغزل يدور بين الشباب والشابات لكن بغياب والدة الفتاة أو أشقائها .

أما بالنسبة للملابس فهي دائماً محتشمة بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء . فبعد سن البلوغ تلبس نساء آل مرّة نوعاً من القناع الأسود يغطي كامل الوجه له فتحتان للعينين ، أما أجسامهن فتغطيها الفساتين الطويلة ذات الأكمام الطويلة ، كما يرتدين سروالاً تحت الفستان يغطي أقدامهن بالكامل . ويتم كذلك تغطية الشعر الطويل الذي يفرق عادة في الوسط ويجدل على الجهتين بواسطة غطاء للرأس أسود اللون . وتستخدم النساء ، ولا سيما الشابات منهن ، الكحل الأسود للعين ويصبغن كفوف الأيدي بالحناء ، ويضعن عدداً من الخواتم الذهبية أو الفضية ذات الأحجار شبه الكريمة في أصابعهن ، أو في حلقة تشبك في غطاء الرأس . فالمرأة تتزين لكي تبدو أكثر جمالاً فقط وليس من أجل الإغراء .

وكذلك هي الحال مع الرجال أيضاً فهم يغطون أجسامهم ورؤوسهم بالكامل ولا يتعرون أبداً إلاّ عند الاستحمام في الحمامات العامة التابعة لثكنات شركة النفط ، أما عندما يستحمون قرب الآبار فهم يحتفظون بملابسهم الداخلية حتى بوجود الرجال فقط . والرجل لا يغطي وجهه إنما يلف غترته بشكل يغطي وجهه

لحمايته من الشمس الحارقة أو البرد القارس ، كما أنه لا يلبس أي حلي على الإطلاق سوى ختم على شكل خاتم يضعه في إصبعه الصغير أحياناً ، وقد يستخدم الكحل حول العين لأسباب طبية .

ولجميع رجال آل مرّة لحية وشعر طويل يصل حتى الكتفين ويفرق في الوسط ، ويقال إن الشعر الطويل هو من علامات الرجولة ينفع لاجتذاب المرأة . ويلف كل واحد منهم خصره بحزام يمني يضع فيه ذخيرة البندقية وخنجراً عمانياً مصنوعاً من الفضة للزينة فقط وليس للدفاع عن النفس ، ويتعطر بالبخور والعطور القوية .

أما بالنسبة للحديث عن الحياة الجنسية فلا يتم أبداً بصورة علنية ، وهو نشاط يجب على حد قولهم أن يتمتع به الرجال والنساء على حد سواء ، ولم تتح لي الفرصة أبداً لكي أتحدث مع أي من النساء للوقوف على رأيها في هذا الموضوع ، لكن الرجال كانوا دائماً يؤكدون لي أنه من الطبيعي أن تستمتع المرأة بالعلاقات الجنسية ، لكنه من غير اللائق أن تعبر عن متعتها .

ولا يقيم الرجل أية علاقات جنسية قبل الزواج ، أما بالنسبة للمرأة فهو أمر غير وارد على الإطلاق ، ونادراً ما يناقش الرجال مثل تلك الأمور فيما بينهم إلاّ عندما يسألني أحدهم عن الحياة الجنسية لدى الشعب الأمريكي .

قد تحدث للرجال بعض المغامرات العاطفية ، كما أخبرني أصدقائي الشباب وهم يضحكون عن مغامراتهم مع امرأة عجوز ومطلقة ، ومع بعض بنات الهوى الذين التقوا بهن عند بدو العراق أثناء ترحالهم في فصل الشتاء . قد يتحدث الرجال في بعض الأحيان عن مسألة اللواط ويمزحون بشأنها ، لكن ما من أحد حسب علمي يمارسها حتى لدى بدو آل عازب الذين يعيشون في عزلة تامة في عمق الصحراء . أما الشباب الذين يعملون في مخيمات التنقيب عن النفط ، أو الذين عاشوا في المناطق الحضرية فهم يدركون تماماً معناها لكنهم لا يمارسونها أبداً .

وتعتبر العلاقات الجنسية من أهم ملذات الزواج ، وهي عادة ما تتم خلال

من دون إحداث أية ضجة ، بسبب افتقار الزوجين للمكان المناسب . الليل وفيما عدا الوقت الذي يمضيه الرجل مع زوجته خلال الليل ، فهما لا يقضيان أي وقت آخر سوياً ، فكل منهما يأكل بمفرده ، ولا يشاركان بعضهما إلا في مهام قليلة .

هناك تقسيم واضح للعمل وفقاً للجنس ، لكن الجنسين قد يقومان بالمهام نفسها لكن في ظروف مختلفة . على سبيل المثال تقوم المرأة بإعداد الطعام عندما يكون الرجل في بيته في الخيمة البدوية ، لكن أثناء الترحال فإن الرجل هو الذي يعد طعامه على الرغم من مرافقة زوجته له . ومن مهام المرأة تفكيك بيت الشعر ، وتوضيبه ، ونقل الأدوات المنزلية ، بما في ذلك تحميل الثقيل منه ، بينما لا يهتم الرجل إلاّ برعي الإبل وسقيها وحلبها ، مع العلم أن المرأة قد تقوم أيضاً بأي من هذه المهام . قد لا يعرف الرجل الحياكة لكنه يستطيع أن يصنع الجوارب والقفازات لاستعماله الشخصي ، وكذلك الكيس المصنوع من الصوف الذي يربط حول ضرع الناقة .

والمرأة لا تقود السيارة وكذلك هو الحال مع العديد من الرجال ، لكنهم يذهبون جميعاً إلى الأسواق لشراء وبيع المنتجات ، بينما يذهب الرجل إلى الصيد بمفرده ، وهو من يقوم بذبح الحيوانات بمناسبة الاحتفالات وسلخ جلدها ، وتقديم الطعام للضيوف . والمرأة فقط تساعد المرأة الأخرى عند الوضع . على الرغم من عملية توزيع المهام وفقاً للجنس ، إلاّ أننا نجد تعاوناً كبيراً بين الرجل والمرأة في حال إذا ما حدث نقص في اليد العاملة ، فكلاهما يتحمل أعباء ثقيلة ، ويعمل طيلة النهار .

وعلى الرغم من هذا الفاصل الموجود بين الجنسين ، إلاّ أننا نجد روابط قوية بينهما . فالرجل والمرأة على حد سواء يعتبران أنفسهما أفراداً من القبيلة ، والقبيلة ، والفخذ وهما فخوران بانتمائهما . وتهتم المرأة بالطهارة أكثر من الرجل ، كما توبخه دائماً على اتصاله بالغرباء والأشخاص الذين تعتبرهم لا ينتمون إلى العرب الأصيلين .

يكن الرجل لأمه وشقيقاته كل احترام ومودة ، على الرغم من تجاهله لزوجته في معظم الأحيان . فالابن يعبر عن اهتمامه بوالدته ، وشقيقاتها وأشقائها ويبذل جهداً خاصاً لزيارتهم في حالة إذا كانوا بعيدين عنه ، كما أنه يرعى والدته عند طلاقها . وعلى الرغم من تردد الزوج في التعبير عن حبه لزوجته ، لكنه توجد هناك روابط متينة وحميمة بينهما تسمح لهما بالعيش بسعادة سوياً لسنين طويلة .

إنه لمن الصعب للغاية تحديد نماذج التفاعل ضمن البيت الواحد وتقييم الاختلافات الموجودة بين الجنسين ، بسبب الفارق الدقيق في المشاعر المتعلقة بالعلاقات الشخصية . على الرغم من الصداقة العميقة التي نشأت بيني وبين آل مرّة وبسبب كوني رجلا ، فلم يسمح لي أبداً بالتعرف على أي من نساء آل مرّة ، وكل ما ذكرته عن المرأة لديهم هو ما استطعت تكوينه كفكرة عنها من خلال أحاديث الرجال عنها .

والتفريق بين الجنسين يؤدي عادة إلى عدم المساواة ، وهذا التفريق يبدأ باكراً لدى آل مرّة ، لكنه لا يكون تاماً كما هو الحال لدى الحضر بسبب متطلبات حياة الترحال التي يعيشونها . فالصبي عند بلوغه سن الثالثة يسمح له بقضاء معظم أوقات النهار في القسم المخصص للرجال ، حيث يلقن صرخات الحرب ويعطى سكيناً صغيراً يحمله وكأنه خنجر . وقد تمضي البنت من السن نفسها بعض الوقت بين الرجال ، لكنها عندما تكبر فإنها تمضي أوقاتها بين النساء . عندما يكبر الولد ، يقوم الرجال بإطلاعه على شجرة الأسرة ، وتعليمه طريقة إعداد القهوة وتقديم الضيافة . وعندما يبلغ سن الخامسة يبدأ بالمشاركة في عملية الرعي ، ويساعد فيها بشكل فعال عند بلوغه سن السابعة أو الثامنة . بينما تتوقف الفتاة عن زيارة قسم الرجال عند بلوغها سن الخامسة ، وتبقى في قسم النساء طيلة الوقت .

ما من أحد يشك أن المرأة تحتل المركز الثاني في العديد من المواقف . فالرجل يأكل ويشرب القهوة قبل المرأة ، على الرغم من أن الرجل قد يرفض

تناول فنجان القهوة قبل والدته . كما أن الرجل يعيش أنواعاً مختلفة من الحياة خارج البيت ، وتتاح له الفرص العديدة للتعرف على أشخاص جدد أكثر منه من المرأة . لكنه لا يمكننا أن نصف علاقتهم على أنها استقلال أو عدم مساواة بسبب الرعي والترحال ، اللذين يتطلبان تنسيقاً بين البيت وأنشطة الرعي ، ويعتمدان على التعاون الفعال بين جميع أفراد البيت سواء كان ذكراً ، أو أنثى ، أو شاباً أو عجوزاً .

وفي النهاية فإن إيديولوجية القرابة في نظام آل مرّة تركز على الوحدة بين جميع أفراد القبيلة . فالانتماء للقبيلة يتم من خلال كون الوالد أحد أعضائها ، وكون الأم من نساء آل مرّة ، اللواتي يعتبرن من صلب القبيلة ويحترمن على هذا الأساس . وبما أن الزواج يتم دائماً من ضمن القبيلة فنادراً ما نجد دخلاء عليها ، وعلى الرغم من أن الطلاق ينتج عن الخلاف بين الزوجة ووالدة زوجها ، إلاّ أنه نادراً ما ينتج عن الخلاف الذي يقع بين الزوج والزوجة . وبالإضافة إلى الخلافات التي تحصل بين الزوجة ووالدة الزوجة ، هناك خلافات تقع بين مختلف الأجيال لدى آل مرّة ، كما أن الاحترام يميز العلاقات بين الشباب والكبار في السن ، وكلاهما يهتم بالإبل وبالأحداث الاجتماعية والسياسية التي تحصل في القبيلة على جميع المستويات .

قد يغير بعض الشباب أفكارهم التقليدية عندما يتنقلون للعمل في المدن مما يتسبب بوقوع الاختلافات . وما زالت الوحدة القبلية والاهتمام المشترك بالرعي يساعدان على تخطي معظم الاختلافات التي قد تنشأ بين الشباب والكبار في السن وبين الرجال والنساء .

الفصل الرابع

التقسيمات القبلية: الفخذ، القبيلة، القبائل

التقسيمات القبلية: الفخذ، القبيلة، القبائل

يخضع نمط الترحال في الصحاري العربية للتقلبات الموسمية ونسبة هطول الأمطار. فالوضع في الصحراء يتطلب الحركة الدائمة ، وقدرة كل بيت على الانتقال بمفرده خلال بعض الفصول والتجمع في دار واحدة خلال فصول أخرى. كما يجب تنظيم الوصول إلى المراعي ونقاط المياه . أما نظام الهيكل الاجتماعي الذي ينطبق على تلك المتطلبات فهو ما يسميه علم الإنسان عادة بتقسيم نظام الفخذ ، وهذا ما هو شائع بين البدو من الرعاة في المناطق الصحراوية في الشرق الأوسط . فضمن هذا النظام تجتمع البيوت وفقاً لمبادئ القرابة من جهة الأب لتشكيل مقاطع تضم الأقارب . ونجد لدى آل مرّة الأفخاذ التي تضم جميع الأشخاص المنحدرين من جد واحد منذ خمسة أجيال تقريباً ، أي ما يقارب الخمسين بيتاً في كل منها . أما القبيلة فتضم من أربع إلى ست أفخاذ ، وتتشكل قبيلة آل مرّة من سبع عشائر .

ويشمل النظام المجموعات الموجودة والمجموعات التي هي في طور الإنشاء . فكل فرد سواء كان رجلاً أو امرأة ينتمي إلى عدة مجموعات مختلفة : بيت ، وفخذ ، وقبيلة ، وقبائل ويحمل اسم جده الذي يضم عدداً متزايداً من الأفراد ، ولا يمكننا التركيز فقط على تشكيل ودور كل مستوى من المجموعات ، علينا التركيز أيضاً على عملية التقطيع بحد ذاتها ، التي لا تتيح فقط للمجموعات بإقامة علاقات فيما بينها بل تسمح للأشخاص أيضاً بادعاء صلات القرابة فيما بينهم ، حتى عندما يكونون بعيدين عنها من ناحية النسب . والشيء المميز بهذا النظام هو مرونته ، فهناك المجموعات التي تحمل أسماء والتي ينتمي إليها الأشخاص ، لكن الترحال يؤدي إلى تعاطي هؤلاء الأشخاص مع مجموعات أخرى ، مما يضطرهم لإيجاد بعض صلات القرابة معهم ، والاختلاط بين المجموعات يختلف من موسم إلى آخر ، وقلما نجد الأشخاص أنفسهم في المجموعات نفسها في الموسم القادم .

قبل توفير الأمثلة الواقعية حول طريقة عمل هذا النظام ضمن المواقف الحياتية اليومية ، يجب التطرق إلى المصطلحات المستخدمة في عملية وصف صلة القرابة الموجودة بين شخص وآخر ضمن نظام آل مرّة ، لأن ذلك يعكس مفهوم القرابة لديهم ويشكل جزءاً لا يتجزأ من علاقتهم بالأشخاص. ويستخدم آل مرّة نوعين من المصطلحات ، أحدهما يصف بدقة الشخص المحدد ، حيث يتم استعمال عبارات مختلفة للإشارة إلى الأب ، والأم ، والشقيق ، والشقيقة ، وشقيق الأب ، وشقيق الأم ، وشقيقة الأب ، وشقيقة الأم ، وأولاد وبنات شقيق /شقيقة الأب ، وأولاد وبنات شقيق/شقيقة الأم ، الجد والجدة . ويسمح هذا النظام بتحديد صلة القرابة بهذا الشخص بدقة .

أما النظام الثاني فهو أشمل إذ يتيح للشخص تصنيف عدد أكبر من الأشخاص في خانة الأقرباء ، حتى في حال عدم وجود أية صلة من هذا النوع ، حيث تتم الإشارة إلى أفراد الجيل الواحد بالإخوة والأخوات ، وجميع أفراد جيل الأب والأم بالأب والأم ، وجميع أفراد الجيل الواحد من الأطفال بالأبناء والبنات ، ويشمل تعبير الجد أو الجدة جميع الأجداد مهما كانت العلاقة بهم بعيدة . . لذا فإن مصطلح شقيق الأب (أو أولاد وبنات شقيق الأب) يشير فقط إلى شقيق الأب المباشر ، وليس إلى أي شخص آخر كان جده شقيق أحد أجداد الشخص الآخر فيما مضى .

أثناء تنقلي في الصحراء مع الكربي كنا كلما شاهدنا راعياً برفقة قطيع من الإبل توقفنا لتحيته ، وكان باستطاعة الكربي من خلال النظر إلى العلامة الموجودة على الإبل تحديد ما إذا كانت تخص آل مرّة أو أية سلالة أخرى ، ومن خلال استماعه إلى كلام الراعي تحديد القبيلة التي ينتمي إليها ، مستخدماً تسمية ابن عمي على الرغم أنه لم يره من قبل .

فاكتشاف أنه من آل مرّة يعني أنه فرد من الأسرة وأخ عزيز ، ومعرفة الفخذ التي ينتمي إليها تعني معرفة كل شيء عنه : أين يمضي فصل الصيف ، من هم أقرباؤه ، وبماذا اشتهر أجداده ، وبأية مشاكل سياسية هو متورط في حال

وجودها. وعندما يرى أحد أفراد آل مرّة شخصاً لا يعرفه فهو يسأل: «ما هذا؟» بدلاً من «من هذا؟». فالتعرف على المجموعة التي ينتمي إليها الشخص يعني تحديد مكانته الاجتماعية، والسياسية والمكانية ضمن المنطقة العربية. وإذا كان الغريب ينتمي إلى القبيلة نفسها يتم التعامل معه على أنه فرد من الأسرة مهما كان الفارق في السن الذي يفصل بينهم.

لكن هذه الشمولية تنطبق ضمن ظروف أخرى على الحضر من العرب ولكنها لا تصل أبداً إلى المستوى الذي تصل إليه لدى البدو. في يوم من الأيام سافرت إلى الرياض برفقة رجل عجوز من آل مرّة حيث قمنا بزيارة أحد أمراء آل سعود. وكان برفقة الرجل العجوز صبي في سن المراهقة. عندما سأله الأمير عن الصبي أجاب العجوز إنه أخيه. فاحتج الأمير بسبب فارق السن الكبير بينهما، فأجاب العجوز إن الصبي هو ابن شقيق والده، فرفض الأمير تصديقه. وأخيراً أقر العجوز أن الصبي هو فرد من أفراد القبيلة لا ينتمي إلى فخذه أو عشيرته. إن ما كان يهم الصبي والعجوز في هذه الحال هو انتماؤهما إلى القبيلة نفسها مما يجعل منهما إخوة.

يتم تحديد النسب بالنسبة للرجل والمرأة على حد سواء من خلال الأب، فهذا الرجل هو ابن فلان، ابن فلان، ابن فلان حتى النهاية، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة فهي بنت فلان، ابن فلان، ابن فلان. ويعطي آل مرّة أهمية كبيرة لدور المرأة في عملية الإنجاب، فالأطفال من الأم نفسها - وليس بالضرورة من الأب نفسه - يعرفون بعيال البطن، كما تعتبر صلة القرابة بالرضاعة بدرجة صلة القرابة بالدم نفسها. لا يهتم بالأنساب الذين تربطهم ببعض صلة قرابة من خلال الأم فقط سوى الأشخاص ذوي العلاقة، والمجموعات التي يشكلونها لا تتمتع بأية أهمية ضمن الهيكلية القبلية بشكل عام. دعونا الآن ننظر عن كثب إلى المجموعة المنحدرة من الأب- الفخذ، والقبيلة، والقبائل- والتي توفر إطار العمل التنظيمي للحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لدى آل مرّة.

الفخذ

تضم الفخذ جميع الأشخاص المنحدرين من جد واحد على مدى خمسة أجيال بالإضافة إلى الجيل الحالي من الراشدين، وتتضمن معظم الأفخاذ لدى آل مرّة حوالي ٥٠ بيتاً، وقد يكون العدد أكثر أو أقل، وعن سبب تسميته بالفخذ، فلأن ذلك يشير إلى الوحدات التي تقف عليها القبيلة بأكملها. وتأتي تسمية الفخذ على عكس تسمية العينين التي تشير إلى قادة القبائل الذين يفترض فيهم رعاية مصالح القبيلة.

وتسمية الفخذ التي تعني أيضاً المجموعة التي تقف سوياً فقد أخذت من اللغة العسكرية. فيما مضى وإبان الحروب القبلية التي كانت تحدث قبل عملية توحيد السعودية التي قادها ابن سعود، كان الفخذ يقاتل سوياً بقيادة العقيد، وهو رجل يتم اختياره من ضمن أفراد الفخذ، بسبب مهاراته القتالية وشجاعته في المعارك. وعلى الرغم من أن الحروب القبلية باتت ذكرى من الماضي، إلاّ أن الفخذ ما زالت تشكل الوحدة الأساسية ضمن الأنشطة العسكرية التي يقوم بها العديد من آل مرّة.

لقد تمّ دمج معظم القبائل السعودية ضمن الحرس الوطني، لكن التقسيم الفرعي في الوحدات، والذي يضم عدداً كبيراً من أفراد آل مرّة ما زال يجري وفقاً للفخذ. فقبل توحيد المملكة العربية السعودية وإنشاء دولة مركزية، وبناء التنظيم العسكري الوطني، كان الفخذ يعتبر قبل كل شيء وحدة دفاع، حيث يقوم جميع الأشخاص المنحدرين من جد واحد بالقتال جنباً إلى جنب للدفاع عن أنفسهم، ومواردهم ضد هجمات القبائل الأخرى.

ولكل فخذ صرخة الحرب الخاصة بها، وهي عادة ما تتضمن اسم جمل شهير، واسم الشقيقة التي يقاتل من أجلها، ويتحمل جميع أفراد الفخذ مسئولية الدم بشكل متساو، بمعنى آخر إذا قام أحد أفراد الفخذ بقتل رجل من مجموعة أخرى يتحمل جميع الأفراد مسئولية عمله، وقد يتعرض أي من ذكور

المجموعة للقتل كجزاء لذلك ، أو يساهم جميع الأفراد بالتساوي في دفع الدية كتعويض للمجموعة الثانية . أما إذا تعرض أحد أفراد الفخذ للقتل تهب المجموعة بأكملها طلباً للثأر .

على الرغم من أن آل مرّة يتحدثون عن الفخذ مستخدمين الألفاظ العسكرية ، إلاّ أنه لا يرتبط بالأنشطة العسكرية فقط ، وقد تحدثنا عن طريقة عمله كوحدة اقتصادية في الفصل الثاني ضمن ممارسات الرعي . تعود ملكية الآبار التي تشكل المورد الحياتي الرئيسي والأساسي للفخذ ، ونتيجة لذلك يتم تشكيل المخيمات الصيفية وفقاً للأفخاذ ، وفي العديد من الحالات قد ينسب فضل حفر تلك الآبار أو الاستيلاء عليها إلى مؤسسي الأفخاذ . أما اليوم وعندما يتم إعادة حفر بئر ما أو تحديثها فإن جميع أفراد الفخذ يساهمون في العمل إما مباشرة أو من خلال استخدام أشخاص يقومون بالعمل .

والاستخدام الحالي للآبار من قبل أفراد الفخذ يختلف قليلاً من سنة إلى أخرى ، فبشكل عام يتجمع معظم الأفراد قرب آبارهم خلال فصل الصيف ، لكن الظروف قد تحول أحياناً دون تجمعهم حتى خلال فصل الصيف . على سبيل المثال لم يتمكن آل عازب من استخدام بئرهم ، بئر فاضل ، خلال فصلي الصيف من العامين ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، بسبب أشغال التحديث التي كانت تجري هناك ، مما اضطرهم إلى التخييم في أماكن مختلفة قرب ثلاث آبار صغيرة لا تبعد الكثير عن بعضها البعض ، بحيث تجمع أفراد المجموعة الفرعية الواحدة من الفخذ قرب البئر نفسها . وقد تتضمن المخيمات الصيفية أيضاً أفراداً من أفخاذ أخرى يستخدمون الآبار بصفتهم ضيوفاً على المالكين .

بينما يوجد توافق تام ضمن القبيلة حول ملكية معظم الآبار التي تقع ضمن ديرة آل مرّة ، فإن النزاعات لا تتوقف بسبب الآبار الصغيرة التي يتم استخدامها بشكل أقل ، ومعظم تلك النزاعات التي تقع بين آل مرّة حولها تكون بين أفراد الأفخاذ المختلفة . على سبيل المثال النزاع الذي وقع بين فخذ آل عازب وفخذ آل عوير اللتين تنتميان إلى عشيرتين مختلفتين ، وكانت بئر القصب

سبب الخلاف ، تقع في القسم الأوسط الشمالي من الربع الخالي . لم تكن هذه البئر تستخدم منذ زمن طويل فقرر آل عوير حفرها مجدداً وبناء القسم الأعلى منها بواسطة الإسمنت ، ورسموا وسمهم فيه ، فعلم آل عازب بالأمر وأرسلوا وفداً مكوناً من ٦ رجال من كبار السن توجهوا إلى البئر وأعلموا آل عوير أن هذه البئر هي ملك لآل عازب ، وأنه لا يحق لهم استخدامها من دون الحصول على الإذن بذلك من آل عازب ، وطالبوهم بالرحيل وإزالة الوشم الذي رسموه في الإسمنت . فرفض آل عوير الأمر وبدأت المسألة تحتدم بينهم ، فقرروا اللجوء لأمير الإحساء للفصل في قضيتهم .

وقامت كل مجموعة بتوفير عدد من الشهود لتأكيد استخدامها للبئر فيما مضى وإثبات حقها بملكيتها . وقدم آل عازب الدليل على حقهم في الملك ، مبينين استخدامهم لها منذ فصل الصيف الذي سبق معركة استرداد منطقة الإحساء التي قادها عبد العزيز بن سعود ضد الأتراك في عام ١٩١٢ . فقرر الأمير السماح لآل عوير بالبقاء لأنهم قاموا على إعادة تشغيل البئر ، كما أقر بحق آل عازب باستخدامها عندما يرغبون . في هذه الحال تم حل الأمر سلمياً ، لكن النزاعات حول الآبار عادة ما تؤدي إلى العنف .

أثناء المخيمات تظهر الفخذ وكأنها نوع من التنظيم الاجتماعي ، لكنها تلعب دوراً مهماً في عملية تنظيم الترحال خلال الفصول الأخرى . على الرغم من عدم تنقلهم سوياً كمجوعة إلاّ أن معظم أفراد الفخذ الواحد يتوجهون إلى المنطقة نفسها خلال الفصل نفسه . وعندما يقرر بعض البيوت التوجه إلى مناطق أخرى يكون باقي أفراد الفخذ على علم بوجهتهم لتتبع أخبارهم . وكما ذكرنا في الفصلين الثاني والثالث فإن كل بيت يتصرف كوحدة مستقلة ، لكن التوجه العام لدى أفراد الفخذ الواحدة هو في البقاء سوياً كلما كان هذا ممكناً . صحيح أن كل بيت يمتلك قطيعه الخاص ، إنما يتم وشم جميع الحيوانات بالعلامة نفسها وتعتبر جمعيها ملكاً مشتركاً للفخذ . لكن هذا لا يمنع كل بيت من التصرف بالحيوانات التي يملكها بالشكل الذي يريده . ويتمتع كل فخذ

بطريقة خاصة به لمناداة الإبل والتحدث إليها خلال عملية الرعي .

عادة ما يكون أفراد الفخذ الواحد قريبين جداً من بعضهم البعض ويعتبرون أنفسهم شعباً واحداً . وباستثناء البيت الفردي فإن الفخذ هي الوحدة الوحيدة ضمن آل مرّة التي تتجمع بشكل منتظم في مجموعة واحدة . فالقبيلة لا تتجمع أبداً كمجموعة واحدة إلاّ في حال الحرب . أما العشائر فهي نادراً ما تتجمع كوحدة اجتماعية فاعلة . وتبقى الأفخاذ منفصلة عن بعضها مكانياً حتى في واحة جبرين التي تحتلها كل صيف الأفخاذ التابعة لقبيلة آل جابر .

إذن على الرغم من كون الفخذ تشكل الوحدة الأساسية ضمن التنظيم الاجتماعي لدى آل مرّة ، إلاّ أنه يجب أن نتذكر دائماً أن البيت هو وحدة مستقلة ، وأن العلاقة بين البيوت التي تتجمع في فخذ واحدة تكون مبنية على التساوي . ولا يوجد أي قائد للفخذ باستثناء العقيد الذي كان يحتل مركز قائد الفخذ خلال الحروب فقط ، كما لا توجد هناك أية مجالس خاصة بالفخذ ، إذ يتم اتخاذ جميع القرارات بالتوافق .

على الرغم من أن أفراد الفخذ يدعون أنهم جميعهم ينحدرون من الجد نفسه على مدى ٥ أجيال ، فإن صلات القرابة لا تشكل العامل الوحيد الذي يبقيهم سوياً وتشكيل هذه الوحدة الأساسية . فالعوامل البيئية تلعب دوراً هاماً وربما كان حاسماً في عملية تشكيل الوحدة الحالية .

فالحاسة التي تتمتع بها الإبل في العودة دائماً إلى مكانها الأصلي ، وفي غياب أية جهود لإبقائها في أماكن أخرى تؤدي تلقائياً إلى العودة إلى الآبار نفسها كل صيف ، مما يسهم في تجمع جميع أفراد الفخذ حول البئر الخاصة بهم كل صيف . وهكذا فإن المجموعة التي تخيم سنوياً بشكل منتظم تضم جميع أفراد الفخذ الواحدة . أما بالنسبة للغرباء الذين يخيمون قرب بئر تابعة لفخذ أخرى بشكل منتظم ، فإنهم مع مرور الوقت قد يشار إليهم وكأنهم أفراد من هذه الفخذ .

والعكس صحيح أيضاً ، إذا ما اضطر أفراد الفخذ لأي سبب من الأسباب

التفرق عن بعضهم وتوقفوا عن التخييم سوياً خلال فصل الصيف ، فقد يؤدي هذا إلى ظهور مجموعتين جديدتين تتحول كل منهما فيما بعد إلى فخذ منفصلة .

وهناك العديد من الأمثلة المتوفرة حول ضم الغرباء إلى الفخذ في معظم القبائل العربية ، حيث إن التبني يتم بسهولة وبشكل منتظم . فالرغبة في الانضمام إلى مجموعة أخرى تأتي نتيجة للنزاعات التي قد تنشأ بين الفرد ومجموعته ، فيلجأ إلى مجموعة أخرى ، وإذا استمر في العيش معها ، يصبح مع مرور الوقت فرداً منها ، وقد ينتج هذا أيضاً عن الرغبة في الانضمام إلى فخذ تتمتع بالسلطة . أما لدى آل مرّة فإن هذا ينتج عن التزاوج بين الأفخاذ والذي يعكس عادة افتقار الرجل للإبل . فإذا تزوج رجل فقير ينتمي إلى فخذ معينة امرأة ثرية من فخذ آخرى ، يسعى هذا الرجل حتى يصبح فرداً من الفخذ التي تنتمي إليه زوجته ، وتتم معاملته وكأنه ينحدر من الجد نفسه . وقد تعرفت شخصياً على رجل كان يعيش مع آل عازب ويتنقل معهم وكانوا ينادونه بالعزبي ، على الرغم من أنه كان ينتمي رسمياً إلى فخذ آخرى .

ويوفر لنا آل عازب أيضاً مثالاً حول كيفية إتمام عملية الانقسام ضمن الفخذ الواحدة في حال اضطرار أفراده للتواجد في مكانين مختلفين . فمجموعة آل عازب التي عشت معها تضم ٣٥ بيتاً من أصل ٥١ بيتاً . وجميع تلك البيوت تعتني برعاية الإبل ومقرها بئر فاضل في الربع الخالي . أما باقي بيوت آل عازب فقد تحولوا إلى رعي الأغنام والماعز ، ومقرهم قرب الآبار في منطقة الإحساء والتي تبعد مسافة ٤٠٠ ميل عن بئر فاضل . فهاتان المجموعتان لا تلتقيان أبداً عند الرعي ، لأن كل واحدة منهما تدور في فلك مختلف ، كما لا تعرف أية مجموعة منهما أي شيء عن المجموعة الأخرى وتحركاتها ، على الرغم من معرفة كل منهما بجميع تحركات البيوت التابعة لها . وتقيم كل من المجموعتين علاقات مع مجموعات مختلفة ، فرعاة الإبل من آل عازب على سبيل المثال مرتبطون بشكل وثيق بأفراد قبيلة آل جابر المتمركزين على مقربة منهم في

جبرين أكثر منه مع أفراد العشائر الأخرى التي تقرب لهم ، بينما رعاة الأغنام والماعز من آل عازب مرتبطون مع الأفخاذ التابعة لآل فهيدة في الشمال أكثر منه مع رعاة الإبل من آل عازب في الصحراء .

وقد أقر باقي أفراد آل مرّة بالانقسام الحاصل لدى آل عازب ، وهم دائماً يسألون عن أحوال المجموعتين والإشارة إليهما بالجنوبيين والشماليين . أما أفراد العشائر الأخرى الذين لا يعرفون بالضبط صلات القرابة التي تربط بين المجموعتين ، راحوا يعتبرون رعاة الإبل من آل عازب وكأنهم قبيلة منفصلة بسبب كبر حجمها ، وعزلتها عن باقي مجموعات آل مرّة ، وفي الوقت نفسه تم دمج أفراد آل عازب الشماليين ضمن قبيلة آل فهيدة . لكن رغم هذا التباعد والاختلاف في ممارسات الرعي ، فما زال أفراد المجموعتين يعتبرون أنفسهم وحدة اجتماعية واحدة تتحمل مسئولية الدم وتساهم بشكل متساو ضمن السلالة . ومن المتوقع مع مرور الزمن أن يتحولا إلى مجموعتين منفصلتين اجتماعياً .

إن الميزة المشتركة بين جميع أفخاذ آل مرّة هي أنهم جميعهم متساوون في الحجم والثراء . هناك ثلاثة أفخاذ - حوالي عشر القبيلة- منبوذة اجتماعياً يرفض باقي أفراد آل مرّة التزاوج منها . ويعود السبب إلى أن تلك المجموعات تنحدر من زواج أحد أفراد آل مرّة بإحدى جواريه ، مما يجعل أفرادها غير طاهرين ، وبسبب كونهم من مستوى اجتماعي أدنى . فيما مضى كان أفراد تلك المجموعات فقراء الحال ، وكانوا يعملون كرعاة لدى أفراد آل مرّة من الأفخاذ الأخرى . أما اليوم ومع تحسن أوضاع تلك الأفخاذ المالية وعدم إضرارهم للعمل لدى باقي أفراد آل مرّة ، فإن مستواهم الاجتماعي قد تحسن أيضاً ، لا سيما في عيون الشباب من آل مرّة الذين لا يهتمون كثيراً بالأمور المتعلقة بالسلالات . أما باقي أفراد آل مرّة ، على الأقل ٩٠٪ من أفراد القبيلة ، ينتمون إلى فخوذ متساوية في الحجم والثروة والمستوى الاجتماعي .

أما بالنسبة للأمور المتعلقة بالبيئة ، فلا يوجد أي فرق من هذه الناحية بين الأفخاذ التابعة لآل مرّة ، إذ يمكن استخدام الآبار والمراعي المحيطة بهم ضمن

بعض الحدود المعينة . فالحد الأقصى للسعة المتوفرة في أحد أكبر آبار آل مرّة ، بئر فاصل ، لا يتعدى ٤٠ أو ٥٠ خيمة بدوية ، وتواجد عدد أكبر من الأشخاص في هذا المكان قد يهدد مخزون المياه ويقضي على المراعي المجاورة للآبار ، وتلك هي عوامل يعيها آل مرّة تماماً ، كما أن آبارهم تنتشر على مسافات واسعة بعيدة عن بعضها ، مما يحول دون تواجد عدد كبير من الأشخاص في الوقت نفسه ولفترات طويلة .

خلال ترحالهم الأفقي لا يحتاج آل مرّة لاجتياز الحواجز الطبيعية الهامة ، أو الدخول أو العبور إلى مناطق غير آمنة تتطلب عادة وجود عدد كبير من الأشخاص لتوفير الحماية ، حيث يتنقلون ضمن مجموعات صغيرة ولا يحتاجون لأي تنسيق أو أي قادة . وهذا يتناقض تماماً مع عادات الرعاة البدو الذين يمارسون الترحال العمودي ، ويتنقلون بأعداد كبيرة ويتبعون الطرق المحددة تحت إشراف القائد السلطان . وعلى عكس آل مرّة نجد العديد من القبائل في إيران مثلاً التي تخضع لقادتها الذين يتمتعون بسلطة قوية ، ويلعبون دوراً هاماً في عملية تنسيق ترحال المجموعات الضخمة من مرعى إلى آخر عبر الأراضي التي تملكها أي من القبائل . بينما المحيط الذي يعيش فيه آل مرّة يتطلب مثل هذا التنسيق في ممارسات الرعي أو الترحال ، كما أن رؤساء القبيلة لدى آل مرّة يلعبون دوراً رمزياً فقط في أنشطة الرعي ، على الرغم من أهميتهم في ربط القبيلة مع العالم الخارجي .

القبيلة

بالإضافة إلى انقسامهم إلى بيوت ، وأفخاذ فإن آل مرّة ينقسمون أيضاً إلى سبع قبائل مختلفة تتضمن كل منها ست أفخاذ . وعادة ما يستخدم آل مرّة كلمة قبيلة للإشارة إلى هذه الوحدة الاجتماعية . ولكن تلك الوحدات تشكل الحد الوسط بين الفخذ والوحدة التي تضم جميع الأفراد المنحدرين من آل مرّة .

وتفادياً للخطأ سوف نسمي هذه الوحدة قبيلة ، ولا سيما وأن لدى آل مرّة أميراً أعلى ، وهم معترف بهم كوحدة قبلية من قبل الحكومة السعودية .

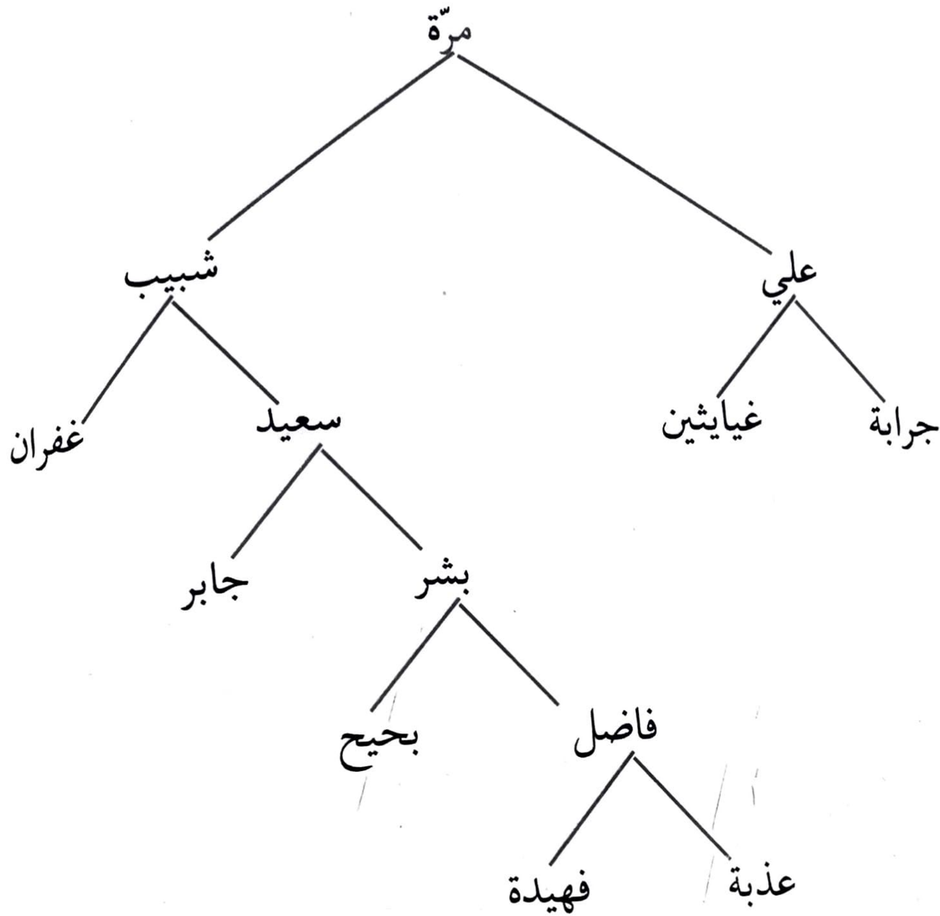
وتعتبر القبائل كوحدات لا تلعب أي دور فعال في التنظيم الاقتصادي لدى آل مرّة ، فهي لا تمتلك أية آبار أو مراع لكن هناك علاقات وثيقة تربط بين مختلف أفراد الأفخاذ التي تشكل القبيلة ، الذين يتجمعون معاً قرب الآبار . أما على الصعيد السياسي ، فالقبيلة تشكل وحدة هامة ، فمن بين القبائل السبع التي تتكون منها قبيلة آل مرّة هناك خمس قبائل تتضمن أفخاذاً تتمتع بوضع اجتماعي رفيع ، وضع الأمراء ، ومنها ثلاث أعطت أمراء حكموا القبيلة بالفعل . فجميع الأعمال السياسية ، سواء كانت تتعلق بالدفاع عن الموارد ، أو الحصول على تنازلات من قبل الحكومة ، أو البحث عن الثأر ، أو تسوية النزعات القانونية ، تتطلب دعم القبيلة ككل ومشاركة أمير القبيلة .

وعلى الرغم من أن القبيلة لا تلعب دوراً هاماً في تنظيم الترحال ، وأن ملكية القطعان والآبار تعود رسمياً إلى الأفخاذ ، إلاّ أنها تلعب دوراً هاماً في توفير العلاقات القوية ؛ إذ إنه يمكن لأي فخذ أن يعتمد على دعم باقي فخوذ القبيلة في حال نشوء أي نزاع .

وتلعب القبيلة دوراً أساسياً في عمليات التقسيمات ، فالتحالفات السياسية والعسكرية نادراً ما تتعدى حدود القبيلة ، على الرغم من أن نظام التقسيمات قد أوجد آلية للتحالف تمتد إلى مستوى القبيلة وحتى إلى ما وراءها . وترتبط كل عشريتين ببعضهما من خلال جد مشترك كما هو موضح في الرسم الموضح أدناه . وترتكز علاقة كل قبيلة بالأخرى على مبدأ المعارضة المزدوجة التي تترجم عادة من خلال الأعمال العسكرية . على سبيل المثال يقول أحد أفراد آل فهيدة إنه في حال حدوث نزاع ينضم آل فهيدة إلى آل عذبة تحت اسم آل فاضل لمحاربة آل بحيح ، لكنهم ينضمون إلى آل بحيح تحت اسم آل بشر بمحاربة آل جابر . وينضم آل جابر إلى آل بشر تحت اسم آل سعيد لمحاربة آل غفران ، لكنهم يجتمعون سوياً تحت اسم آل شبيب لمحاربة آل علي

الذين ينقسمون إلى عشيرتين : آل جرابة وآل غيايثين ، ويجتمع آل علي وآل شبيب تحت اسم آل مرّة .

وهناك رواية أخرى تقول إنه كان لمرّة ولدان : علي وشبيب - ولعلي ولدان : جرابه وغيايثين- ولشبيب ولدان : غفران وسعيد - ولسعيد ولدان : جابر وبشر- ولبشر ولدان : بحيح وفاضل- ولفاضل ولدان : فهيدة وعذبة .



(الشكل يوضح قبائل آل مرة)

والطريقة التي من خلالها ترتبط كل من العشائر ببعضها وفقاً لنظام المعارضة المزدوجة ترجع إلى النظام المتبع في التقسيمات ، والذي يسعى دائماً لجمع أكبر عدد من المجموعات سوياً ، مع العلم أن التحالفات الحالية لا تتبع هذا

النظام حرفياً ، حيث يتم تخطي بعض المستويات أحياناً على سبيل المثال ، إذا قرر آل فهيدة وآل جابر التفاعل سوياً لسبب من الأسباب ادعوا أنهم آل سعيد اسم جدهم المشترك الأقرب ، من دون إشراك باقي المجموعات التي تقول إن سعيداً هو أيضاً جدها ، على الرغم من أنه يمكن للمجموعات الأخرى أن تتحالف سوياً من خلال دعوة جميع المنحدرين من جد واحد للوقوف جنباً إلى جنب لمواجهة خطر ما .

القبائل

قبائل آل مرّة هي الوحدة التي تضم جميع الذكور والإناث المنحدرين من شخص يدعى مرّة ، يقال إنه عاش قبل ظهور الإسلام ، وتقول الراوية إن زوجته وأم ذريته كانت من الجن . والمكانة التي يحتلها آل مرّة ضمن القبائل السعودية تؤكد هذا الأمر . فهم من جهة يعتبرون على أنهم قبيلة نبلاء على أساس أنهم ينحدرون من مرّة الرجل العربي الحر ، ومن الجن من جهة أخرى ؛ لأنهم يسكنون في الربع الخالي ويتمتعون بالقدرة على اقتفاء أثر الأشخاص والحيوانات . ونتيجة لذلك فإن الناس ينظرون إليهم نظرة غريبة ،لكن ما من أحد ينكر مكانتهم الرفيعة .

وللقبيلة حدود اجتماعية وثقافية هامة مثل اللغة ، وتقاليد اللبس ، وعملية الزواج ، وطرق التحية الشفهية وغير الشفهية ، وأساليب الشعر ، والغناء ، والحياكة . كما تضع القبيلة أيضاً حدود القرابة الفعلية ، على الرغم من أن عملية التقسيمات تتعدى مستوى القبيلة ، وتخلق صلات قرابة جديدة بين آل مرّة وقبائل أخرى . لقد رأينا أن عملية الزواج اللحمي تتم على مستوى الفخذ بنسبة مرتفعة ، وقد تصل هذه النسبة إلى ١٠٠٪ على مستوى القبيلة . ويسمح لعدد قليل فقط من النساء بالزواج من أفراد من قبائل أخرى ، أو من العائلة المالكة ، وذلك من أجل إظهار التحالف الموجود مع تلك المجموعات . ويعبر آل

مرّة عن الولاء للقبيلة ووحدتها، من خلال شعارهم الذي يرددونه دائماً: «نحن آل مرّة، كلنا واحد؛ بيوتنا واحدة؛ وكلنا إخوان.»

ولطالما احتلت القبيلة تقليدياً مكانة سياسية هامة ضمن المجتمع العربي المعقد. فقبل تركيز سلطاتها تحت حكم ابن سعود كانت القبائل تتمتع باستقلالية تامة، وبقوة عسكرية لا بأس بها توفر لها الحماية وتسمح لها ببسط تلك الحماية على المناطق الحضرية، والقرى الزراعية، وحتى على الرعاة من البدو ولا سيما رعاة الأغنام.

وتسود جميع القبائل العربية الروح العسكرية؛ إذ يعتبر أفرادها أنفسهم محاربين ورعاة في الوقت نفسه، ورؤساء القبائل يتناولون الشئون السياسية أكثر من شئون الرعي.

لكن القبيلة في هذه الأيام لم تعد تتمتع بتلك الدرجة نفسها من الاستقلالية، وبحيث أصبحت ترتكز سلطة رئيس القبيلة حالياً على قدرته في التوسط بين أفراد القبيلة وحكام المملكة العربية السعودية.

ما زالت القبيلة تشكل الوحدة الأساسية بالنسبة لتحديد الهوية، ويرتبط أفرادها بالدولة بصفتهم أفرادا فيها أكثر منه بصفتهم مواطنين عاديين، ولن يخطر على بال أي منهم على سبيل المثال القيام بأي عمل هام من دون الحصول على إذن ودعم رئيس القبيلة.

على الرغم من أن القبيلة تظهر وكأنها وحدة عسكرية وسياسية واجتماعية وثقافية هامة، إلاّ أن قاعدتها الأساسية والأهم هي الجانب الاقتصادي. فالقبيلة هي الوحدة التي تبسط سلطتها على مناطق الرعي الوسطى التي تستخدمها. وكما رأينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب فإن ديرة آل مرّة تتضمن أهم مناطق الرعي لديهم، التي لا تعتبر ملكيتهم بالمعنى الصحيح إذ لا تمتلك القبيلة أية وثيقة رسمية تؤكد ملكيتها للأرض بالمعنى المتعارف عليه اليوم فيما يختص بملكية الأرض، وعمليات البيع والشراء، إنما هي أراض استولى عليها آل مرّة من خلال المعارك الحربية التي أدت إلى طرد القبائل الأخرى

منها . ويسمح لباقي القبائل بعبور الديرة والاستفادة من المراعي والآبار الموجودة فيها بصورة مؤقتة .

في بعض الأحيان ترتحل مجموعات صغيرة من البدو من القبائل المتواجدة في جنوب الربع الخالي إلى ديرة آل مرّة ، حيث يتم الترحيب بها شريطة ألاّ تحاول الاستقرار فيها ، كما أن العكس صحيح أيضاً فأفراد آل مرّة يرتحلون إلى خارج دائرتهم بشكل منتظم للاستفادة من المراعي المتواجدة في أراضي القبائل الأخرى ، لكن اختيار تلك المراعي يتطلب مراعاة وفرة العشب فيها ، ووجود الرعاة الآخرين ، والتمتع بعلاقات طيبة مع القبائل التي تدعي ملكيتها .

في الوقت الحاضر توجد علاقات طيبة بين آل مرّة والقبائل المستوطنة في الشمال من دائرتهم ، لذا فهم يقصدون المراعي الخاصة بها خلال فصلي الشتاء والربيع ، بينما في الماضي ، وقبل وضع حد للحروب القبلية ، كان استخدامهم لتلك المراعي يتوقف على قدرتهم العسكرية في الدفاع عن أنفسهم ، مع العلم أن استخدام الآبار بصورة مؤقتة يتم بشكل عادي في غياب النزاعات والثأر . وبالنسبة للجبهة الداخلية فلا يوجد أي تقسيم للمراعي المتوفرة ضمن أراضي القبيلة ، ويحق لجميع الأفراد استخدامها بشكل متساو ، أما الآبار والواحات الصغيرة فهي ملك للفخذ .

كانت العلاقة بين القبيلة وقدرتها العسكرية من جهة والجانب الاقتصادي من جهة أخرى تظهر بوضوح من خلال عمليات الغزو التي حرمتها حكومة المملكة العربية السعودية ، والتي كانت تشكل أهم نشاط لدى البدو . وهناك فرق كبير بين الغزو والحرب لدى البدو ، فالغرض من الغزو هو الاستيلاء على إبل القبائل الأخرى التي تتمتع بالمكانة الاجتماعية نفسها ، لأن آل مرّة لم يكونوا ليشنوا أية غزوات ضد أي منهم أو أية قبائل من مستوى أدنى من مستواهم ، لذا فقد كانت القبيلة النبيلة والثرية في المنطقة العربية عرضة للغزوات في أي وقت .

كان سبب الحروب التي تقوم بين القبائل أو مجموعات أخرى غير قبلية هو

إما للاستيلاء على الأراضي ، أو لإخضاع المجموعة الأخرى ، أو للسلب والنهب ، أما الغزو فكان يتم ضد القبائل الثرية والرفيعة المستوى بصورة متبادلة . ويتباهى آل مرّة بأنهم قد حصلوا على أفضل النوق لديهم ، والجمال المعدة للركوب من خلال غزو القبائل الأخرى . وكان آل مرّة بعد غزوهم للقبائل الشمالية يعودون إلى الربع الخالي ، مما يقلل من فرص تعرضهم للغزو لصعوبة الوصول إليهم ، لذلك لم يضطروا لرد عدد كبير من الغزوات ضدهم مثلما كانت تفعل القبائل المتمركزة في المناطق الشمالية ذات الكثافة السكانية . وقد رأى الكاتب سويت (1965) Sweet في عدم اضطرار آل مرّة لرد الغزوات ، الأمر الذي حال دون مقتل العديد منهم ، وغزو القبائل للقبائل الأخرى من المستوى نفسه ، ظاهرة أدت إلى توزيع متساو للقطعان . ومنذ نشوء الدولة القوية في السعودية لم يعد للغزو أي وجود سوى في الأشعار أو فلكلور القبيلة .

القيادات القبلية

كما رأينا سابقاً ، فإن القسم الرئيسي ضمن الهيكلية القبلية هو الفخذ ، وهناك العينان أيضاً أي القيادات القبلية . والفرق الموجود بين القادة والأفراد لدى آل مرّة هو في الواقع طفيف للغاية ، فهم يمارسون المساواة الحقيقية حيث يتساوى القائد مع باقي الأفراد ، وينتمي مثلهم إلى الفخذ والقبيلة . والقائد هو شخص محترم ، يؤخذ برأيه في المسائل التقليدية والحديثة ، ويمارس حكمه من خلال الإقناع وليس من خلال التهديد أو القدرة الجسدية ، واستمراره في مركز القيادة يتوقف على قدرته في حل النزاعات داخل القبيلة وتمثيلها بنجاح خلال التعاطي مع العالم الخارجي . أما اليوم فهو يعتمد فقط على قدرته على العمل كوسيط بين القبيلة والحكومة .

هناك ثلاث مجموعات أمنت حتى الآن القائد الأعلى للقبيلة بأكملها وهي : أولاً مجموعة آل المرضف من قبيلة آل جابر ، ثم آل نقادان من قبيلة آل

عذبة ، واليوم آل شريم من قبيلة آل فهيدة ، وقد لعب آل شريم دور القائد الأعلى لآل مرّة منذ بداية القرن العشرين . وعلى الرغم من أن المجموعتين الأولى والثانية ما زالتا تحتلان مراكز قيادية ضمن عشيرتيهما ، إلاّ أنهما تقران بالتفوق لآل شريم ، وتتولى مجموعة آل البوليلة قيادة قبيلة آل غفران . ويتمتع أفراد تلك المجموعات التي تشكل جزءاً من الفخذ بلقب الشيخ الذي يمنح عادة إلى أهم القادة الدينيين ، ووزراء الحكومة من خارج العائلة المالكة في السعودية ومن غير القادة القبليين . ويطلق أفراد القبائل لقب الأمير على القادة الحاليين ، وهو لقب يعطى أيضاً لأفراد العائلة المالكة ، والحكام ، ورؤساء الشرطة . وهناك مجموعتان يخرج منهما أمراء الواحات وهما آل نديلة من قبيلة آل بحيح بالنسبة لواحة الخن ، وآل الحنزاب من قبيلة آل عذبه بالنسبة لواحة السكاك ، مما يبقي عشيرتي آل الجرابعة وآل غيايثين بلا أية مراكز قيادية محددين .

والأمير الأعلى الحالي لآل مرّة طالب بن راشد بن شريم يعيش في خيمة بدوية سوداء لا يمكن تمييزها عن باقي خيام أفراد القبيلة ، سوى ببقائها دائماً في مكانها . فهي لا ترافق باقي خيام الأفراد أثناء ترحالهم إلى مراعي الخريف والشتاء والربيع ، كما أنها نادراً ما ترافق باقي أفراد الفخذ إلى الآبار الصيفية ، وتبقى دائماً منتصبة في الرمال على بعد ١٠ أو ٢٠ ميلا في غرب مدينة أبقيق ، قرب الطريق السريع الذي يربط بين الرياض والظهران أو قرب الطرق الفرعية التي تربط منطقة الإحساء بالطريق السريع . وتتضمن هذه المنطقة أغنى حقول النفط في السعودية ، وتبقى مضاءة طوال الليل بواسطة ألسنة اللهب الضخمة الناتجة عن احتراق الغاز الطبيعي .

ويحتفظ بيت الأمير ببعض النوق من أجل الحليب ، وقطيعاً صغيراً من الأغنام والماعز من أجل الحصول على الحليب وتوفير اللحم للاحتفالات التي يقيمها ليلاً تقريباً . أما باقي الإبل فتعهد إلى أفراد القبيلة الذين يرعوها ويستفيدون من نتاجها وكأنها ملك لهم . وتتضمن المنطقة التي ينصب فيها الأمير خيمته مراعي غنية بعض الشيء ، إلاّ أن اختيارها لا يعود إلى وجود

المراعي ، إنما بسبب قربها من أبقيق ، والدمام ، والهفوف عاصمة واحة الإحساء . فواجباته كقائد قبلي تتطلب منه زيارة تلك المدن يومياً ، ويمكن لآل مرّة أن يجدوا مخيمه بكل سهولة .

باستثناء فترات قصيرة خلال فصلي الربيع والشتاء عندما يرتحلون إلى المراعي الواقعة في الشمال ، ينضم إلى بيت الأمير بيوت أقربائه المقربين الذين يشاركونه المكانة والواجبات . وتتضمن تلك البيوت بيت ابنه الأكبر راشد ووالدته ، زوجة الأمير الأولى ؛ وبيت أولاد عمه ووالدتهم ؛ وبيت عمه الآخر .

وبما أن الأمير الأسبق لآل مرّة كان عم الأمير الحالي ، لذا يلتحق به أبناؤه وأبناء عمه ، ويعمل جميع هؤلاء الرجال سوياً بشكل وثيق ، ويرافق الأمير أحد هؤلاء أو أغلبهم في جميع تنقلاته . على الرغم من أن أمير القبيلة في ذلك الوقت كان أميا ، إلاّ أن أبناءه وأبناء عمه قد التحقوا بالمدارس حتى إن أحدهم أتم مرحلة الدراسة الثانوية ، والآخرين أتموا المرحلة الإعدادية .

ومن ضمن مهام الأمير قيادة وحدة من الاحتياطيين في الحرس الوطني السعودي ، مقابل راتب شهري واستخدام مجاني للسيارات . وعلى الرغم من وجود بعض الأفراد من قبائل أخرى ضمن هذه الوحدة ، إلاّ أن آل مرّة يشكلون السواد الأعظم منها ، وبالتحديد أفراد قبيلة آل فهيدة التي ينتمي إليها الأمير . ولا تلعب هذه الوحدة أي دور مهم ، لكن أفرادها يجتمعون بانتظام لعدة أيام كل شهر يتسلم كل واحد منهم خلالها راتبه الشهري الذي يبلغ حوالي ٤٥٠ ريالاً سعودياً . لكنهم يجب أن يكونوا جميعاً على استعداد دائم ويمكن جمعهم خلال يومين حتى لو كانوا في عمق الربع الخالي .

بالإضافة إلى كونه مورداً مالياً مهماً ، فإن الحرس الوطني يركز على الحياة القبلية ويعتبر أهم مصدر للمعلومات ، ولأنه يضم أفراداً من جميع العشائر فإنه بالإمكان إيصال أية أخبار حول الشئون السياسية والرعي – لا سيما الأخبار التي تتعلق بهطول الأمطار – إلى جميع أقسام القبيلة .

ويقوم الأمير أيضاً بدور الوسيط بين أفراد القبيلة والحكومة . فإذا تمّ توقيف

أحدهم لسبب من الأسباب ، فإن الأمير يمسك بالقضية ويتحول إلى محام للدفاع . ويمضي الأمير عادة معظم أوقاته في مناقشة القضايا مع أمراء الإحساء والمنطقة الشرقية في السعودية ، وقد يضطر في بعض الأحيان بسبب قضية ما للذهاب إلى الرياض لمناقشتها مع المسئولين الحكوميين أو حتى مع الملك . عادة ما تكون التهم طفيفة وأكثرها يتعلق بحوادث السيارات ، لكنها قد تكون جسيمة وتتعلق بالاعتداءات ، أو جرائم القتل .

لا يتحدث الأمير بشأن أفراد قبيلته فقط بل بشأن قبائل صغيرة أخرى من منطقة نجران تقع منذ القدم تحت حماية آل مرّة . كما أنه يلعب دور الحكم ضمن القبيلة ، فإذا حصل نزاع بين المجموعات ، يسعى الأمير جاهداً لمصالحة الطرفين والتوصل إلى حل سلمي ، أما إذا لم يفلح بذلك فإنه يطلب المشورة من أحد أفراد العائلة المالكة النافذين .

ولا يشارك أي من الأمراء حالياً بأنشطة الرعي القبلية على الرغم من امتلاكهم قطعان الإبل والأغنام والماعز الخاصة بهم ، علماً بأنهم في الماضي كانوا يلعبون دوراً أكثر أهمية في هذا المجال ، ويقال إنه في القرن الماضي عندما كانت الحروب القبلية أمراً شائعاً كان أجداد الأمير الحالي ينظمون ترحال آل فهيدة إلى المراعي الواقعة في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية ، ويؤمنون لهم الحماية ، كما كانوا ينظمون مشاريع الأعمال في الواحات الأربع التابعة لهم . والنشاط القبلي الوحيد الذي ما زال الأمير يقوم به هو استخدام نفوذه لدى المسئولين الحكوميين للحصول على آبار جديدة أو إصلاح وتحديث الآبار القديمة ، وما زال أفراد القبيلة حتى اليوم يسعون للوقوف على آرائه لا سيما فيما يتعلق بالتغيرات الحالية .

تعتبر وظيفة الأمير كوضع مكتسب يمكن المحافظة عليه فقط من خلال النجاح المستمر للقائد وأقربائه ، والمثال الواضح على ذلك هو وصول آل شريم إلى السلطة . ووفقاً لرواية آل مرّة فقد كان آل المرضف يتمتعون بوضع القائد الأعلى للقبيلة عندما كانت تلك الأخيرة تركز على منطقة نجران الحضرية الواقعة في

جنوب غرب الجزيرة العربية ، وقبل ٢٠٠ سنة قام آل مرّة بقيادة آل المرضف بالتوسع خارج الربع الخالي باتجاه الشمال ، واستولوا على واحة جبرين من قبيلة ثانية ، وقام آل المرضف والقبيلة التابعة لهم آل جابر بتثبيت مواقعهم في الواحة ، بينما تابع باقي أفراد القبيلة تقدمهم نحو الشمال . وكانت قبيلة آل فهيدة الأكثر نشاطاً في هذا التقدم ؛ لأنها وفقاً لآل جابر كانت فقيرة بالإبل ، أو لأنها وفقاً لآل فهيدة أنفسهم كانت تتضمن المحاربين الأشداء . وبالفعل نجد اليوم لدى آل فهيدة أفضل النوق الحلابة تلك الموجودة لدى فخذ آل عازب ، وقد تم الاستيلاء عليها أثناء الغزوات التي قاموا بها ضد قبيلة أخرى في شمال شرق الجزيرة العربية على مدى ١٥٠ سنة الماضية . أما تفوق آل شريم فقد بدأ منذ القرن التاسع عشر ، ويعتبر آل مرّة أنه مرتبط مباشرة بتوسع القبيلة باتجاه الشمال حتى منطقة الإحساء التي حلت محل نجران كمركز حضري بالنسبة للقبيلة ككل . وأصبح آل شريم القائد الأعلى لآل مرّة لأنهم لم يتمركزوا في جبرين بل جعلوا الجميع يقدرهم ويخافهم في واحة الإحساء الغنية .

وقد شكلت الحرب والسياسة العاملين الأساسيين اللذين أديا إلى بروز آل شريم ، فقد شاركوا ببسالة وفاعلية في الحروب القبلية التي دارت في المناطق الصحراوية المحيطة بالإحساء ، كما أن جميع الجبال والتلال في تلك المناطق المحيطة بالواحة تحمل أسماء المعارك التي خاضها آل مرّة ضد باقي القبائل من أجل الوصول إلى المراعي الواقعة فيها . بالإضافة إلى القوة العسكرية ، استخدم آل شريم السياسة ، ليس مع باقي القبائل إنما مع حكام الإحساء . فعادة ما كانوا يوصفون بالمقاولين أثناء المناقشات التي كانت تدور بينهم وبين حكام الإحساء من الأتراك في القرن التاسع عشر ، حتى إن الأتراك قاموا بتعيين أحد أفراد آل شريم كحاكم للواحة ، إلاّ أنه تمّ اغتياله عشية تعيينه على يد إحدى القبائل أثناء تنقله في الواحة .

وفيما بعد تحالف آل شريم مع آل سعود ولعبوا دوراً هاماً في عملية استرداد الإحساء من الأتراك في عام ١٩١١ . ولتثبيت علاقاتهم بالواحة بشكل أعمق تمّ

تزويج إحدى نسائهم إلى فهد بن عبد الله بن جلوي آل سعود ، الابن الأكبر لحاكم الإحساء والمنطقة الشرقية من السعودية وابن عم الملك عبد العزيز آل سعود .

وهكذا نرى أن بروز آل شريم يرتبط بنجاح القائد في التعاطي ليس فقط مع المسائل القبلية الداخلية فقط ، إنما مشاركته بالسياسة العليا والمجتمع على مستوى الدولة . إلاّ أنهم لم يسعوا لتطوير القبيلة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، ربما لأن قادتهم بمن فيهم الأمير الأعلى ينتمون إلى المدرسة العربية التقليدية ، ولا يملكون أية خبرة في مجال التحديث ، مثلهم مثل باقي رعاة الإبل . أضف إلى ذلك أن جميع برامج التنمية التي قامت بها الحكومة أو الهيئات الأخرى لم تسع لإشراك هؤلاء القادة أو أولادهم في عملية وضع أو تنفيذ تلك البرامج .

لا يمكن اعتبار أمراء آل مرّة من المعارضين لأية تغييرات ، لأنهم يدركون جميع التغييرات التي طرأت منذ ظهور النفط ونمو الصناعة ، لا سيما منذ الحرب العالمية الثانية ، ويهتمون كثيراً بمستقبل القبيلة ،لكن لسوء الحظ لا يحصل شباب تلك العائلات على أي نوع من التدريب أو التعليم الذي يمكن أن يساعدهم على فهم التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الواسعة التي تحدث ، والتي تسمح لهم بالعمل نحو محاولة إلحاق القبيلة بركاب المجتمع الحديث . بدلاً من هذا فإنهم يشعرون بالإحباط الشخصي تجاه تلك التغييرات التي تضعهم على الهامش . تلك هي المشكلة التي يواجهها أبناء الأمراء دون سواهم من باقي شباب القبيلة . فالآباء يركزون اهتمامهم على تعقيدات الحياة القبلية التي أمضوا حياتهم فيها ، بينما الأبناء الذين التحقوا بالمدارس ، وأمضوا فترات طويلة في المدن التي تشهد تغييرات سريعة ، وسافروا إلى الخارج ، فهم يهتمون بهذا العالم الجديد الذي لا تنتمي قبيلتهم إليه . فهم من جهة متشبثون بقبيلتهم ،لكنهم من جهة أخرى يشعرون أنهم مختلفون عن باقي الناس بسبب دراستهم وبيئته . يريدون تحديث القبيلة لكنهم لا يدرون كيف يبدأون ، في أحسن الحالات ينضمون إلى الحرس الوطني ، حيث يقومون بمهام شبه تقليدية

ويعملون بدوام كامل ، أما في أسوأ الحالات فهم لا يفعلون أي شيء .

ومن أصعب المشاكل التي تواجه الشعوب في الدول النامية هي تلك المتعلقة باستنفار واستخدام جميع الموارد البشرية الموجودة في البلد أثناء عملية التنمية ، وقد يتم إهمال الكفاءات والخبرات العملية الشابة والطموحة لصالح البيروقراطيين بحجة أنهم حاصلون على شهادات دراسية أعلى .

تمثل أعمال السير إدوارد إيفانز-بريتشارد (Evans-Pritchard 1940) حول النوير وهم مجموعة من رعاة الأغنام والأبقار في جنوب السودان ؛ والسنوسي (Evans-Pritchard 1949) البدو في شرق ليبيا ، أفضل وصف لتقسيمات المجتمعات . وقد أشار بعض الدارسين مؤخراً إلى عدم ملاءمة النظر إلى تلك المجتمعات والمجتمعات المشابهة من خلال التقسيمات التي تكون فيها جميع المجموعات متساوية في الحجم ، وحيث تتم عملية التجمع أو الانفصال وفقاً للسلالة . وقد أظهر سالم (Salim 1962) على سبيل المثال أن قبيلة قائد عرب المستنقعات في جنوب العراق هي أكبر وأقوى من باقي العشائر ، على الرغم من أنهم متساوون إيديولوجياً وينحدرون من الأصل نفسه المؤسس لهم .

كما شدد فرنيا (Fernea 1970) على الفارق الموجود بين الشيوخ وباقي أفراد القبيلة في جنوب العراق ، وأشار إلى أن بعض الجماعات الدينية والعملية والاجتماعية ضمن القبيلة تضم أعضاء لا ينتمون إلى القبيلة مثل أصحاب الأعمال الحرّة ، والمسئولين الحكوميين .

ولفت بيترز (Peters 1968) الانتباه إلى التقسيم الموجود لدى القبائل في ليبيا حيث يوجد الحر والمستعبد ، أو الرئيس والمرؤوسون وتلك هي ظاهرة مهمة .

ولا يمكن مقارنة التقسيم الموجود لدى القبائل الإيرانية بالتقسيمات لدى آل مرّة على الرغم من أن معظم القبائل العادية تتبع مثل هذا النظام .

إذ نرى من الداخل أن ديناميكية التنظيم الاجتماعي لدى آل مرّة تقارب النظام التقليدي للمجتمعات التي تعتمد على التقسيمات . فجميع الأفخاذ تتساوى إلى حد ما في الحجم والثروة والسلطة . ولا يمكن تمييز الأمراء عن باقي

أفراد القبيلة ، على الرغم من حصولهم على نسبة أكبر من المال والعلم ، وربما الآن أصبح من الممكن تمييزهم بعض الشيء نتيجة للنمو الاقتصادي الحديث في السعودية . وتأتي عملية توزيع الثروة والسلطة بشكل متساو ضمن التنظيم القبلي لدى آل مرّة كنتيجة للأنموذج البيئي الذي وضعوه بأنفسهم . فحجم القطيع الخاص بكل بيت لا يتغير بسبب عدم توفر ما يكفي من العشب والنباتات ، كما أن آل مرّة يحتفظون بالإبل فقط لتأمين معيشتهم فقط ، ونادراً ما يقايضون إبلهم بالمال أو بأي شيء آخر من الأسواق ، لذا لا يوجد لديهم أي حافز لجمع الثروات الكبيرة كما ذكرنا سابقاً ، كما أن نمط الترحال الذي يتبعونه لا يحتاج لأي حماية عسكرية أو خدمات خاصة من السلطات المركزية . وبما أنهم رعاة إبل ، وبسبب متطلبات المحيط الذي يعيشون فيه ، وجب عليهم التمتع بالمرونة ، كما وجب على كل وحدة أن تكون مستقلة وقادرة على حماية نفسها عندما تكون بمفردها داخل الصحراء الشاسعة لفترات طويلة من الزمن .

أما في المناطق الحضرية فإنه من السهل جداً بالنسبة لقادة القبائل الاستفادة من مراكزهم وتجميع الثروات والسلطات في أيديهم كما رأينا في المثالين العراقيين . وفي إيران فإن القادة الذين يتمتعون بالسلطة ويمتلكون جيشاً قوياً عليهم أن يلعبوا دوراً مهماً في تأمين تنقلات القبيلة من منطقة إلى أخرى عبر أراضي الأعداء . أما بالنسبة لآل مرّة ، فإن الأمراء لا يلعبون أي دور يذكر في الأنشطة اليومية لرعاة الإبل ، فأهميتهم تكمن في تأمين العلاقات مع العالم الخارجي بسبب المتطلبات الاقتصادية .

إن نظام التقسيمات لدى آل مرّة هو نظام قرابة وفي الوقت نفسه شكل من أشكال التنظيم السياسي ، ويمكننا القول إنه بالأحرى تشكيل سياسي يعتمد على مبادئ القرابة التي تجمع الأشخاص سوياً في العمل السياسي . فالأشخاص يتحدون سوياً ضمن المجموعات ليس بسبب مساءلة ما كما في المجتمعات الديمقراطية ، أو تحت تأثير الضغط والقوة كما في المجتمعات السلطوية ، إنما بسبب صلات القرابة . يتم تجنيد مجموعات الدفاع وفقاً لدرجة

القرابة ، ويحارب جميع المنحدرين من جد واحد ضمن مجموعة واحدة ، وكذلك يتم تنظيم أهم مجموعات العمل وفقاً للجد الواحد . عندما يذهب أحدهم لزيارة شخص ما في مخيم آخر ، فهو يتوجه أولاً إلى بيت الشخص الذي تربطه به صلات قرابة وثيقة أولاً قبل أن يزور صديقه أو الشخص الذي تربطه به علاقة عمل . ويتميز هذا النظام بدرجة عالية من الاستقلالية والمساواة على جميع المستويات . فالقيادة تعتمد على الإقناع وليس على الضغط والقوة ، فشيخ القبيلة ليس بالآمر الناهي ، إنما هو الأرفع مقاماً ضمن القبيلة يتساوى مع باقي الأفراد بالواجبات والحقوق .

لكنه من الخطأ مساواة مجمل النظام السياسي لدى آل مرّة أو باقي البدو بنظام التقسيمات الذي يعتبر الطريقة الرئيسية التي يتبعها آل مرّة فيما بينهم لتشكيل التحالفات لأغراض مختلفة ، ويجب عدم إغفال صلات القرابة بالمصاهرة ، والعلاقة مع أهل الأم التي تؤثر بشكل كبير على العمل السياسي (على الرغم من أنه لا يتم الاعتراف علناً بتلك العلاقة) . وتلعب المكانة الاجتماعية دوراً هاماً في عملية تحديد العمل على الصعيد الخارجي . فجميع آل مرّة ، باستثناء فخذين منهم ، يتمتعون بلقب الشريف ضمن المجتمع العربي ، ويحتلون مكانة متساوية لمكانة باقي القبائل الشريفة في العديد من المواقف التي لا تعتمد على صلات القرابة ، وتتم معاملة القبائل ذات المكانة الوضيعة بكياسة لكن مع شيء من الكبرياء ، حتى لو كان أفرادها يعتبرون من الأقرباء . وتأخذ الهيكلية السياسية القبلية بالاعتبار المجتمع الواسع لا سيما الدولة ، وسوف نتطرق إلى هذا الموضوع في الفصول القادمة .

تتميز الهيكلية الاجتماعية لدى آل مرّة بضم المزيد من الأشخاص إليها دائماً على شكل الدوائر المركزية ، حيث يحتل البيت قلب الدائرة ، ومن ثم يأتي الفخذ ، ثم القبيلة ، ثم القبائل والدولة ، والعالم العربي ، والعالم الإسلامي . وتعمل كل دائرة على خلق المزيد من العلاقات بين الأشخاص والبيت الموجود في الوسط ، والذي يتصرف بحرية واستقلالية . وكما رأينا سابقاً

فإن البيت هو المسئول الوحيد عن قطيعه الذي يؤمن له معيشته ، بينما توفر الوحدات الأخرى له الحماية وإطار العمل لتنظيم أنشطة الرعي مما يتطلب المرونة . ويجب ألاّ ننسى أن البيت يعمل بمفرده في معظم الأحيان ، وتأتي هذه المرونة كنتيجة لاستقلالية البيت بدلاً من تسلط الفخذ أو القبيلة .

الفصل الخامس

آل مرّة والمجتمع الكبير

آل مرّة والمجتمع الكبير

عادة ما ينظر إلى قبائل البدو على أنها متحفظة وتتمتع بروابط اجتماعية وثيقة ، وبدرجة عالية من الحرية في جميع المجالات الحياتية من ثقافية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية . ويضطر البدو في بعض الأحيان للذهاب إلى المدينة لأنهم لا يستطيعون تأمين القدر الكافي من الاكتفاء الذاتي داخل الصحراء . وبينما يتمتع آل مرّة بالاكتفاء الذاتي فيما يختص بأهم موادهم الغذائية وهو الحليب ، إلاّ أنهم يعتمـدون على المدينة للحصول على باقي الأشياء ، كما أن الحاجة لبعض الخدمات أو تعاطي السياسة تدفعهم للذهاب إليها .

باستثناء رعي الإبل والعيش من منتجات الماعز والأغنام ، فإن آل مرّة هم دائماً بحاجة لمراجعة أهل المدينة من موظفين وأخصائيين ، حيث توجد في المناطق الشمالية من السعودية تجمعات كبيرة للبدو الرعاة أكثر منه في المناطق التي يسكنها آل مرّة ، لذا نجد هناك أيضاً مجموعات كبيرة من البدو غير الرعاة تؤدي الخدمات للرعاة منهم . ومن ضمن تلك المجموعات مجموعة الصلوب الذين يقال إنهم ينحدرون من الصليبيين ، بسبب بشرتهم البيضاء وعلامة الصليب المدموغة على معصمهم . فهم يهتمون بالصيد ويبيعون ما يحصلون عليه للبدو وأهل المدن في شمال الجزيرة العربية ، كما يقومون بأعمال الحدادة ، ويصلحون جميع الأدوات .

ومن بين الذين يوفرون الخدمات للبدو في شمال المنطقة العربية الباعة المتجولون ، ورجال الدين ، ومعلمو المدارس . وبما أن آل مرّة لا يحصلون على أي من هذه الخدمات في دائرتهم النائية لذا وجب عليهم التوجه إلى الهفوف .

يمكن وصف العلاقة التقليدية الموجودة بين البدو والمجتمع الواسع على أنها علاقة اعتماد متبادل . فالبدو يعتمدون على المدينة للحصول على الخدمات الأساسية ، والمدن (والقرى) تعتمد على البدو للحصول على الحماية ، مع العلم

أنه تمّ الاستغناء عن هذه الخدمة بعد إنشاء الدولة المركزية القوية في العقود الماضية. لكن قبل إنشاء الدولة كان البدو يؤمنون سلامة وحماية بعض القرى والمدن المحددة بالإضافة إلى مجموعات البدو ذات المكانة الاجتماعية الوضيعة، والحرفيين. على الرغم من أن الذين يحصلون على الحماية كانوا ينعتون البدو بالاستغلاليين، لأن حماياتهم لهم كانت ضد البدو الآخرين فقط، إلاّ أنه يجب عدم إغفال الميزات الإيجابية لهذا النظام. وكما أوضح عبد اللّه بجرا بالنسبة لجنوب المنطقة العربية (Bujra 1971) فإن كل مدني، وقروي، وبدوي يساهم في نسج الشبكة العنكبوتية المعقدة للعلاقات الاقتصادية، والعسكرية السياسية، والدينية التي ما زال معظمها قائماً حتى الآن، على الرغم من التغييرات الجذرية التي طرأت.

العلاقات الاقتصادية

لدى آل مرّة علاقات اقتصادية وثيقة باثنين من أهم المراكز الحضرية في المملكة العربية السعودية: نجران والتي تعتبر موطنهم التقليدي، والهفوف التي تمّ التركيز عليها منذ نهاية القرن التاسع عشر. فهم يحصلون الآن على جميع مستلزماتهم الحياتية سواء مقابل دفع ثمنها نقداً أو بالتقسيط من سوق الهفوف التي تشكل المركز الإداري لواحة الإحساء. أما أهم المواد الغذائية التي يشترونها من الهفوف فهي: التمر- الأرز- الدقيق- البصل- معجون الطماطم- الملح- القهوة- الشاي- الهيل- السكر- العطور- البخور وهي جميعها تعتبر ضرورية بالنسبة لأنشطتهم الاجتماعية. كما يشترون أيضاً الثياب والأقمشة والأحذية وجميع الأدوات الخاصة بالرعي مثل: الدلاء المصنوعة من الجلد- أحواض الماء- الحبال- السرج- الأخشاب - أدراج سحب الماء من الآبار- العصي المصنوعة من الخيزران- وكذلك دلال القهوة وأباريق الشاي، وأواني الطبخ، والصواني، والفناجين. وتشتري النساء من السوق المصوغات والحلي بينما

والذخائر.

يشتري الرجال الخناجر المرصعة والأسلحة والذخائر. على الرغم من أن آل مرّة يشترون العديد من الأشياء إلاّ أنهم نادراً ما يبيعون أياً من منتجاتهم، وقد تقوم النساء أحياناً ببيع كرات الصوف التي يصنعنها من وبر الجمل إلى التجار والباعة في السوق، ومنهم من يبيع الجمال. وتشكل تلك المبيعات جزءاً ضئيلاً وغير منتظم من دخلهم.

أما المال الذي يستخدمونه لشراء حاجاتهم فهم يحصلون عليه من رواتبهم أو معاشاتهم في الحرس الوطني، وبشكل متزايد من الأجور التي يتقاضونها مقابل الأعمال التي يقومون بها. كما يحصل آل مرّة على نصيبهم من محصول التمر في واحة الإحساء عن طريق أميرها. وسنوياً في نهاية شهر رمضان يحصل أمراء القبائل على مبالغ خاصة من المال، وكميات من التمر من أمير الإحساء ومن الملك.

بما أن آل مرّة يحصلون على معظم دخلهم من الحكومة أكثر من بيعهم لمنتجاتهم، فمن السهل أن نظن أنهم يعيشون بفضل الإعانات الحكومية، إلاّ أن الأمر يعتبر أكثر تعقيداً من ذلك. فقبل اكتشاف النفط ونمو الاقتصاد المبني على السيولة وحدوث التغييرات الاقتصادية في السعودية، لم يكن استخدام الأوراق المالية منتشراً في جميع أنحاء المملكة، وكانت بعض الفئات من الشعب تتلقى مدفوعات عينية مقابل الخدمات التي تقوم بها. فالبدو كانوا يوفرون الحماية وأعمال الرعي للحضر من تجار وحرفيين ومزارعين مقابل مدفوعات عينية، ولا يمكن تجاهل تلك الحماية التي كان يوفرها البدو للمدن والقرى والقوافل والأسواق قبل إنشاء الدولة القوية. فآل مرّة كانوا تقليدياً يوفرون الحماية لسوق الخميس الذي يقام في نجران أسبوعياً، بينما كانت قبيلة آل هندي القريبة منهم توفر الحماية لسوق الاثنين الذي يقام في نجران أيضاً يوم الاثنين من كل أسبوع. ومقابل هذه الحماية كانوا يحصلون على حصتهم من محصول واحة نجران، بالإضافة إلى دفعات خاصة كانوا يتلقونها من الباعة والحرفيين. ولم يكن أي من القرويين أو الحضر يحمل السلاح أو يعرف كيف

يقاتل ، وبغياب الدولة القوية كانوا يعتمدون على البدو ، الخبراء العسكريين في المنطقة العربية .

منذ إنشاء الدولة الحديثة في السعودية في العقود الأولى من هذا القرن ، تمّ دمج القبائل ضمن الهيكلية العسكرية للدولة ، وهذا موضوع سوف نتطرق إليه بالتفصيل في الفصل السادس ، لكنهم ما زالوا يحصلون على المال مقابل دعمهم العسكري . أما الذي تغير في العلاقة بين القبيلة والقرية ، أو القبيلة والسوق هو أنه تمّ دمج جميع القبائل ضمن الحرس الوطني بقيادة الدولة ؛ لخدمة مصالح المملكة العربية السعودية أي الوطن بأكمله . وهكذا يحصل البدو على المال من قبل الحكومة المركزية مقابل خدماتهم العسكرية .

وحافظ البدو أيضاً على علاقات اقتصادية مع الحضر خارج الحماية العسكرية . فالعديد من الحضر ممن يملكون الحيوانات كانوا يعهدون بها إلى البدو لرعيها وتسمينها في المراعي الشتوية ، ويحق للراعي استهلاك حليب تلك الحيوانات طالما كانت بعهدته . كما أن العديد من البدو يملكون أراضي زراعية في الواحات ، ويعهدون بها إلى الحضر لزراعاتها ويقتسمون محصولها معهم . وكان الحضر يدعون خلال عمليات التبادل هذه أنهم ينحدرون من الجد نفسه وبذلك فهم ينتمون إلى القبيلة نفسها .

العلاقات السياسية

لقد أشرنا إلى العلاقات السياسية التي تربط بين البدو والحضر في سياق حديثنا عن الدور العسكري المتخصص للبدو ، لكن على الرغم من محافظة جميع القبائل على درجة عالية من الاستقلالية السياسية ، لكنها بصفتها قبائل مسلمة فهي تعترف بوجود سلطات سياسية دينية عليا تتعدى مكانتها الهيكلية القبلية . فمنذ إنشاء الدولة السعودية الحديثة ، وإبان حكم الملك عبد العزيز بن سعود ، اعترف البدو بشرعية الدولة ، وكانوا بكل فخر يرددون أنهم آل مرّة من

آل فيصل أتباع الملك فيصل مقربين بذلك أنفسهم لأشخاص لا تربطهم بهم أية صلات قرابة .

وبالنسبة لآل مرّة هناك وجهان للدولة السعودية الحديثة ، فعندما يتحدثون عن الدولة فهذا يعني البيروقراطية الحديثة ، أما عندما يتحدثون عن الحكومة فهذا يعني أفراد آل سعود العائلة المالكة وبعض الأسر الرائدة السياسية الدينية الأخرى . فهم يعتبرون أنفسهم من المؤيدين المميزين للحكومة على أنها القائد الشرعي للدولة الإسلامية ، بينما ينظرون إلى الدولة ببعض القلق نظراً لأهميتها وسلطتها المتزايدة يوماً بعد يوم .

ويلعب الأعضاء البارزون في الحكومة دوراً هاماً في مجال الوساطة لحل النزاعات التي تنشأ بين القبائل أو بين عناصر من القبيلة نفسها . فمنذ العقد الأول من هذا القرن أقام آل مرّة علاقات وثيقة بفرع آل جلوي المنبثق من آل سعود والذين يحكمون منطقة الإحساء والمنطقة الشرقية . فعند نشوء أي خلاف بين أفراد آل مرّة أو بينهم وأفراد القبائل الأخرى ، يتم إعلام الحاكم فوراً بالأمر ، فيبدأ بعملية الوساطة أو يصدر الحكم في الموضوع ، ومن ثم يتم عرض الحكم على القاضي لاعتماده .

وكما رأينا في الفصل الرابع فإن أمير آل مرّة يلعب دور المتحدث أو المحامي بالنيابة عن أفراد القبيلة أثناء تعاطيهم مع الحكومة . أما فيما يتعلق بالقضايا التي يتعذر على الحاكم المحلي الحكم فيها يتم رفعها إلى الملك مباشرة .

ويدخل الزواج ضمن علاقات آل مرّة بالحكومة ، إذ يمكن للمرأة التي تنتمي إلى قبيلة تتمتع بمكانة الأمراء أن تتزوج من أحد أفراد الحكومة ، مما يسهم في توثيق التحالفات السياسية وتقويتها بين القبيلة والحكومة . أما الأولاد المنبثقون عن هذا الزواج فهم يتمتعون بمكانة الأب وتتم المحافظة على علاقاتهم بأهل والدتهم لأجيال عديدة . فلآل شريم مثلاً علاقات بالمصاهرة مع آل جلوي ، وآل ثاني حكام دولة قطر ، كما لآل مرضف علاقات بالمصاهرة مع آل عبد الرحمن الفرع المنبثق من آل سعود ، ولآل نقادان علاقات مع آل ثاني .

المعاملات الدينية

والطريقة الأساسية الثالثة التي تربط البدو بالمجتمع الواسع فهي من خلال الدين ، وسوف نتطرق لموضوع الدين في الفصل القادم . ويكفي أن نذكر هنا أن هناك العديد من المعاملات الدينية التي لا يمكن إنجازها إلاّ في المدن مثل عقد الزواج ، والختان ، والمعالجة ، ودفع الزكاة . وبما أنه لا يوجد لدى آل مرّة أي من شيوخ الدين لتأمين تلك المعاملات ، لذا وجب عليهم التوجه إلى المدينة وبالتحديد إلى الهفوف في أكثر الأوقات .

فعقد الزواج هو من صلاحيات السلطات الدينية في المدينة ، إذ يجب أن يعتمد أحد مشايخ الدين الإسلامي الشرعيين عقد الزواج قبل أن يصبح نافذاً ، فقبل إقامة حفل الزواج يتوجه العريس برفقة وكيل العروس إلى المدينة لإعلام المأذون بالنية في إتمام عقد الزواج . فيقوم الشيخ بالتحري عن صلات القرابة التي تربط بين العروسين لتفادي أي أمر حرام ، ويتأكد من موافقة العروس على الزواج قبل تحرير العقد . ويتم الزواج الفعلي بعد الاحتفالات التي تقام في الصحراء .

مقابل مبلغ صغير من المال يقوم المطوع بعملية الختان التي تجرى للذكور قبل سن البلوغ ، وهذا أمر واجب . وبعد تلاوة الصلوات التقليدية يقوم المطوع بختان الولد ، ويرافق العملية لدى الحضر احتفالات صاخبة . أما بالنسبة لآل مرّة فإن العملية تتم بهدوء بسبب وجودهم في المدينة وبعدهم عن مضاربهم .

يعتمد آل مرّة على بعض المطاوعة المشهورين بقدراتهم العلاجية في منطقة الهفوف ، لكنهم يمارسون أيضاً الطرق البدائية في المعالجة التي تعتمد على الحرق ، ويداوون الجروح السطحية ويهتمون بعمليات الولادة . أما في الحالات الصعبة فهم يراجعون الأطباء المختصين أو المطاوعة أو الاثنين معاً .

بالنسبة لخلع الأسنان فإن هذه العملية تتم في الهفوف من قبل الأطباء المختصين حتى لو كان الأمر يتطلب قطع مسافة ٤٠٠ ميل ، التي تفصل الهفوف

عن الربع الخالي .

أما حالات الجنون فتتم معالجتها من قبل شيوخ الدين في الهفوف ، حيث تقرأ على رأس المريض آيات خاصة من القرآن الكريم .

يقوم مندوبون عن بيوت آل مرّة كافة بزيارة مدينة الهفوف في نهاية كل شهر قمري للحصول على رواتبهم من الحرس الوطني ، فيتجمع أفراد عشائر وأفخاذ آل مرّة في السوق . ويتمركز الأمير طالب الذي يقوم بزيارات عمل منتظمة إلى الهفوف لمراجعة أمير الإحساء ، في دكان أحد التجار الذين كانوا يتمتعون بحماية متوارثة لهم من قبل أجداد ذلك الأمير .

وهكذا يتحول سوق الهفوف إلى مركز اجتماعي لآل مرّة وللمئات من أفراد القبائل الأخرى الذين يتوافدون عليه لشراء حاجياتهم وتسديد ديونهم ، ولقاء أفراد الأفخاذ الأخرى والاستماع إلى أخبار الصحراء .

وآل مرّة مثل باقي بدو السعودية يعتمدون على المدينة والمجتمع الواسع في أشياء كثيرة أساسية في حياتهم . لكن المري لا يحب المدينة ويفضل مغادرتها بسرعة ، لذا نراه يعجل في إنهاء أعماله والعودة إلى قطيعه . فهو لا يشعر وكأنه في بيته ، ويتذمر من البعوض ، ولا يجد الحليب ، ويصاب بالبرد أثناء فصل الشتاء ، والأهم من كل شيء لا توجد أية صلات قرابة بينه وبين الحضر . لذا نراه يبقى بقرب أفراد قبيلته يتحدث معهم عن الجمال والصحراء . وهو يذهب إلى المدينة لأنه مضطر إلى ذلك ، وعندما يغادرها تسمعه يغني فرحاً .

الفصل السادس

القيم الإسلامية في المجتمع

القيم الإسلامية في المجتمع

في نهاية فصل الخريف من عام ١٩٦٨ ، وبعد أشهر قليلة من انضمامي لعائلة الكربي وبيته في الربع الخالي ، ذهبت مع مرزوق شقيق الكربي الأصغر لقيادة قطيع من الإبل الذي يتضمن حوالي ٧٠ جملاً ، عبر السهل الواسع الذي لم يكن يوجد فيه سوى بعض الأعشاب اليابسة . وكانت الأخبار قد وصلت عن هطول أمطار كثيرة في الشمال ، فبدأنا رحلة العودة إلى بئر فاضل قبل التوجه نحو الشمال . فنظر مرزوق إلى السماء وخاطبني قائلاً لقد حان موعد الصلاة . وبينما توجهت باقي الجمال نحو الشرق ، أدرنا نحن الجمال التي كنا نركبها نحو الغرب ، وضربناها ضربة خفيفة على عنقها بواسطة قضيب الخيزران ، مصدرين أصواتاً خاصة لجعلها تركع ومن ثم ترجلنا .

قام مرزوق برسم نصف دائرة بواسطة العصا على الرمل باتجاه الغرب أي باتجاه الكعبة الشريفة في مكة المكرمة . فركع كل منا على الأرض ووضعنا راحة أيدينا على الرمال واغتسلنا بها . بعدها وقف مرزوق وسألني إن كنت أريد أن أدعو إلى الصلاة ، فطلبت منه أن يفعل فوضع يديه بشكل بوق أمام فمه وراح ينادي بأعلى صوته :

اللّه أكبر اللّه أكبر
اللّه أكبر اللّه أكبر
أشهد أن لا إله إلا اللّه
أشهد أن لا إله إلاّ اللّه
أشهد أن محمداً رسول اللّه
أشهد أن محمداً رسول اللّه
حي على الصلاة ، حي على الصلاة
حي على الفلاح ، حي على الفلاح

الله أكبر الله أكبر
لا إله إلاّ الله .

ثم وقفنا ، القدم اليسرى لي خلف القدم اليمنى له ، ووقفت أنا إلى يمينه لأنني لم أكن على علم كافٍ بالإسلام ، ورددنا بصمت الفاتحة ، وهي السورة الأولى من القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلاَ الضَّالِّينَ

ثم رددنا بعض الآيات القرآنية الأخرى ، وركعنا عدة مرات لنمس الرمال بجبهتنا . وبعد عدة ركعات جلسنا لبضع دقائق ، بعدها نظر إلى مرزوق وتحداني في سباق لنرى من هو الأسرع في اللحاق بالقطيع .

معظم الكتابات التي تحدثت عن البدو وباقي الشعوب من الرعاة في منطقة الشرق الأوسط ذكرت أن الدين لا يدخل ضمن اهتماماتها ، كما أشارت إلى أنهم نادراً ما يصلون ، ولا يعيرون الدين الإسلامي سوى اهتمام بسيط ، مع العلم أن جميع البدو الشرق أوسطيين ينتمون إلى هذا الدين . وقد تحدثت إحدى الدراسات حول القبائل الإيرانية عن حياة البدو قائلة «إنها حياة شعائر فقيرة» (Barth 1961: 146) . على الرغم من أن آل مرّة غير متعمقين بالدين الإسلامي والفقه ، إلاّ أنه يشكل جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، فهم يتبعون صيغة مبسطة

منه تتناسب ونمط الحياة التي يعيشونها في الصحراء ، ويتمسكون بشعائره التي يولونها أهمية خاصة ، ويفتخرون بأن الدين قد خرج بهم إلى النور .

الإسلام

بدأ الإسلام في محيط مدينة مكة المكرمة التي كانت تشكل مركزاً تجارياً هاماً في شرق المنطقة العربية في العقدين الأولين من القرن السابع الميلادي . على الرغم من أن جذوره مرتبطة بثقافة ومجتمع الجزيرة العربية ، وأن لغته هي العربية إلاّ أنه شهد انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء العالم . والمؤمنون بهذا الدين ينتمون إلى مجتمعات مختلفة ومتنوعة مثل إندونيسيا ، والفلبين ، وشبه الصحراء الأفريقية ، وإيران ، وأفغانستان ، وباكستان ، وتركيا والعالم العربي . ويعتبر الإسلام من أسرع الديانات انتشاراً في العالم ، ويضم أكثر من مليار مؤمن .

ويعتبر الإسلام خاتما مكملاً لأحكام الديانتين اليهودية والمسيحية ، لكنه يشدد على أن اللّه واحد لا شريك له . فكلمة الإسلام تعني الوحدانية والطاعة للّه ، والمسلمون هم الذين يؤمنون بقدرة اللّه ووحدانيته . ولا يوجد في الإسلام شعب مختار أو قديسون ، فهو دين يساوي بين الجميع على الصعيد الإيديولوجي ومن خلال التنظيم الداخلي . فجميع المؤمنين متساوون ولا يوجد أي فرق بينهم . ويقال إن جوهر الإسلام يوجد في سورة «الإخلاص» في القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

ومن متطلبات الإسلام الأساسية هي تلك المعروفة بالأركان الخمسة وهي : الشهادة بأن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله – إقامة الصلاة- – إيتاء الزكاة - صوم رمضان- وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً . على الرغم من أن الإسلام قد شهد بعض الازدهار مع تطور العلوم الدينية منذ ظهوره في القرن السابع الميلادي ، إلاّ أن مدينة مكة المكرمة تمثل السلطة الشرعية الدينية بالنسبة لجميع المسلمين ، ومنهم آل مرّة وباقي البدو ما زالت محتفظة بمكانتها الدينية ودين النبي محمد ﷺ وأتباعه كما جاء ذكرها في القرآن الكريم .

وقد أشار أحد الدارسين المسلمين إلى أن الإلهام هبط على النبي محمد ﷺ ليس في الصحراء بين البدو ، إنما في مكة المكرمة التي كانت تمثل المركز التجاري للعرب في ذلك الوقت ، وأشار إلى أن القرآن الكريم انتقد سلوك البدو (Rahman 1966: 2) . يمكن شرح بداية الإسلام من الناحيتين السياسية والاجتماعية على أنها محاولة لخلق مجتمع جديد مبني على المعايير الشاملة بدلاً من الاهتمامات القبلية الضيقة . ومدينة مكة التي عرفها محمد ﷺ كانت تحكمها نخبة من التجار من قبيلة قريش ، الذين بسبب جشعهم وسعيهم لإثراء أنفسهم قد تخلوا عن المبادئ القبلية التي تقضي بتقاسم الثروة مع أفراد قبيلتهم وحماية الفقراء والغرباء . وكانت معظم أنشطة محمد ﷺ في بدايته موجهة ضد سلطة هذه النخبة من الحكام الذين ينتمون إلى قبيلته ، وكان همه مساعدة الفقراء والمحرومين في مكة . وتركزت معظم أنشطته ، لا سيما بعد هجرته من مكة إلى المدينة في العام ٦٢٢م ، على وضع نظام يساوي بين جميع المسلمين بغض النظر عن أصلهم ، كما ذكر الباحث في علم الإنسان أريك وولف :

لقد سمحت الثورة الدينية التي ارتبطت باسم محمد بإنشاء هيكلية أولية للدولة ، وجعلت الولاء لهيكلية الدولة بدلاً من الولاء لوحدة القرابة من خلال التعبير عن هذا الولاء بشكل ديني . وقد وضعت حداً للممارسات الخاطئة المتعلقة بالثأر الدموي ، كما وضعت حداً لامتداد الروابط المبنية على القرابة فقط بين القبائل ، وارتكزت على القوة المسلحة للمؤمن كجوهر للنظام

الاجتماعي الذي يضم المؤمنين وغير المؤمنين على حد سواء . كما وضعت الأسس البدائية للسلطة القضائية ، مرتكزة على دور المتكهن في مرحلة ما قبل الإسلام ومنحتها معنى جديداً . إن الحد من عمليات الثأر الدموي سمحت بإظهار عملية الحرب وكأنها عملية خاصة بسلطة الدولة وحدها ، وكانت الدولة تفرض الضرائب على المؤمنين وغير المؤمنين وفقاً للطريقة المتبعة ما قبل الإسلام ولكن لأغراض جديدة . وأخيراً فقد ثبتت مركز الدولة في المستوطنات الحضرية وأحاطت المدينة برموز دينية تهدف إلى الرفع من مكانتها ودورها (Wolf 1951: 352-353) .

على الرغم من أن محمداً ﷺ حاول أن يستبدل الهيكلية القبلية بهيكلية أشمل ، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم انتقد سلوك البدو ، إلاّ أنه كان للبدو تأثير كبير على بدايات الإسلام الذي ما زال حتى اليوم يناسب نمط الحياة التقليدية في الصحراء .

إن معظم حالات الظلم التي حاربها محمد ﷺ كانت ضد النخبة القبلية التي فقدت الاتصال مع سكان الصحراء كما يحدث اليوم ؛ إذ فصلت النخبة الحاكمة نفسها عن باقي شعب القبيلة ، ولم تعد تتبع المثل العليا التي تقضي بالمساواة ضمن القبيلة ، وراحت تشعر بأن مطالب الفقراء من أقربائها باتت تشكل العقبات أمامها في سعيها للحصول على المزيد من الثروات والسلطات .

ويقال إن محمداً ﷺ أمضى عدة سنوات في صغره مع البدو واكتسب منهم خبرات كثيرة أدت إلى شعوره الحاد بوجوب إيجاد عدالة اجتماعية . فإنسانيته برأيي ليست إنسانية حضري مرفّه ، إنما إنسانية بدوي يحكم على إنسان ما مهما كان وضعه في الحياة من خلال استقامته وأمانته . والبدوي اليوم يحتقر أي إنسان يتصرف بطرق ملتوية مهما علا شأنه ، وهو يعامل الأشخاص بالتساوي وفقاً لأفعالهم .

وقد شهدت علاقة البدو بالعالم السياسي الإسلامي تاريخاً مضطرباً ، فبعد تثبيت الدين الإسلامي في المدينة المنورة ، راح أتباع محمد ﷺ ينشرون تعاليم

الدين الحنيف بين البدو والشعوب الأخرى في المنطقة العربية . وفي عام ٦٣٢ م ، مباشرة بعد موت محمد ﷺ بدؤوا بغزو ما تبقى من جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا ، وقامت الجيوش المكونة من رجال القبائل العربية بغزو معظم أجزاء الإمبراطورية البيزنطية وإيران ، وتم تأسيس إمبراطورية واسعة شملت حدودها إسبانيا عبر شمال أفريقيا وباتجاه جنوب غرب آسيا وصولاً حتى الهند والصين . وانتقل مركز السلطة والفقه الديني من الجزيرة العربية إلى دمشق أولاً ثم إلى بغداد فقرطبة والقاهرة . وحتى العقود الثلاثة الماضية بقيت الجزيرة العربية في موضع خلفي منعزل ضمن عالم الإسلام السياسي والديني . أما البدو والأشخاص الآخرون الذين لم يرتحلوا مع الجيوش الإسلامية الأولى فقد أمضوا فترة قرن كامل يعيشون في الصحراء المعزولة والفقيرة ، ويقال إنهم عادوا يمارسون طرق الحياة التي كانت متبعة قبل ظهور الإسلام .

النهضة الدينية وإنشاء الدولة العربية السعودية

بدأت الحياة تتحرك في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي ، وبدأت حركة النهضة الدينية في المناطق الحضرية . فقام شخص يدعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالتنقل من مدينة إلى أخرى في المنطقة العربية الوسطى ، فزار مكة المكرمة ثم المدينة المنورة ، ثم انتقل إلى البصرة في جنوب العراق ، وعكف على دراسة القرآن الكريم والكتابات الأخرى بكل دقة ، فاتضح له أن جميع البدو وسكان المدن الواقعة في منطقته هم مسلمون بالاسم فقط ، إذ ما زالوا يؤمنون بخرافات كثيرة بدلاً من عبادة اللّه وحده ، كما أنهم كانوا يصلون للحجارة والأشجار ويؤمنون بالقدرات الخارقة للقديسين الأحياء والأموات .

فبدأ منذ عام ١٧٤١م بنبذ جميع تلك الممارسات علناً ودعا إلى العودة إلى تعاليم القرآن ، وجمع حوله عدداً من الأتباع . وفي عام ١٧٤٤م عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب تحالفاً مع الأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية ، وهي

واحة صغيرة تقع قرب مدينة الرياض الحالية في وسط الجزيرة العربية .

والتحالف الذي تمّ بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود كان مبنياً جزئياً على تعاليم الإصلاحي من القرون الوسطى الشيخ ابن تيمية ، وهو صاحب الرؤية التي تقول إن المجتمع الإسلامي المثالي يجب أن يتضمن طبقتين في السلطة : طبقة العلماء الذين يملكون معرفة الشريعة الاسلامية ، وطبقة الأمراء الذين يملكون القوة السياسية اللازمة لتطبيقها . (Laoust 1939: 294) وتعهد كل من آل سعود وآل عبد الوهاب (ويعرفون اليوم باسم آل الشيخ) بالمحاربة من أجل إصلاح المعتقدات والممارسات الدينية وإنشاء الدولة الإسلامية . وما زال هذا التحالف قائماً حتى اليوم .

لكن إنشاء مثل هذه الدولة لم يكن بالأمر السهل ، ويصف المؤرخون هذه الحقبة من تاريخ الجزيرة العربية على أنها مرحلة عمت الفوضى خلالها جميع القطاعات . فقد استولى السلاطين العثمانيون على مكة المكرمة والمدينة المنورة في منطقة الحجاز ، بينما كانت الإدارة المحلية للمنطقة بيد الهاشميين من سلالة النبي محمد ﷺ . وكانت سلالات أخرى ، يتبع كل منها مذهباً إسلامياً مختلفاً تحكم المرتفعات اليمنية ، ومنطقة نجران ، وعمان .

أما إلى الشرق فقد كان شيخ قبيلة بني خالد البدوية يسيطر على الواحات وطرق القوافل في هذا الجزء من الجزيرة العربية . أما بقية المنطقة فكانت مقسمة بين البدو والحضر ، وكان كل من القبائل البدوية والمدن يسعى للمحافظة على استقلاليته مما تسبب في وقوع حروب عديدة نتيجة لذلك .

وكان الإصلاح الذي دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب متزمتاً يدين جميع أنواع الرذيلة مثل التبغ ، والمشروبات الروحية ، والملابس الفاخرة ، والغناء والرقص ، وأي نوع من السلوك الخشن ، ولا يسمح بأي تقاعس فيما يتعلق بأداء الواجبات الدينية . ونتيجة لذلك أصبح يشار إلى السلافيين (أو الوهابيين كما كانوا يطلقون عليهم بعض من الناس) على أنهم متعصبون مصارمون ومتزمتون .

وكان لدعوة العودة إلى الإسلام الصحيح أثر كبير في اجتذاب عدد كبير

من الاتباع ، لا سيما في المدن الواقعة في وسط الجزيرة العربية ، كما استقطبت العديد من المنشقين لا سيما من رجال القبائل البدوية . وتم البدء بتشكيل الحملات العسكرية م قبل الإصلاحيين ليس فقط من أجل تصحيح الأوضاع الدينية إنما من أجل إنشاء الدولة المركزية أيضاً . ومنذ القرنين الماضيين وحتى عام ١٩٣٢ تاريخ ظهور الدولة السعودية العصرية رسمياً استمر آل سعود بالتحالف مع آل الشيخ بالمحاربة لإدخال ومراقبة الإصلاح السياسي والديني في الجزيرة العربية .

وقد نجح هذا التحالف في حكم معظم الجزيرة العربية في الفترة ما بين ١٧٩٢ و١٨١٤ ، وتوسع حتى راح يهدد جنوب العراق وسوريا ، إلاّ أن القوات المصرية استطاعت أن تهزم هذا التحالف في عام ١٨١٨ ، ودمرت الدرعية عاصمته الدرعية واقتادت قائده الإمام عبد اللّه آل سعود إلى إسطنبول ، حيث أعدم بسبب تمرده ضد الإمبراطورية العثمانية وبسبب الهجمات التي شنها السلفيون ضد النخبة الدينية في مكة والمدينة . وحاول آل سعود استعادة السلطة في الجزيرة العربية ، ونجحوا بذلك في الفترة ما بين ١٨٤٠ و١٨٩١ ، إلاّ أنهم اضطروا للتنازل عنها في الفترة ما بين ١٨٩١ و١٩٠٢ لصالح الرشيد قادة قبيلة الشمر البدوية .

وعاش الشاب الأمير عبد العزيز آل سعود وباقي أفراد الأسرة خلال هذه الفترة في المنفى ، حيث أقام في البادية مع آل شريم ، أسرة أمير آل مرّة ، ومن ثم انتقل إلى الكويت التي غادرها في عام ١٩٠٢ . ومن خلال محاولة جريئة استطاع عبد العزيز آل سعود استعادة مدينة الرياض والبدء بحرب طويلة من أجل إعادة إنشاء الدولة المركزية التي انتهت بتأسيس المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢ .

وكانت مشاركة البدو متنوعة ومتناقضة خلال الصراع الطويل الذي قاده آل سعود وآل الشيخ لإرساء قواعد الدولة الإسلامية المركزية في الجزيرة العربية . ومن المفيد في هذا المجال الرجوع إلى تصور ابن خلدون ، الدارس التونسي الذي

عاش في القرن الرابع عشر ، والذي يعتبر أول عالم اجتماع في العالم . فقد طور ابن خلدون أنموذجاً يشرح من خلاله طريقة تفاعل البدو مع السلطات المركزية الدينية السياسية في أوائل القرون الهجرية . فوفقاً لابن خلدون كان البدو يتمتعون بعزة النفس ويرفضون الاعتراف بتفوق أي شخص كان عليهم ، كما كان من الصعب جداً قيادتهم إلاّ عند اتباعهم لرجال الدين أو المشايخ ، لأن الدين وحده كان قادراً على التقليل من تعاليهم والحد من غيرتهم وتنافسهم .

ووفقاً لأنموذج ابن خلدون فإن تفاعل البدو مع الحضر يتم طبقاً لدورة تتضمن أربع مراحل . فخلال المرحلة الأولى يتحد البدو بسبب الحماسة الدينية مع بعض العناصر الخاصة بالحضر ، ويثبتون أنفسهم كحكام على المنطقة من خلال الفتوحات ، وعادة ما يحتل الحضر المراكز السياسية والدينية الهامة بينما يحتفظ البدو بالمراكز العسكرية .

وتتميز المرحلة الثانية بتقوية قواعد الدولة في المنطقة بوجود درجة عالية من الحماسة الدينية المتزمتة . وتشهد الفنون والعلوم في المرحلة الثالثة درجة عالية من التطور وتخف نسبة التزمت في الدين ، ويفقد البدو اهتمامهم بهذه التجربة الجديدة ويبدأون بالعودة إلى ممارسة أنشطة الرعي . أما المرحلة الرابعة فتكون عبارة عن فترة طويلة من الانحدار ، حيث يتخلى فيها البدو عن الدولة ويعودون إلى حياتهم شبه الفوضوية في الصحراء .

ويلقي السير ريتشارد إيفانز-بريتشلرد في دراسته حول حركة الإصلاح الإسلامية التي اتبعتها الطريقة السنوسية في ليبيا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الضوء على مشاركة البدو في الحركات الإصلاحية الدينية . فسبب نجاح الإخوان السنوسيين في ليبيا يعود إلى اعتمادهم زويات موازية للتقسيمات القبلية في البلاد ، حيث كان يتم ربط كل زاوية يضم أعضاء من الإخوان السنوسيين إلى قسم معين أو الفخذ التابعة للقبيلة . وهكذا تمكنوا من تأسيس منظمة وطنية أقوى من القبائل ، ولم يحاولوا تغيير قواعد الهيكلية القبلية . لقد تمكنوا من جمع القبائل ضمن هيكلية شاملة عرفت بالإخوان السنوسيين .

أما في الجزيرة العربية فقد حاول آل سعود وآل الشيخ إحداث تغييرات جذرية لدى البدو وضمهم إلى هيكلية الدولة الإسلامية الجديدة ، ونتيجة لذلك فقد كان البدو يناصرونهم في بعض الأحيان ويقفون ضدهم في أحيان أخرى . وقد كسب السلافيون أهم المعارك ضد القوى المعادية بسبب بسالة البدو المتدينين ، مع العلم أن أهم الأخطار الداخلية التي كانت تتهددهم كانت بسبب هؤلاء البدو أنفسهم وأمرائهم القبليين . وقد أشارت الملاحظات التي أبداها ابن خلدون منذ ما يقارب القرن في بداية الإسلام إلى عدم رغبة البدو بالاعتراف بسلطة الآخرين والصعوبة في قيادتهم ، وكانت مثل تلك الأمور ما زالت مسيطرة في العقدين الأوليين من القرن العشرين ، عندما حاول الإمام عبد العزيز آل سعود توحيد السلطة في الجزيرة العربية .

الإخوان

كنت قد تحدثت في الفصول السابقة عن نمط الحياة لدى آل مرّة والذي تحدده الفصول واحتياجات الرعي ، وكنت قد أشرت إلى أن كل شيء يتم بدرجة عالية من الانتظام من دون أي تأثير للعوامل السياسية الخارجية والاقتصادية على عملية الرعي . هكذا كان الوضع المسيطر خلال إقامتي مع آل مرّة والذي استمر على هذه الحال لأكثر من جيل ، لكنه كان قد شهد بعض التغيرات في الفترة ما بين ١٩٣٠ و١٩٤٠ أثناء عملية تثبيت قواعد الدولة السعودية الحديثة ، مما أثر سلباً على المناخ السياسي السائد لدى آل مرّة وباقي القبائل العربية ، فأصبحت الغزوات والغزوات المضادة ، وعمليات الثأر الدموية ، والحروب الصغيرة بين أفراد القبائل وسكان القرى على جدول الأعمال الحياتية اليومية . ويبرز دهاء الملك عبد العزيز آل سعود في قدرته على إقرار الأمن في جميع المناطق المبعثرة في الجزيرة العربية ، ودمج القبائل المحاربة والمتمردة ضمن هيكلية الدولة التي أسسها .

ترتكز إيديولوجية الملك عبد العزيز آل سعود على الدين الإسلامي حسب مفهوم الإصلاحيين الوهابيين ، وعلى عكس الإصلاحيين السنوسيين في ليبيا الذين ربطوا أنفسهم بتقسيمات القبائل الليبية ، من دون محاولة تغيير الهيكلية القبلية ، فإن آل سعود وآل الشيخ حاولوا إحداث تغييرات جذرية في المعتقدات الدينية ، والهيكلية الأساسية ، والاقتصاد لدى البدو ، مما تطلب إيجاد برنامج تعليمي وتبشيري لهداية البدو مجدداً نحو الإسلام الصحيح ، وحثهم على التخلي عن الممارسات الوثنية .

وكان العديد من الأشخاص يعتقدون أن حياة البداوة لا تتناسب مع حياة المسلم الحقيقي ؛ لأنها لا تتيح لهم فرصة الوضوء بانتظام بشكل صحيح ، وتحول دون تعلمهم قراءة القرآن الكريم بسبب عدم ذهابهم إلى المدارس .

ومن أهم التنظيمات التي أوجدها الملك عبد العزيز آل سعود لإحداث تلك التغييرات بين البدو كان تنظيم الإخوان المسلمين . فمنذ عام ١٩١٢ نجح الملك عبد العزيز آل سعود في إقناع البدو بإقامة ٢٠٠ هجور (مستوطنة) عبر الصحراء العربية ، وكانت تلك المدن الجديدة عبارة عن معسكرات ، ومستوطنات زراعية ، ومراكز دعوة إسلامية في آن واحد ، وكان معظم سكانها والذين ينادون بعضهم بالإخوان من بدو المنطقة العربية الوسطى . وعلى الرغم من أن التنمية الزراعية كانت تشكل أهم أهدافها ، إلاّ أنه تمّ إهمال هذا النوع من الأنشطة والتوجه نحو نشر الإسلام بين البدو ، وإنشاء جيش من المجاهدين على أتم الاستعداد للمحاربة في أي وقت تحت راية آل سعود وباسم الإسلام .

ومشاركة آل مرّة في تنظيم الإخوان كانت فاترة بسبب عزلة ديرتهم وبعدها عن مراكز الحركة في وسط الجزيرة العربية ، فعلى الرغم من اهتمام العديد منهم بحركة الإخوان السياسية الدينية ، وتأثرهم بتعاليمها ، إلاّ أنه كان من المستحيل لديهم ترك إبلهم والانتقال للعيش في المستوطنات الزراعية الحضرية . وقام أفراد آل مرّة بتأسيس أربع هجور في جبرين ، والخن ، والسكك ، وانباك ، ولم يشارك أي من آل شريم ، قبيلة أمير آل مرّة ، أو أتباعها في تنظيم الإخوان ، ولم يحاول

أحدهم أن يستقر في المستوطنات، لكن العديد من آل مرّة قد شاركوا في الأنشطة العسكرية لجيوش الإخوان لفترات زمنية محددة. ومنذ البداية تعرضت الهجور التي أنشأها آل مرّة لمرض الملاريا، ولم تكن تملك ما يكفي من الماء لتنمية الزراعة على مستوى واسع.

أما القبائل التي شاركت بفاعلية في تنظيم الإخوان وكان لها تأثير كبير عليه فهي المطير، والعتيبة، وحرب، وشمر، وكانت جميعها متمركزة في القسم الشمالي من الجزيرة العربية. وقد شاركت كل واحدة منها في تطوير عدد كبير وناجح من الهجور بقيادة أفراد من أسر الشيوخ فيها. وعلى الرغم من أن عملية التحضر كانت تطوعية، إلاّ أن الملك عبد العزيز آل سعود كان يهتم بتحضير القبائل أكثر من غيرها وإحلال السلام بينها. على سبيل المثال كانت قبيلة المطير ناشطة جداً في مجال الغزوات في شمال شرق الجزيرة العربية، وكانت من أولى القبائل التي تمّ تحضيرها. فقد استطاع المبشرون الوهابيون في نهاية عام ١٩١٢ وبداية عام ١٩١٣ إقناع المطير ببيع إبلهم وخيولهم في أسواق الكويت والاستفادة من ثرواتهم الجديدة لبناء مجتمع جديد لهم في وادي الأرطاوية، كما تمّ إقناعهم أيضاً أن البداوة هي ضد الإسلام الحقيقي، وأنه عليهم التخلي عن الغزوات والأحقاد المميتة والاستقرار في أرضهم وزراعتها ودراسة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

وسهولة الاقتناع لدى المطير والقبائل الأخرى للتخلي عن أنشطة الرعي والاستقرار في مجتمعات جديدة يمكن تفسيره جزئياً بسبب واجباتهم الخاصة في المشاركة في حرب الجهاد ضد الملحدين، ولم يتخلّ جميع أفراد القبيلة عن أنشطة الرعي بل استمر البعض منهم بممارساتها ضمن الهجور الجديدة، مع العلم أنه كان يجب على جميع الرجال الأصحاء أن يكونوا على أتم الاستعداد في أي وقت كان للمشاركة في الجهاد وجيوش الإخوان بقيادة أمرائهم. ويمكن القول إن الفضل في كسب معظم المعارك العسكرية التي أدت إلى إنشاء الدولة السعودية يعود إلى أولئك البدو، لأنهم كانوا يجمعون بين مهارات التحمل

والقتال التي اكتسبوها من خلال عيشهم في الصحراء ، والحماسة الدينية . مما جعلهم يحاربون ببسالة ضد جيوش تفوقهم عدداً وعتاداً .

ولعل أهم الانتصارات التي حققتها جيوش الإخوان كانت في الحجاز في عام ١٩٢٣ ، حيث استطاعوا بواسطة البنادق القديمة والخناجر من هزم الجيش النظامي التابع لحكام مكة وباقي الحجاز من الهاشميين ، واستولوا على مدينة الطائف الواقعة في الجبال التي تطل على مكة بعد معركة بالأيدي . ثم توجه جيش الإخوان على ظهور الجمال مع بنادقهم الموجهة صوب الأرض إلى مدينة مكة التي احتلوها من دون إطلاق رصاصة واحدة ، وتبعهم عبد العزيز آل سعود وباقي أفراد آل سعود الذين قبلوا استسلام الهاشميين وأعلنوا عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز .

وبسبب نشوة الانتصارات قرر العديد من الإخوان متابعة الصراع ضد الذين يختلفون عنهم في العقيدة الإسلامية ، وكان أفراد الأسرة الهاشمية يتربعون على عرش كل من الأردن والعراق ، ويتعاونون مع البريطانيين الذين كانوا يعتبرون من الملحدين ، لذا قرر الإخوان وبمبادرة شخصية منهم بالإغارة على جنوب العراق والأردن ، فرد البريطانيون على ذلك بغارات جوية وهددوا الملك عبد العزيز آل سعود باحتواء الإخوان ضمن بلده أو تحمل نتائج الهجمات البريطانية .

ولم تكن العلاقة بين الإخوان وآل سعود سلسة دائماً ، وكما ذكرنا سابقاً فإن غرض الملك عبد العزيز آل سعود من وراء خلق تنظيم الإخوان كان في تحويل القبائل من وحدات شبه مستقلة تتمتع كل واحدة منها بجيشها الخاص من المحاربين إلى قوة مركزية تكن الولاء له وللدولة المركزية الجديدة التي كان يحاول تأسيسها .

كانت إيديولوجية الدولة الجديدة مبنية أساساً على الإسلام ، لكن عندما بدأ الملك عبد العزيز آل سعود بتعزيز تحكمه بالجزيرة العربية أصبح يستخدم بعض العبارات الأكثر مدنية . فقد اتخذ لنفسه في البداية لقب إمام ، وهو لقب

ديني يعني رئيس المجتمع الديني ، ثم اتخذ لنفسه لقب سلطان وهو لقب أكثر منه مادياً من ديني حتى وصل في النهاية إلى لقب ملك وهو لقب مادي صرف . وفي هذه الأثناء كان عليه أن يختار بين اتباع القرآن والشريعة الإسلامية حرفياً أو اعتماد ممارسات جديدة تتفق مع العالم الجديد ، مثلاً فيما يختص بحقل التعليم فقد اختار خليطاً من التعليم الحديث بالإضافة إلى التعليم الديني ، بدل من أن يختار نظام التعليم الديني الصرف الذي كان يصر عليه علماء الدين .

واتجه العديد من الإخوان نحو المزيد من التعصب ورفضوا فكرة استخدام الاختراعات الجديدة مثل السيارة ، والهاتف ، والتلغراف على أساس أنها اختراعات الشيطان وأتباعه ، لكن أصر الملك عبد العزيز آل سعود على إدخال التربية المدنية والتقنية الحديثة إلى الجزيرة العربية . ونتيجة لذلك فقد الإخوان أملهم به ولم يعودوا يؤمنون أنه سيؤسس الدولة الإسلامية التي صورت لهم ، وأيقنوا ذلك عندما سعى إلى احتواء تقدمهم نحو الأردن والعراق ، وقام بإخضاعهم في الخريف من عام ١٩٢٩ من خلال المعارك التي شنها ضدهم ، مستعيناً بجيوش مؤلفة من الشعوب الحضرية التي لا تنتمي إلى الإخوان .

ربما كان حديثي عن موضوع الإخوان مختصراً لكنه يشير إلى أنه قد تم إلغاء الاستقلالية أو شبه الاستقلالية البدوية في الجزيرة العربية إلى الأبد . وقد شكل الإصلاح الإسلامي أهم العوامل التي أثرت على الجهود التي بذلت لدمج القبائل ضمن هيكلية الدولة المركزية ، وعندما بدأت جيوش الإخوان بالعمل باستقلالية ومن دون موافقة الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان قد حول نفسه إلى قائد مدني ، تمت إبادتها من قبل جيوش تدين بالولاء للملك عبد العزيز آل سعود بصفته الحاكم المدني للدولة .

وهناك عامل آخر عادة ما يتم إغفاله عند الحديث عن توقف نشاط الإخوان وهو الفشل الواسع الذي واجهته تلك المجتمعات الجديدة في تنمية الزراعة بشكل ناجح ، فالمستوطنون من الرعاة البدو لم يكونوا على أية معرفة بالأمور

الزراعية ولم يبدوا أي حماسة لتعلمها ، بالإضافة إلى ذلك لم تكن الموارد المائية تكفي لدعم التنمية الزراعية على المستوى الواسع ، إذ كانوا يمتلكون بعض المعدات البدائية لحفر الآبار الضحلة ولم يتمكنوا من الوصول إلى المياه الجوفية العميقة . ونتيجة لذلك فقد استهلكت المجتمعات الجديدة مخزون المياه الجوفية السطحية واضطرت لمغادرة مواقعها . وقد دفع هذا العامل البيئي العديد من الذين جاءوا إلى المستوطنات إلى العودة إلى الصحراء ورعي الحيوانات لتأمين معيشتهم .

وواجه هؤلاء العائدون وضعاً مختلفاً عن الوضع الذي كان سائداً قبل وجود الإخوان ، فالقوة العسكرية المستقلة التي كانت تتمتع بها القبائل قد انكسرت وهزمت على يد جيوش آل سعود ، كما تم قتل أو مصادرة الخيول التابعة لهم والتي تشكل أهم وسيلة للمواصلات لديهم . أما الذين لم يتعرضوا للهزيمة العسكرية فقد أجبروا من قبل آل سعود بالتخلي عن خيولهم والامتناع عن أية أنشطة عسكرية لا تنطوي تحت لواء آل سعود ، كما منعت الإغارة على القبائل الأخرى ومضايقة المسافرين تحت طائلة العقوبة ، وبات للدولة شرطة تسهر على أمنها .

وتم أيضاً إرساء أسس النظام القضائي القبلي ، ففي الماضي كانت تتخذ جميع الأحكام الشرعية بين البدو طبقاً للأعراف القبلية ، وكان القاضي الذي يسمى بالعارف رجلاً حكيماً يعرف التقاليد القبلية ، وكانت أحكامه التي لا تدعمها أية قوة جسدية تنفذ من قبل الرأي العام . ومنذ البداية قرر آل سعود أن الشريعة الإسلامية هي النظام الشرعي الوحيد المقبول ، وتعتبر باقي الممارسات كافة غير شرعية ، كما تم إنشاء المحاكم الدينية وتطبيق الشريعة الإسلامية بحرفيته ، وحتى أيامنا هذه فإن جميع الأمور القانونية تعتبر من اختصاص المحاكم الشرعية .

الإسلام والبدو اليوم

إن ما نتج عن الفترة الطويلة من الاضطرابات التي سبقت تأسيس المملكة العربية السعودية ، كما نعرفها اليوم ، لم يكن ما تصوره معظم المشاركين في حركة الإصلاح الدينية التي قادها آل سعود وآل الشيخ ، ومن المؤكد أن السلطة المدنية التي أصبحت حكراً على آل سعود قد طغت على سلطة العلماء ، على الرغم من أن هذه الأخيرة ما زالت تتمتع بسلطة قوية ضمن المجتمع السعودي المعاصر ، ويبقى الإسلام هو القوة الإيديولوجية الرئيسية ، وتحتل المبادئ والمفاهيم الدينية القسم الأكبر من المقررات المدرسية . وتستند الأحكام القانونية إلى الشريعة الإسلامية ، كما يتم استشارة العلماء في معظم قرارات الدولة . ومما لا شك فيه أن العالم العصري قد أدخل بعض التحديثات في الجزيرة العربية ، لكن الحكام ما زالوا يعتمدون على القرآن الكريم وتعاليم الإسلام في جميع أعمالهم .

وانتقدت بعض المجموعات الحضرية المتدينة والمحافظة آل سعود على تشجيعهم للتغيرات العصرية في الجزيرة العربية ، وعدم مشاركة العلماء بالتساوي ، على عكس البدو الذين امتدحوا الملك عبد العزيز وآل سعود لإحلالهم السلام والأمان في الصحراء ، وللفوائد التي حصلوا عليها من جراء النمو الذي طرأ على الاقتصاد . فهم يتذكرون ماضيهم الفقير والمضطرب حيث كانوا يعيشون هاجس الغزوات ، أما اليوم فقد تحسن مستوى المعيشة لديهم ، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل القادم .

أفضل ما حققته حركة الإخوان من نجاح كان النشاط المتعلق باهتداء البدو إلى الصراط المستقيم . وقد تحدث عالم الجغرافيا المشهور ألويس موزيل ، الذي تنقل عبر شمال الجزيرة العربية وأقام لبعض الوقت مع قبيلة الرواله في بداية هذا القرن ، عن عدم معرفة عدد كبير من البدو للفاتحة ، وإقامة عدد ضئيل منهم الصلاة في أوقاتها ، وعدم اهتمامهم بالدين . وفي عام ١٩١٤ قام بزيارة

مدينة الجوف التي احتلها الرواله ، وقد أدهشه العمل الذي قام به الإخوان في مجال تعليم وهداية البدو . (Musil 1927: 426) واليوم يتمسك البدو بالشعائر الإسلامية ويسعون لتعلم المزيد عن الدين . فهم ليسوا متعصبين كما كان آباؤهم وأجدادهم الذين حاربوا مع الإخوان والذين كانوا يؤمنون أن السيارة ، والهاتف ، والتلغراف والأدوات العصرية الأخيرة هي من اختراعات الشيطان . ويعزو العديد من الأشخاص تعصب الإخوان لجهلهم وعدم فهمهم الإسلام بشكل صحيح .

كما ذكرت سابقاً فإن الإسلام المتبع من قبل البدو هو إسلام بسيط يتناسب تماماً مع نمط الحياة في الصحراء ، فلا وقت لديهم للتصوف أو التعمق فيه ، فبقاؤهم على قيد الحياة يعتمد على مهاراتهم الشخصية وعملهم الشاق ، ونتيجة لذلك فهم يتعاملون مع العالم بشكل واقعي ، ونادراً ما يرجعون الأحداث الغريبة إلى السحر أو القوى الخارقة ، ولا يتمتع أي منهم بحاسة خارقة وليس لديهم أي رجال دين . وهم يؤمنون بوجود الجن والشيطان لأنه جاء ذكرهم في القرآن الكريم ، ولأنهم سمعوا العديد من القصص المتعلقة بهم . لكن آل مرّة بشكل عام يشكون بوجود مثل تلك المخلوقات لأنهم لم يصادفوا أياً منها .

أما المصائب التي يتعرض لها البدو فنادراً ما تكون فردية ، ربما كان ذلك صحيحاً في أيام الغزوات عندما كان أحد الأفراد يفقد جميع حيواناته بسبب الإهمال ، لكنه سرعان ما كان يصحح وضعه من خلال الإغارة على الآخرين . والمصائب التي يتعرض لها البدو كانت شاملة وناتجة عن قوى لا يمكنهم السيطرة عليها . ففترات الجفاف الطويلة كانت تصيب الجميع بالتساوي في منطقة محددة ، وكذلك الأمراض التي كانت تنتشر بين الحيوانات ، كما تسبب الجراد خلال العقدين الماضيين في القضاء على عدد كبير من الحيوانات إذ إنه كان يستهلك جميع النباتات ولا يترك أي شيء لها ، ولحسن الحظ فقد تمت السيطرة على هذا الوباء من قبل الحملات العالمية . وكذلك لم يكن للبدو أية سيطرة على سنوات الخير : فإذا أمطرت ، نبت العشب وأكلت الحيوانات

وسمنت ، وإذا لم تمطر هزلت الحيوانات ونفقت .

والبدو يرون أنفسهم جزءاً من عالم تحكمه قوة خارقة لا يستطيعون التحكم بها أو التأثير عليها ، ولا يشكون بها ، وهذه القوة هي اللّه سبحانه وتعالى رب العالمين . وعلى خلاف إله المسيحيين الذي تمّ تجسيده ومناداته بالأب ، فإن إله المسلمين لم يتم تجسيده أبداً ، ويعتبر بمثابة القوى التامة التي لا يمكن للبشر تفسيرها . فوجود اللّه سبحانه وتعالى يبرز في كل شيء وفي كل الأفعال المنظورة وغير المنظورة ، والمسلم هو الذي يضع نفسه رهناً لمشيئة اللّه سبحانه وتعالى . فجميع المسلمين متساوون أمام اللّه ، وهم ليسوا بحاجة لأي وسطاء بينه وبينهم لذا لا يوجد لديهم أي كهنة أو قديسين .

إن الصفة المثلى للّه سبحانه وتعالى ورفض وجود الكهنة والقديسين تعتبر من أهم خصائص الإسلام لدى الشعوب . وعلماء الإسلام هم رجال يتبعون تعاليم الدين الإسلامي ، لكن الحاجة لوجود أولياء كانت تشكل عاملاً أساسياً بين الشعوب غير المثقفة في العديد من الدول الإسلامية لا سيما بين القرويين .

ويبقى نمط الحياة العامة لبدو الجزيرة العربية قريباً من الإسلام التقليدي الذي يشدد على المساواة بين جميع المسلمين أمام قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، وهذا ناتج عن تعاليم الوهابيين الذين يركزون على عدم الإيمان بأية قوة خارقة أخرى ، أو شخص آخر أو شيء آخر سوى اللّه وحده ، وهذا يتناسب مع واقع الحياة الصحراوية .

يبدأ النهار عند البدو قبل شروق الشمس بالدعوة إلى الصلاة ، وعادة ما يقوم بذلك رجل كبير في السن يستطيع تحديد وقت الشروق من خلال النظر إلى النجوم في السماء . وبينما تصلي النساء بمفردهن في القسم المخصص لهن داخل الخيمة ، يتوجه الرجال إلى المصلى ، وهو كناية عن مكان مرسوم على الأرض إلى شرق البيت ، ويقيم الصلاة الرجل المطلع على الدين أكثر من غيره ، سواء بسبب سنه أو بسبب حجه البيت الحرام عدة مرات . عند انتهاء الصلاة يكون الفجر قد بدأ بالبزوغ فتدب الحياة في المخيم ويبدأ تحميص البن وطحنه

لإعداد قهوة الصباح، حيث يتجمع الرجال حولها لمناقشة أنشطة اليوم وإذا ما كان يجب الانتقال إلى مكان آخر، وأين يجب رعي الإبل.

وترتفع الشمس ويبدأ الحر فتغلق الخيام وتساق الإبل إلى المراعي، ومع تقدم النهار يزداد الحر وتتوقف الرياح. وعندما تنتصف الشمس في السماء ويختفي ظل الأشخاص يكون قد حان موعد صلاة الظهر، فيتجمع الأشخاص الذين بقوا في المخيم على طرف الخيمة البدوية لأداء الصلاة بصمت والسجود باتجاه الكعبة الشريفة في مكة المكرمة. أما بالنسبة للراعي الذي يكون بمفرده مع القطيع فإنه يقوم برسم نصف دائرة في الرمال ويؤدي صلاته بصمت. عندما يصبح الحر على أشده يلجأ كل من في المخيم إلى الخيام للنوم قليلاً، بينما تتمدد الإبل في الصحراء على الرمال لتجتر طعامها، ويرتاح الراعي في ظل شجيرة لفترة ساعة من الزمن.

ومع تقدم النهار تخف حدة الشمس التي تبدأ رحلتها نحو الغروب، فيتم إيقاظ الجمال وجمعها للعودة إلى المخيم الذي يستفيق أهله عند سماع أذان العصر، فيصلون مجدداً وبعدها يبدأون بتحضير القهوة والقيام بالزيارات. وتتم الدعوة إلى صلاة المغرب مجدداً عند غروب الشمس، وتستغرق هذه الصلاة وقتاً أقصر من غيرها، وتتم بصوت جهراً ويقيمها أحد أفراد القبيلة، وبعدها بساعتين على الأكثر تقام الصلاة الخامسة والأخيرة وهي صلاة العشاء.

وهكذا ينظم البدو يومهم وفقاً لمواعيد الصلاة، أما في المدن فهناك من يتذمر من أن أوقات الصلاة تقطع عليه أعماله إذ يضطر إلى غلق متجره، أو التوقف عن التدريس، كما أن معظم الحضر لا يحبذون الاستيقاظ باكراً إذ إنهم غير ملزمين في البدء بالعمل مع طلوع الفجر. لذا نجد أن مواعيد الصلاة تتناسب تماماً ونمط الحياة في الصحراء، فهي تتبع التقسيم الطبيعي للنهار، والبدو لا يستخدمون الوقت الزمني إنما يعتمدون على أوقات الصلاة، فعلى سبيل المثال يقول أحدهم إنه التقى فلاناً قبل صلاة الظهر، أو سيزور فلاناً بعد صلاة المغرب، أو أن عملاً ما استغرق تنفيذه من صلاة الظهر إلى صلاة العصر.

إن الإيمان بوجود الإله القدير يتطابق تماماً مع طبيعة الحياة الصحراوية لدى البدو ، ويظن العديد من غير المسلمين أن الإسلام هو دين متعصب للغاية ، بسبب تشديده على قدرة اللّه سبحانه وتعالى وحده دون سواه وإيمان المسلمين بالقضاء والقدر . فالقوى التي لا يستطيع البدو التحكم فيها والتي تؤثر على معيشتهم مثل سنوات الجفاف ، أو سنوات الخير ، أو الأمراض هي جميعها قوى كونية ما من أحد من البشر يستطيع السيطرة عليها . وهم يتمتعون بصلة وثيقة بالطبيعة حيث يتم تحديد نمط السنة وفقاً للفصول ، والنمط اليومي وفقاً لليل والنهار ، ونمط النهار وفقاً لموقع الشمس في السماء ، ودرجة الحرارة التي تنتج عنها والرياح .

فالجميع يحمدون اللّه سبحانه وتعالى على نعمه الممنوحة لهم خلال سنوات الخير ، ويصبّرون أنفسهم خلال سنوات القحط من دون إلقاء اللوم على أحد . فالحظ والبلية هما أمران بيد اللّه وحده ، وما من أحد يستطيع التحكم بهما . إنهم يؤمنون أن الاتكال على اللّه فقط لا يكفي ، إذ يجب عليهم العمل بكل جهد لتأمين معيشتهم ، فإهمال الإبل مثلاً قد يعود عليهم بالخسارة .

وهم يعلمون أن الآخرين لا يتمتعون مثلهم بمهارات الرعي ، كما ينسبون هذه المعرفة إلى العمل والخبرة ، وليس إلى الموهبة من عند اللّه سبحانه وتعالى . وهم أيضاً أشخاص واقعيون يرضخون للأحداث التي لا يمكنهم السيطرة عليها .

إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم هو ركن من أركان الإسلام يتقيد به آل مرّة وجميع البدو في السعودية ، ويشكل صوم شهر رمضان الركن الثاني للدين ، وشهر رمضان شهر قمري نزل فيه القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . ويمتنع المسلم عن الأكل والشرب في النهار خلال شهر رمضان ، كما يمتنع عن أية علاقات جنسية ، ويحتفل بالأكل والشرب مع أسرته وأصدقائه أثناء الليل . فغرض الصوم ، ليس كما في الديانة المسيحية ، لتطهير النفس والجسد من الذنوب ، إنما للاحتفال بنزول القرآن كهبة من اللّه سبحانه وتعالى ، إذ يجب قضاء النهار في التأمل وقراءة القرآن ، والليل في الاحتفال ومشاركة

الطعام مع الأهل وإعادة توطيد العلاقات الاجتماعية .

ويحتفل آل مرّة بشهر رمضان وفقاً للفصل الذي يقع فيه ، فالأشهر الإسلامية هي أشهر قمرية ؛ لذا فإن الرزنامة القمرية تقل ١١ يوماً عن الرزنامة الشمسية . فإذا وقع شهر رمضان في فصل الصيف يكون الصوم صعباً للغاية بسبب طول النهار وشدة الحر ، لكن ليالي الصيف تكون أنيسة للغاية بسبب وجود جميع أفراد الفخذ في مكان واحد قرب الآبار ، وتقام الاحتفالات الجماعية كل ليلة . أما خلال باقي الفصول فتقتصر الاحتفالات على عدد قليل من الأشخاص . ومهما كان الفصل الذي يقع فيه الشهر المبارك فإن الجميع يحاول الحصول على أطعمة مميزة يتناولونها بعد غروب الشمس . ويتم إعداد طبق كبير من الطعام يتناوله الجميع قبل طلوع الفجر ، فالجميع يشارك طعام الجميع ويشربون كمية كبيرة من حليب الناقة تساعدهم على الصوم طيلة النهار . ويتم الاحتفال بعيد الفطر في نهاية شهر رمضان ، ويلبس الجميع ثياباً جديدة ويرقصون على أغاني البدو الحربية ، ويقيمون سباقات الجري ، وسباق الإبل .

أما الركن الثالث فهو حج بيت اللّه الحرام في مكة المكرمة . فقبل توفر وسائل النقل المتطورة والحديثة كان الحج يشكل مشروعاً شاقاً يتطلب وقتاً طويلاً ، لذا فقد تمكن عدد ضئيل من البدو من قطع مسافة الألف ميل عبر الصحراء التي تفصل بين شرق الجزيرة العربية ومدينة مكة المكرمة . أما اليوم فمع وجود وسائل النقل الحديثة ووفرة الموارد المالية فقد تمكن معظم البدو من الحج ولو مرة واحدة .

خلال فصل الشتاء الأول الذي أمضيته مع آل مرّة رافقت مجموعة منهم بجزء من الطريق إلى الحج ، وكان ضمن المجموعة علي الرجل العجوز الذي كنت أقيم في خيمته ، وزوجته ، والكربي ، و١٨ شخصاً آخرين من رجال ونساء من فخذ آل عازب ، وسافرت في شاحنة صغيرة من شرق الجزيرة العربية إلى الرياض ومن ثم إلى الطائف ، حيث ترجلت وتابعوا هم طريقهم إلى مكة

المكرمة . والرحلة بحد ذاتها كانت تشكل حدثاً عظيماً ، فعادة ما يتم قطع المسافة بين شرق الجزيرة ومنطقة الحجاز خلال يوم ونصف اليوم بالسيارة ، لكن رحلتنا استغرقت عشرة أيام ، حيث كنا نتوقف باستمرار لفترات طويلة لتناول وجبات الفطور والغداء والعشاء التي كان يتم إعدادها في المكان الذي كنا نتوقف فيه .

وكنا نتوقف أيضاً كلما التقينا بمجموعات أخرى من آل مرّة كانت في طريقها إلى الحج للتحدث معهم . كان الطريق السريع مليئاً بالحافلات والشاحنات والسيارات القادمة من الكويت ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، وباكستان . وكان بعضها مليئاً برجال القبائل بثيابهم الملونة والمزركشة ، أما السيارات فكان ركابها من الأثرياء بثيابهم العصرية . وفي الطائف انضمت إلى مجموعة قوافل المركبات الآتية من الشرق شاحنات تضم اليمنيين القادمين من الجنوب وبعض قوافل الجمال كما في الماضي . أما من جهة الشمال فكانت الحافلات مليئة بالأتراك ، والسوريين ، والأردنيين ، والفلسطينيين ، واللبنانيين وجميعهم متوجهون نحو مكة المكرمة . وكانت الطائرات والسفن تنقل الحجاج من أفريقيا ، وإندونيسيا ، والفلبين ، وحتى أمريكا . وقد أشارت الأرقام الرسمية في هذا العام أن أكثر من مليون حاج وصل إلى البلاد .

لم أتمكن من مرافقتهم حتى مكة المكرمة لأنني لم أكن مسلماً على الرغم من أن آل مرّة كانوا يعتبرونني مسلماً بالروح . عند عودتهم من الحج عرضوا عليّ ما اشتروه من ساعات ونعناع ، وبهارات أخرى ، وأقمشة للملابس والعطور ، والبخور ، مبينين بذلك الشق التجاري من الحج الذي ما زال قائماً منذ ما قبل الإسلام حيث كانت تضع جميع القبائل أحقادها جانباً وتشارك في السوق السنوية التي تقام ضمن جدران المدينة . لكن أهم الأحداث التي كانت تجري في مكة المكرمة كانت تتمثل في الآتي : أولا : النية للحج ، ثانيا : النظافة ، وبعد ذلك الطواف حول الكعبة المشرفة سبعة أشواط ، والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات ، ومقام إبراهيم ، ورمي الجمرات على الشيطان ، والوقوف بعرفات ،

وبعد ذلك طواف الإفاضة ثم طواف الوداع في منى وهي مدينة صغيرة خارج مكة، والتضحية بحيوان على جبل عرفات متذكرين بذلك استبدال إبراهيم بتضحية ابنه إسماعيل بكبش فداء.

وفي مكة المكرمة تختفي جميع الفروق الاجتماعية ويلتف الجميع بثياب الإحرام حول الخصر والكتف، أما النساء فيكشفن عن وجوههن ويشاركن في جميع الطقوس الدينية، ويتساوى جميع شعوب العالم من مختلف الأعراق، والأجناس، واللغات، من حكام، ورجال قبائل، وأثرياء وفقراء، والعبيد والأسياد أمام الله سبحانه وتعالى مرددين: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

عندما التقيت بأصدقائي في مدينة الطائف بعد عودتهم من مكة المكرمة كانت السعادة تغمرهم، وبالأخص الرجلين الكبيرين بالسن اللذين سافرا معنا، فقد قاما بمناسك الحج في عام ١٩٢٤ كأعضاء في حركة الإخوان الذين احتلوا منطقة الحجاز وكانت سعادتهما لا توصف، وحتى الشباب الذين كانوا ضمن المجموعة فقد تأثروا كثيراً بالأعداد الهائلة من الناس التي كانت متواجدة في مكة المكرمة، وكانوا كلهم يشعرون أنهم أنجزوا عملاً هاماً في حياتهم.

أثناء العودة صادفتنا بعض المتاعب، إذ انقلبت شاحنتنا مرتين لكننا نجونا بأعجوبة ولم يمت أي منا، أو يصب بجروح بليغة. بعد مرور شهر عدنا أخيراً إلى ديرة آل مرّة حيث كان الجميع بانتظارنا، لكن أداء الحج لدى البدو لا يكسب الحاج مكانة خاصة بين أفراد القبيلة، على عكس ما يحدث لدى الحضر، حيث يكرم الحاج بشكل خاص. فالبدو يعتبرون الحج إلى بيت الله الحرام هو واجب على كل الأشخاص، وأداءه يؤمن للفرد راحة نفسية، ويشعره بقوة الإسلام لكنه لا يضمن له مكانة اجتماعية رفيعة.

ويدخل الإسلام إلى حياة آل مرّة بطرق مختلفة، فالضريبة الوحيدة التي يدفعونها هي الزكاة التي تشكل ركناً من أركان الإسلام، وهي عبارة عن نسبة مئوية يدفعها المسلم مقابل ثروته الشخصية. فالشخص الذي يملك أقل من

خمسة جمال لا يدفع شيئاً ، والذي يملك بين ٥ و٩ جمال يدفع نعجة مقابلها ، والذي يملك ما بين ١٠ و ١٤ جملاً يدفع نعجتين . وقد تم اعتماد المال النقدي في السنوات الأخيرة لدفع الزكاة ، التي تعتبر فرضاً دينياً وواجباً اجتماعياً لبيت الزكاة وجباتها في الدولة . ويدفع آل مرّة الزكاة سنوياً إلى حاكم المنطقة الشرقية في السعودية .

ويلعب الإسلام دوراً هاماً خلال الأزمات الحياتية . فختان الذكور يتم للأولاد عندما يبلغون سن الخامسة أو السادسة وفقاً للمعتقد الديني . وعادة ما يأخذ آل مرّة أولادهم إلى رجل يقيم في الهفوف لإجراء العملية . وعلى عكس الحضر الذين يقيمون الاحتفالات الصاخبة بالمناسبة فإن آل مرّة لا يحتفلون بهذا الحدث .

والزواج يتطلب موافقة السلطات الدينية ، ويجب تسجيل عقد الزواج في المحكمة الشرعية لكي يصبح نافذاً قانوناً . كما أن للإسلام تأثيراً كبيراً على مواقف البشر تجاه الموت ، فلا يتم الحداد على الموتى ، لأن الموت هو مشيئة الله ، والمؤمن مثواه الجنة :

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ .

(سورة الإنسان : ١٢-٢٢)

فالجنة تختلف تماماً عن حياتهم في الصحراء ، لنأخذ على سبيل المثال

الفرق الموجود بين ملذات الجنة وواجب الصوم خلال شهر رمضان . أذكر أول شهر رمضان قضيته مع آل عازب في عمق الربع الخالي في بداية ترحالنا نحو الشمال . كان الكربي قد حمّل معه في الشاحنة الأغراض المنزلية الثقيلة الوزن ووالده ووالدته والأطفال وتوجه نحو بئر فاضل ، بينما رافقت أنا كلاً من محمد ، ومرزوق ، وبنت بطحان ، ورجلاً من قبيلة آل جابر الجمال . وفي نهاية النهار ، حوالي ساعتين ونصف قبل غروب الشمس ، حيث كان الجو لا يزال حاراً ، شعرت بتعب شديد وكاد أن يغمى عليّ . وكنا قد نصبنا الخيام فتوجهت نحو الإطارات المطاطية التي تحتوي على المياه ، لم يكن يوجد أي أحد في الجوار ، لكنني لم أكن أملك كوباً أشرب بواسطته ، وأعرف أنني لو فتحت الإطار سوف يعلم الجميع أنني قد شربت الماء ، فتمددت على الرمال في ظل شجيرة أنتظر مرور الوقت . كان جسمي يؤلمني ورحت أتساءل عن سبب وجودي في هذا المكان مع هؤلاء الأشخاص ، وركوب الجمال طيلة النهار ، وبدت جامعة بركيلي وعلوم الإنسان تبدو بعيدة للغاية .

قبل غروب الشمس بحوالي ساعة جاءني محمد قائلاً : «دعنا نعد بعض القهوة لنشربها بعد غروب الشمس» ، فتحول انتباهي عن الأوجاع التي كنت أحس بها ورحت أساعد في بناء الموقد وتحميص البن وطحنه ، ولم أشعر بحلول الغروب . أعطينا بنت بطحان بعض القهوة ، وشربنا نحن ما تبقى منها ، وكان طعمها مراً لأننا استخدمنا ماء مالحاً بعض الشيء في صنعها ، لكن أحداً لم يبال بهذا الأمر إذ كنا سعداء بنهاية يوم آخر من الصوم . بعد الغروب أصبح الجو منعشاً بعض الشيء فجلسنا بعد الصلاة ننتظر الطعام الذي كانت تعده بنت بطحان وهو بعض الأرز بالإضافة إلى أرنب كان محمد قد اصطاده خلال النهار .

عندما انتهت بنت بطحان من إعداد الطعام جلسنا حول صينية الأرز ولحم الأرنب وتمتمنا عبارة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» وبدأنا بالأكل باليد اليمنى . كان الطعام لذيذاً ، بعدها شكر الرجل من آل جابر مضيفيه ودعا لهم بالجنة ، ثم

نظفنا أيدينا بواسطة الرمال وبعدها سكبنا عليها بعض القطرات من الماء، ثم جاء مرزوق ببعض العطر وسكبه على أيدينا ووجوهنا، وراح يعد بعض الشاي مع النعناع وكان طعمه لذيذاً، إذ استخدم الماء العذب الموضوع في الإطارات المطاطية.

وبعد فترة من الوقت انضمت إلينا بنت بطحان وتمددنا على الرمال بقرب الجمرات، ورحنا نتحدث حتى بعد منتصف الليل حيث شربنا جرعات طويلة من حليب النوق. أمضينا معظم الليل ونحن نتحدث عن الإبل وقصص الغزوات والحروب التي قادها الآباء والأجداد، ولم أعد أشعر بالتعب أبداً، وكنت مسروراً من نفسي أنني لم أغش وأشرب الماء قبل غروب الشمس، وكنت غير قادر على تصور نفسي في مكان آخر غير هذا المكان.

وقد أتيحت لي فرص عديدة لتناول طعام الإفطار مع رجال أثرياء من الحضر، وكنت أشعر بالذهول أمام الكميات الهائلة من الطعام التي يأكلونها، لكنني لم أشعر بالسعادة التي كنت أشعر بها عند تناول طعام الإفطار مع رفاقي الأربعة في عمق صحراء الربع الخالي الواسعة، حيث كنا نكتفي بما هو ضروري، وكانت تربطنا علاقات وثيقة، وحيث كان الدين المتبع يشكل جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية.

ليست هناك أية حاجة للاحتفالات الكبيرة بين البدو في الصحراء لجمع جميع الأفراد، فحرية العمل تشكل المطلب البيئي الأول ضمن الإطار الذي يعيشون فيه أكثر من التضامن الاجتماعي. فلا شهر رمضان المبارك، ولا الولادات، ولا الختان، ولا الموت تشكل إحدى المناسبات التي تدعو إلى الاحتفال لدى آل مرّة. فعندما يجتمعون سوياً يقيمون الاحتفالات، لكنه طالما يوجد الفرد في الصحراء فهو ليس بحاجة إلى الأشخاص الآخرين، لأنه يعلم أن أفراد الفخذ، أو القبيلة، أو القبائل هم جميعهم حوله؛ لذا فهو لا يشعر بالحاجة لأن يكون معهم دائماً.

الفصل السابع

آل مرّة والعالم المعاصر

آل مرّة والعالم المعاصر

عندما ذهبت إلى الربع الخالي لأول مرة ، التقيت بحرّان بن محمد ، وهو شاب في العشرين من العمر وغير متزوج ، وكما ذكرت سابقاً فإن حرّان كان أول من جعلني أركب على ظهر الجمل ، وتحداني في سباق للجري يقام بين أفراد آل مرّة ، كما قال لي إننا سنهتم برعي الإبل ونخوض المغامرات سوياً ، لكنني لم أره إلاّ بعد ستة أشهر من هذا اللقاء الأول . فقد غادرت مع الكربي وأسرته إلى المراعي الشتوية في أقصى الشمال . وبما أنهم كانوا جميعاً من آل نقادان كنا نعرف المنطقة العامة التي يقصدونها لرعي الإبل لكننا لم نكن على اتصال مباشر بهم .

بعد عودتنا من الحج ، وتعرضنا لحادث السيارة توقفنا لعدة أيام في أبقيق كضيوف على الأمير طالب الذي ضحى بحوار وعدة أغنام للاحتفال بعودتنا ونجاتنا من الحادث . من ثم توجهنا نحو الجنوب ، بسبب حلول فصل الربيع وترحال آل نقادان نحو الجنوب باتجاه آبارهم في الربع الخالي . لقد كنا سعداء بالابتعاد عن الازدحام على الطريق السريع والعودة إلى الطرق الصحراوية الهادئة ، حيث شاهدنا بعد ساعات عديدة بعض الخيام وقطعان الإبل . وحوالي الظهر شاهد الكربي بيت شعر عائد إلى آل نقادان ، وكان بيت محمد والد حرّان . أوقفنا الشاحنة على بعد عدة أمتار منها وبدأنا بالترحل ، وفجأة خرج حرّان كالسهم من البيت والدموع تنهمر من عينيه ، وراح يقبل كل واحد منا . فقبل علي الرجل الأكبر سناً ، ثم الكربي ، ثم الآخرين بمن فيهم النساء لأنهن كن جميعاً من الفخذ نفسها . كان الجميع يبكون ، فالبدو لا يبكون عند مغادرة شخص ما بل عند عودته بعد غياب طويل ، هم لا يبكون حزناً بل تأثراً .

وصرخ حرّان بأعلى صوته : «واللّه ، سيأكل الجميع اللحم اليوم» ، وركض نحو الصحراء . فصرخ علي : «واللّه يا حرّان لن نأكله» ، وأرسل أحد الشبان ليعيد حرّان . فعاد حرّان لكنه أصر على بقائنا ومشاركتنا طعامه ، وأضاف

وعيناه مغرورقتان بالدموع : «لقد مضى علينا أكثر من نصف سنة في الصحراء ولم نشاهد أحداً ، والله يجب أن تأكلوا ، فالحوار قريب من هنا .»

لكن علي أصر على موقفه وقال : «اسمع يا بني ، إننا جميعنا واحد ، فبيتك هو بيتي ، وقطيعنا واحد ، والله يا بني إن ذبحت الحوار من أجلنا ، أقسم إنني سوف أطلق المرأة العجوز .» فأجاب حرّان : «أرجوك يا أبي لا تحلف ، أريدكم أن تأكلوا .»

لم يكن حرّان يستطيع أن يصر أكثر من ذلك ، خاصة وأن الرجل قد أقسم بتطليق زوجته ، وهذا عيب فدعانا إلى داخل البيت حيث فرش السجاد أمامنا لكي نجلس عليه وراح يعد القهوة والشاي .

وحرّان من الشباب البدو الرجعيين ، فهو يتميز بشعر أسود طويل يتعدى مستوى الكتفين يغسله ببول الجمال ، يفرقه في النصف ، ويضع عصبة بيضاء حول رأسه لمسك الشعر ، وهو لا يهتم بمنظره العام إنما يتفاخر بشعره الذي يجعله يبدو مثل البدو التقليديين ، على عكس الحضر الذين لا يحبذون الشعر الطويل لدى الذكور . يهتم حرّان بقطيع الأسرة ويساعده على ذلك شقيقته وشقيقه الأصغر ، وهو نادراً ما يذهب إلى المدينة باستثناء زيارات قصيرة إلى الهفوف .

ويشبه معظم شباب آل نقادان حرّان هذا ، فهم يكرمون الضيف ويعشقون الصحراء والإبل ، فمرزوق شقيق الكربي الأصغر ، مثله مثل حرّان ، متأصل في الصحراء وهما من السن نفسها . فهما يقيمان المباريات بين الجمال لاكتشاف الأسمن منها ، ويتفاخران بمهارات الرعي لديهما . وحرّان شاعر بينما مرزوق صياد من الدرجة الأولى ، وكلاهما يملك أشقاء يختلفون عنه تمام الاختلاف .

فسالم شقيق حرّان الأصغر ، لا يربي شعره ولا يهتم بأنشطة الرعي ، ومنذ أن كان في سن الخامسة عشرة من العمر كان يقوم بزيارات متكررة إلى الكويت مع عدد كبير من شباب آل مرّة للبحث عن عمل ، وقد استوطن العديد منهم في الكويت . وهو يقوم الآن بأعمال مختلفة في المناطق الحضرية في شرق المملكة ، وهو يقول دائماً إنه يفضل حياة المدينة على حياة الصحراء ، ويتطلع

إلى اكتساب المهارات التي تمكنه من الحصول على عمل جيد . لكنه ما زال أمياً مثل باقي أشقائه المتواجدين في الصحراء ، وهو يأمل بالالتحاق بمدرسة ليلية .

أما الكربي فهو شقيق مرزوق العصري الذي أمضى فترة خمس عشرة سنة ينتقل من عمل إلى آخر مقابل أجر زهيد ، ولا يتعاطى أجرا بأي من أنشطة القبيلة التقليدية ، لكنه أصبح اليوم شاباً محترماً بين أفراد القبيلة لأنه حقق نجاحاً كبيراً في الأعمال الخارجية .

والتقسيم بين الذين يتبعون الجمال ويبقون في الصحراء والذين يتوجهون إلى المدن بحثاً عن عمل أصبح واسع الانتشار بين البدو في السعودية ، إذ أصبح كل بيت يشهد مثل هذا التقسيم كما حصل في أسرة حران وبين مجموعات البدو بشكل عام ، حيث تحدث التغييرات في بعض منها بشكل سريع . عندما أسس الملك عبد العزيز آل سعود المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢ لم يختلف الشباب مثل حرّان ومرزوق وباقي أفراد آل مرّة من الرعاة عن باقي الأشخاص كثيراً ، أما اليوم فقد أصبحوا يشكلون أمراً شاذاً .

ومما لا شك فيه أن السعودية بمفهومها القديم قد اختفت إلى الأبد ، إذ في تلك الأيام لم تكن توجد أية طرقات مرصوفة ، أو تلغراف ، أو هاتف ، أو كهرباء ، أو مدن تزدهر بالأشخاص والبضائع من خارج المنطقة العربية ، أو ألسنة لهب هائلة تضيء سماء المنطقة الشرقية خلال الليل ، والناتجة عن احتراق الغاز الطبيعي . إن معظم الأشخاص قد عاشوا حياة لم تتغير لفترة قرن من الزمن : رعي الجمال في الصحراء ؛ قيادة قوافل الجمال ؛ أسواق الجمال ؛ القرويون الذين يعيشون في مناطق نائية في منازل مبنية من الطين ، عدد ضئيل من المباني العصرية العائدة للحضر ؛ اقتصاد مبني على توفير سبل العيش كان يحقق بعض الفائض في الجمال والماعز والأغنام والتمر ويصدرها إلى الخارج . وكانت هناك الغارات العسكرية والحروب القاتلة بين القبائل ، وانعدام الأمن بين القرويين والتعديات البدوية . كل هذه الأمور كانت من مواصفات السعودية القديمة .

حتى اليوم بالإمكان مشاهدة بعض من بقايا تلم الميزات في زوايا المدن وبين مجموعات منعزلة من البدو مثل آل مرّة . لكن العالم قد تغير ولحقت التغيرات القرى النائية والمجموعات الأكثر انعزالاً ، وجميعهم يعلمون أن السعودية القديمة قد اختفت إلى الأبد . لذا لا يمكن لهذه الدراسة أن تراعي فقط الجوانب التقليدية من حياة آل مرّة إنما يجب أن تتطرق أيضاً إلى التغيرات التي طرأت على الجزيرة العربية .

ما زال بعض الأدباء مثل تيسيغر (١٩٥٩) ومؤخراً بولك (١٩٧٣) يتحسرون على غياب السعودية التقليدية ويفضلون عبور الصحراء على ظهور الجمال . لكن آل مرّة الذين يحبون إبلهم ويتحدثون عنهم باستمرار ويعيشون من منتجاتهم يفضلون قطع المسافات الطويلة بواسطة الشاحنة ، ويرفعون الشكر كل يوم إلى آل سعود وظهور النفط ، الذين ساهموا في جعل حياتهم أكثر راحة وأماناً مما كانت عليه لعقود مضت . فلا حرّان ولا مرزوق ولا أشقاؤهم العصريون يتحسرون على الأيام الماضية ، فهم جميعهم يتطلعون إلى التغييرات ويأملون بحياة أفضل .

النفط وتغيّر المجتمع العربي السعودي

إن التغيّر الذي طرأ على المجتمع العربي السعودي حوله من مجتمع غير مركزي ، حيث كانت تسيطر الخلافات القبلية والإقليمية ، إلى دولة مركزية وذلك بوقت طويل قبل ظهور النفط في المنطقة الشرقية . وكما ذكرنا في الفصل السادس فإن تلك الدولة كانت تمثل حركة سياسية ودينية تم فيها استخدام النماذج القبلية التقليدية ، حيث لعب الدين دوراً هاماً في تحريك الشعوب .

ومباشرة بعد تأسيس المملكة العربية السعودية من قبل الملك عبد العزيز آل سعود ، والسيطرة على جميع القبائل البدوية في الصحراء العربية ، تم اكتشاف النفط من قبل شركات التنقيب الأمريكية . وبدأ الحفر في عام ١٩٣٥ ، لكن

اكتشاف أول حقل منتج للنفط كان في عام ١٩٣٨ في منطقة الدمّام الواقعة في شرق المملكة . وجاءت الحرب العالمية الثانية لتوقف جميع أعمال التنقيب التي استؤنفت بعد نهايتها ، حيث تم اكتشاف مخزون كبير من النفط ، وتشكل المنطقة الشرقية من المملكة اليوم أكبر مستودع للنفط .

ولا شك أن العائدات المالية النفطية أحدثت تغيرات جذرية على الاقتصاد والمجتمع السعودي ، وأتاحت الفرصة أمام آل سعود لتقوية سيطرتهم على الدولة المركزية . ولولا تلك التغيرات الاقتصادية الجذرية لاستعاد البدو استقلاليتهم وتخلوا عن النخبة السياسية الدينية التي كانوا يدعمونها ، وذلك طبقاً لنظرية ابن خلدون .

عندما بدأ الإنتاج التجاري للنفط في المملكة العربية السعودية كانت الدولة فقيرة جداً فيما يتعلق بالموارد المالية ، وكان كل من القرويين والبدو لا يستخدمون المال ، كما أن دفع الزكاة كان يتم بشكل عيني . وكانت موارد الحكومة المالية عبارة عن بعض الضرائب المفروضة على تصدير الجمال ، والماعز ، والخرفان ، والتمر ، وضريبة الحج إلى مكة المكرمة . وقد كان مجموع تلك الضرائب ضئيلاً ، ويتساءل البعض عما إذا كان عبد العزيز سيستمر في السيطرة على الدولة من دون أية مساعدة خارجية لولا ظهور النفط؟

استطاعت عائدات تصدير النفط أن توفر للحكومة مبالغ متزايدة من الأموال كانت بسيطة في البداية إذ إن معظم الأرباح كانت ترجع إلى الشركة الأمريكية العربية للنفط (أرامكو) التي كانت تمتلكها أربع شركات نفط أمريكية وهي : ستاندرد أوف كاليفورنيا ، وتكساكو ، وستاندرد أوف نيو جرسي ، وموبيل . وزادت عائدات النفط السعودية من ٢ مليون دولار أمريكي سنوياً بين الأعوام ١٩٣٩ و١٩٤٤ إلى ٥ ملايين دولار أمريكي في عام ١٩٥٠ ، و٣٣٤ مليون دولار أمريكي في عام ١٩٦٠ ، ومليار و٢٥ مليون دولار أمريكي في عام ١٩٧٠ ، وما يزيد على ٣ مليارات دولار أمريكي في عام ١٩٧٣ . وهكذا أصبح النفط يسيطر على الاقتصاد وبلغت نسبة إيراداته في عام ١٩٦٩/ ٧٠ ، ٤٨,٨ ٪

من مجمل الدخل القومي ، بينما بلغت نسبة الزراعة ٦٪ والتصنيع ٥,٨٪ .

واختلف تأثير تدفق الأموال على المملكة العربية السعودية ، فاختل التوازن فيما يتعلق بعملية توزيع العائدات إذ إن معظمها كان يعود إلى العائلة المالكة وشركائها المقربين ، وحافظ المواطن السعودي على ناتج قومي سنوي متدنٍ بلغ ٤٥٠ دولاراً في العام ١٩٦٨ للفرد الواحد ، كما سجلت أعلى نسبة من الوفيات بين الأطفال في آسيا (٢٢,٧/١٠٠٠ في عام ١٩٦٨) ، كما تم تقدير تحديد المعدل اليومي للوحدات الحرارية التي يحصل عليها الإنسان ب ٢٠٨٠ وحدة ، مقارنة مع مصر التي تمتلك أرضاً خصبة ، حيث بلغ المجموع اليومي ٢٧٧٠ وحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية ٣٢١٠ وحدات . واستمرت الجهود تبذل لتحسين قطاعات التعليم ، والنقل العام ، والصحة العامة ، وبناء المدن .

وتبدلت الحياة العامة للشعب السعودي بسرعة كبيرة مع النمو السريع الذي شهدته المدن والمناطق الريفية ، والتي شهدت توافد أعداد كبيرة من الأجانب . وقد تركزت معظم التحديثات العصرية على المدن ، وحصلت الصحراء على نصيبها من التغيرات ، لا سيما في مجال الآبار حيث تم حفر الجديد منها والوصول إلى المياه الجوفية العميقة ، ومن خلال استخدام الشاحنات في الصحراء . ومن المتوقع أن تزداد وتيرة التغيرات في السنوات القادمة بسبب تزايد نسبة إنتاج النفط وارتفاع الأسعار . وتتمتع الحكومة السعودية بمخزون مالي يبلغ حوالي ٤ مليارات دولار أمريكي في عام ١٩٧٣ ، وتهتم بتنمية جميع المناطق والقطاعات في الدولة . إذن كيف يمكن أن يدخل البدو ، لا سيما آل مرّة ضمن مخطط التغيير هذا؟

على الرغم من تحسن المستوى المعيشي لدى البدو إلاّ أن وضعهم بالنسبة لباقي أفراد الشعب ما زال يتراجع باستمرار ، وهذا ليس ناتجاً عن حملة واسعة تشن ضدهم ، إنما يعكس الطريقة غير المنظمة في التنمية التي اتبعت في المملكة . فبينما شهدت المدن مستويات عالية من التطور في المستوى المعيشي ، وتحسن الوضع المعيشي في بعض القرى ، إلاّ أن البدو بقوا خارج نطاق تلك التطورات .

وربما كان التعليم من أهم المجالات التي برز فيها تفوق الحضر على البدو . فبين العامين ١٩٦٨ و١٩٧٠ كان هناك ٣ شبان من آل مرّة ممن التحقوا بالمدارس الثانوية في السعودية وواحد في الكويت . كما أن هناك عدداً قليلاً منهم قد التحق بالمدارس الإعدادية ، وتتمتع باقي قبائل البدو بنسبة أفضل في هذا المجال ، إلاّ أن معظم شباب البدو ما زالوا يشكلون الأقلية في المدارس الثانوية ولم يصل أي منهم إلى المرحلة الجامعية . والتدريب المتقدم الوحيد الذي يحصلون عليه في المجال العسكري برعاية الحرس الوطني السعودي .

هذا لا يعني أبداً أن المملكة لم توفر التعليم الرسمي المجاني ، بل على العكس فقد تم إنشاء المدارس الابتدائية في جميع أنحاء المملكة ، في المدن والقرى ، كما بذلت الجهود الحثيثة لإرسال مدرسي المرحلة الابتدائية للتنقل مع البدو في ترحالهم في الشمال ، حيث توجد التجمعات الكبيرة منهم . ويشهد عدد الأطفال الذين يلتحقون بالمدارس في القرى بعض الازدياد ، لكن هذا يعني الابتعاد عن الأهل ، كما أن الجو في المدرسة غير ملائم بسبب سخرية الحضر من البدو ويظنون أنهم فقراء ولا يعرفون النظافة . ويذهب معظم أولاد آل مرّة الذين يسكنون بالقرب من الهفوف أو أبقيق إلى المدرسة الابتدائية بشكل متقطع لبضع سنوات ، وبعدها يغادرون بعد أن يكونوا قد تعلموا مبادئ القراءة والكتابة وبعض الحساب .

على الرغم من أن البدو يقدرون التعليم لكنه من الصعب عليهم الحصول عليه ومتابعة حياة البداوة في الوقت نفسه ، وهذا ما يستخدمه المسئولون الحكوميون كحجة لتحضير البدو . لكنني شخصياً أقترح أن تبذل جهودا خاصة لإيصال التعليم إلى أطفال البدو ، فبالإمكان تصميم بعض الصفوف الصيفية تضمهم جميعاً أثناء تجمعهم قرب الآبار في فصل الصيف ، فمدرسة جبرين على سبيل المثال تبقى مفتوحة طوال فصول الخريف والشتاء والربيع على الرغم من وجود عدد ضئيل من التلاميذ ، وتقفل بسبب العطلة الصيفية في شهر يونيو (حزيران) عندما يصل مجمل أفراد قبيلة آل جابر إلى الواحة لقضاء فترة

ثلاثة أشهر لا يدري الأطفال والكبار ماذا يفعلون خلالها .

كما يمكن إعداد بعض المرافق الخاصة مثل بيوت الطلاب ، حيث يستطيع الأولاد الأكبر سناً المكوث لمتابعة الدراسة في المراحل المدرسية المتقدمة في المدينة . ففي عام ١٩٧٠ عاش ٦ من أولاد آل مرّة ، تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٦ سنة بمفردهم في مدينة حرض في كوخ مصنوع من الأخشاب ، حيث كانوا يعدون طعامهم ويقومون بالأعمال المنزلية بمفردهم ، وذلك من أجل متابعة الدروس في المدرسة الإعدادية في المدينة ، وقد كان بالإمكان الحصول على عدد أكبر من الطلاب لو توفرت المرافق الملائمة لهم . بالإضافة إلى التعليم النظامي ، بالإمكان وضع برامج تدريبية خاصة في مجالات مثل تربية الحيوانات والتدبير ترافق حملات محو الأمية . كل ما يحتاج إليه الأمر هو بعض التشجيع لاجتذاب عدد كبير من البدو الذين يرغبون بالتعلم ويجدون صعوبة كبيرة في الالتحاق بالمدارس النظامية المعدة من قبل ومن أجل الحضر .

وبسبب افتقارهم للتعليم الحديث ، فإن البدو لا يستطيعون إيجاد أية وظيفة خارج نطاق الرعي ، وأفضل ما يطمحون إليه هو أن يصبحوا سائقي سيارات الأجرة أو سيارات الأثرياء من أعضاء الحكومة أو سيارات الشركات الخاصة . أما في قطاع النفط فقد يحصلون على وظيفة متخصصة بعد أن يكونوا قد أمضوا سنوات عديدة كيد عاملة مقابل أجر زهيد ، كما أنهم لا يحلمون أبداً بالحصول على مركز إداري ضمن المؤسسات العامة أو صناعة النفط ، على الرغم من أن تلك المراكز تشكل طموح كل فرد من الحضر في المجتمع السعودي . والمجال الوحيد المفتوح أمام البدو للحصول على مركز رفيع هو من خلال الجندية ، لكن حتى هنا فهم يشكلون مجموع الأفراد ، والقلائل منهم من يصلون إلى رتب عالية . كل هذا يعني أن البدو لا يشاركون بفاعلية في أي برنامج حكومي ، أو تعليمي أو خاص يهتم بتحديث المجتمع السعودي ، على الرغم من أنهم يمثلون ٢٠٪ من مجمل سكان المملكة .

والأمر الملفت للنظر هو أن معظم الرسميين الحكوميين ، ومسئولي التعليم

من الحضر يدركون الفجوة التي تتوسع يوماً بعد يوم بين البدو والحضر ، بينما القليل من البدو يدركون ذلك لكنهم لا يهتمون به . فبسبب عزلتهم وعدم زيارتهم للمدن بشكل منتظم ، فإنهم لا يدركون التغييرات التي تطرأ ، مع العلم أنهم أحسوا بالتغييرات التي طرأت على محيطهم المباشر ، وعلى أنشطة الرعي ، كما أدركوا أن المبالغ الضئيلة التي يحصلون عليها مقابل عملهم أو مقابل الخدمة العسكرية باتت تتيح لهم الحصول على عدد من الكماليات لم يكونوا ليحلموا بها .

وما زال البدو يمنحون أنفسهم مكانة خاصة في التعامل مع المسئولين الحكوميين الرفيعي المستوى ، فهم عادة ما يتجاهلون الموظفين الصغار ويفضلون التعامل مع الملك مباشرة أو مع الأمراء النافذين . وما زال الملك والأمراء يستقبلونهم ويمنحونهم مكانة خاصة كعرفان للخدمات التي أدوها في الماضي ، لكن بيروقراطية العمل الحكومي في السعودية قد أصبحت متطورة وهي في تقدم مستمر ، وأشك أن يتمكن شباب اليوم من البدو أن يعتمدوا في المستقبل على تلك العلاقات الخاصة مع المسئولين الكبار ، والذين يولون اهتماماتهم حالياً للسياسات الدولية الرفيعة المستوى . وبينما يشارك البدو من كبار السن الملك فيصل آل سعود والأمراء ذكريات الأيام الماضية ومحاربتهم جنباً إلى جنب ، فما من شيء يربط بين الأمراء الشباب والشباب من البدو .

والمجال الثاني الذي حقق فيه البدو نجاحاً باهراً خارج نطاق الرعي كان مجال النقل . فمعظم سيارات الأجرة الموجودة في المملكة هي ملك للبدو ، حيث يقومون على تشغيلها ، وأصبح هؤلاء البدو يعرفون بالبدو الحضر ، كما أنهم يملكون عدداً لا يستهان به من شاحنات النقل الصغيرة . وهذا يتطابق تماماً مع نشأتهم البدوية ، لأنه يسمح لهم بحرية التحرك ويستطيعون العمل وفق نمطهم الخاص بغياب من يرأسهم . أما بالنسبة للزراعة التي تعتبر من اختصاص الحضر فهي لا تستهوي البدو الذين يعتبرونها أمراً مهيناً ، فهم يفضلون احتراف مهنة السواقة عند بحثهم عن عمل .

ويشهد البدو تغييرات هامة خارج نطاق النقل والزراعة من خلال طريقتين رئيسيتين تتعلقان بالتغيرات البيئية الناتجة عن التزايد في تطبيق التقنيات الحديثة في المحيط الصحراوي في السعودية . هناك عدد كبير من البدو ممن تخلوا عن أنشطة الرعي ، بينما يوجد هناك عدد آخر من الذين غيروا مفهوم هذه الأنشطة وراحوا يربون الحيوانات للاتجار بها . والطريقتان تعتمدان على تطوير الموارد المائية الجوفية من خلال حفر الآبار العميقة التي تعمل بواسطة مضخات ميكانيكية . وأول من باشر بالحفر شركات النفط تبعتها الحكومة السعودية ، كما أن اكتشاف ينابيع المياه الجوفية من أصل جليدي كان له تأثير كبير على المحيط الصحراوي في المملكة ، مما زاد من فرص التحضر وسمح للرعاة باستخدامها . وبما أن الحكومة ، ومعظم وكالات التنمية الدولية ، ومجمل الشعوب المثقفة في الشرق الأوسط تعمل لصالح تحضير البدو ، فسوف نتحدث عن هذه الناحية أولاً ومن ثم نتطرق إلى عملية تحديث طرق الرعي بشكل يتطابق مع المهارات التقليدية وتكييف البدو .

تحضير البدو

إن مسألة تحضير البدو هي مسألة ذات مسحة عاطفية في معظم الدول التي تضم شعوباً من البدو الرعاة . وفقاً للاتيمور (١٩٦٢) فإن منغوليا على سبيل المثال تشكل البلد الوحيد بين الدول التي تتمتع بتقاليد بدوية رعوية قوية ، والتي تشجع بفاعلية عملية تحديث البداوة الرعوية بدلاً من محاربة استمراريتها . كما أن معظم الحكومات العصرية تشعر أن البداوة هي شيء من الماضي لا مكان لها ضمن الهيكلية الحديثة . وعادة ما تشكل المعايير السياسية والاقتصادية الأسباب الكامنة وراء الدعوة للتحضر ، إلاّ أنه يجب ألاّ ننسى أن الاعتبارات الثقافية تلعب دوراً مهماً في عملية الظن أن البداوة لا تنسجم مع العالم المعاصر ، كما أنه لا يتم اعتبار المساحات البيئة التي يستغلها الرعاة والتي لا يمكن استخدامها للأغراض الزراعية .

إن تنقلهم الدائم وما ينتج عنه من مراوغة يسبب المشاكل بالنسبة للدول التي تسعى للسيطرة عليهم ضد إرادتهم، فهم يعتبرون بمثابة عملاء يصعب التعامل معهم بالنسبة لجباة الضرائب، كما أنهم يعبرون الحدود الدولية، دون الاهتمام بالمعاملات الرسمية أو امتلاك الوثائق الضرورية لذلك. ففي بعض المناطق مثل تلك الموجودة بين مصر وليبيا، والسودان وليبيا، وعبر صحراء سيناء بين الأردن ومصر وقبل حرب ١٩٦٧ حصلت عمليات تهريب واسعة اتهم البدو بها رسمياً، لكن ما من أحد اتهم الذين كانوا يشترون منهم السلع المهربة. كما أن البدو كانوا يمثلون تهديداً عسكرياً بالنسبة للحكومات المركزية في بعض المناطق، كما كان الحال في إيران في بداية القرن العشرين.

والحجة الأخرى التي تتذرع بها الحكومات هي أنها لا تستطيع نشر التعليم الرسمي وتدابير الصحة العامة، حيث يوجد البدو على أراضيها كافة. لكن كما رأينا فما من شيء يمنع الحكومات من تكييف برامج التعليم لديها مع الاحتياجات الخاصة للبدو وأنماط حياتهم، كما يمكن إفادة البدو من البرامج الصحية حيث يتواجدون، وليس من الضروري إنشاء المراكز الصحية في المدن والقرى فقط. على كل حال فإن معظم البدو على استعداد تام للذهاب إلى المدن أو القرى للحصول على الخدمات الصحية إذا أيقنوا وجودها، مما يعني تطوير المرافق الصحية والإعلان عنها بين البدو.

أما من الناحية الاقتصادية فإن البدو متهمون بأن أنشطة الرعي التي يقومون بها لا تخدم سوى مصالحهم الحياتية مما يضعهم على هامش الاقتصاد الوطني. فهم كما يقال يأخذون من الاقتصاد الوطني أكثر مما يعطونه، فالخدمات التي تحاول الحكومات إيصالها إليهم، والانزعاج الذي يسببونه للمسئولين لا تقدر بشكل صحيح من قبل البدو، الذين يعيشون على خيرات الحكومة أكثر منه على جهودهم الخاصة، لا سيما في الدول الغنية بالنفط في الجزيرة العربية وليبيا. لكن، وكما سنرى لاحقاً في هذا الفصل، فإن العديد من البدو يحاولون إدخال التغييرات على أنشطة الرعي لديهم، بحيث تتناسب والاقتصاد

المبني على السيولة من خلال تربية الحيوانات وبيعها في الأسواق ، حيث يوجد طلب كبير على اللحوم . فمن خلال عملهم هذا يسعون إلى ضم المناطق البيئية التي وفرت لهم كل ما يلزم في الماضي إلى الاقتصاد الوطني المعاصر ، على الرغم من المساعدات الضئيلة التي يحصلون عليها من قبل الحكومة .

المشروع الحكومي لتحضير البدو:
مشروع الملك فيصل للتحضير

إن المجال الرئيسي الوحيد الذي بذلت فيه الحكومات الشرق أوسطية جهوداً نيابة عن البدو كان في إعداد مشاريع تهدف لتوطينهم في مجتمعات زراعية جديدة ، وشهدت جميع تلك المشاريع بلا استثناء فشلاً ذريعاً أو نجاحاً جزئياً ، والسبب الكامن وراء ذلك مرتبط بالبيئة في الدول الشرق أوسطية . فالزراعة في تلك الدول عملية محدودة جداً حتى بعد اكتشاف الينابيع الجديدة من المياه الجوفية ؛ إذ إن المنتجات الزراعية تتطلب وقتاً طويلاً قبل أن تصبح مربحة اقتصادياً . وفي معظم الحالات فإن زراعة واستصلاح أرض جديدة تتطلب سنوات من الصبر والمهارة للحصول على منتجات تنافس منتجات الأراضي الزراعية القديمة الموجودة في الواحات أو التي تعتمد على مياه الأنهار في منطقة الشرق الأوسط ، أو المنتجات المستوردة .

فالبدو والرعاة لا يتمتعون بالصبر اللازم ولا بالمهارات ولا بالرغبة ، لتطوير المناطق الزراعية الجديدة ، فهم منذ القدم يحتقرون هذا النوع من العمل ويجهلون كل شيء عنه ، فأنشطة الرعي لديهم ما زالت توفر لهم المواد المعيشية الضرورية ، كما بإمكانهم شراء باقي المواد بواسطة الأجور التي يتقاضونها . إذن هم لا يملكون الحافز القوي الذي يجعلهم يتخلون عن أنشطة الرعي والتحول إلى تطوير العملية الزراعية التي يجهلونها ، على الرغم من الدعم السخي الذي توفره الحكومات الثرية في هذا المجال .

هذا لا يمنع أن الحكومات في الشرق الأوسط قد استثمرت الكثير من الجهود ، والمهارات ، والأموال على مشاريع التوطين الزراعية ، وما زالت الوكالات الدولية مثل منظمة الأغذية الدولية (الفاو) تشجع مثل تلك الجهود (الفاو ١٩٧١) .

أما أهم مشاريع التوطين الزراعية وأكثرها طموحاً وتقنية وأفضلها تخطيطاً ، والتي تمّ تطويرها ضمن ديرة آل مرّة ، كانت تلك التي تمّ تنفيذها قرب عين حرض في وادي صبحى . وقد عرف هذا المشروع باسم مشروع الملك فيصل للتوطين ، وهو يشتمل على مساحة تبلغ حوالي ٤٠٠٠ هكتار من أراضي الرعي التي تمّ إعدادها لأغراض زراعية ، وقد بلغت تكلفة هذا المشروع حوالي ٣٠ مليون دولار أمريكي . وبما أن الحكومة السعودية قد جعلت من هذا المشروع مشروعاً نموذجياً لتوطين البدو ، فهي لم توفر أية مصاريف لتحويل تلك الأرض الصحراوية التي لا تبعد كثيراً عن الربع الخالي إلى واحة زراعية حديثة تتوافر فيها الموارد المائية ، على أن يشمل المشروع في بدايته توطين حوالي ١٠٠٠ أسرة من البدو في ثماني قرى . ويشكل آل مرّة نسبة ٩٠٪ من الأسر المستفيدة ، أما باقي الأسر فهي تنتمي إلى قبائل آل عجمان ، والدواسر ، والقحطان .

بدأ العمل بالمشروع في أوائل الستينات ، وكان العديد من البدو يعانون من فترة الجفاف الطويلة التي دامت سبع سنوات ، حيث نفقت معظم الأغنام والماعز لا سيما بين القبائل المنتشرة في الشمال . كما شهدت الفترة نفسها تطورا سريعا في المدن الرئيسة بسبب تدفق عائدات النفط ، والذي أثر إيجاباً على الاقتصاد في الدولة بشكل عام . ونتيجة لذلك بدأ العديد من شباب البدو بمغادرة الصحراء والبحث عن عمل في المدن وحقول النفط في المملكة وفي مختلف الدول الخليجية المجاورة .

وكانت الحكومة تهتم بمصير البدو لديها وراحت تسعى لتحسين مستوياتهم المعيشية ، وإنشاء ما يؤمن لهم معيشتهم خارج أنشطة الرعي ، فبدأ العمل بالعديد من مشاريع التوطين ، لكن مشروع الملك فيصل في حرض كان يعتبر

الأكبر والأكثر طموحاً . وعلى الرغم من تأثر آل مرّة بعض الشيء بالجفاف الذي ضرب المنطقة وبالهجرة الواسعة باتجاه المدن ، فقد تم تنفيذ المشروع في حرض الواقعة ضمن دائرتهم بسبب توفر الموارد المائية وبسبب موقعها الاستراتيجي على خط سكة الحديد ، فهي تبعد مسافة ٣ ساعات عن أسواق الرياض ، وأربع ساعات عن الدمام ، والظهران ، والخبر المركز التجاري الواقع على شاطئ البحر .

وقد تصرفت الحكومة جزئياً وفقاً لمشورة مؤسسة فورد ، وذكر تقرير عرض على الحكومة السعودية ملخص ماهية «أغراض مشروع حرض للتنمية» كالتالي :

يجب إحداث تغييرات في مجال تحويل :

١) القرابة إلى مواطنية .

٢) المخيم المنعزل إلى حياة اجتماعية .

٣) الترحال في الرعي إلى مزارع حديثة .

٤) الفردية إلى مشاركة تعاونية .

٥) التقنية التقليدية إلى تقنية حديثة .

٦) المشاركة القبلية المبنية على القرابة إلى مشاركة وطنية مبنية على المواطنية (Smithers 1966: 18-19) .

وقد ذكر التقرير أيضاً أن البدوي هو «الشخص الذي يعيش يومه الحاضر دون الاهتمام بالغد ، ويتمتع براحة البال .» وتوصف قيم «البداوة» على أنها تشكل عائقاً على طريق النمو ، وبينما «يتمتع البدوي براحة البال» فهو ينظر إليه «كضحية الضيافة بلا حدود» «لا يهتم بغده» وتلك تشكل «القيم الاجتماعية التي تعوق طريق النمو . وهناك عنصران هامان : التوفير والاستثمار لهما أهمية حيوية بالنسبة للتنمية الاقتصادية يفتقر إليهما نظام القيم لدى البدوي» (Smithers 1966: 19) .

ولكن قد يكون كاتب التقرير ضحية انحياز ثقافته الخاصة لصالح المواطنية المسئولة التي يفتقر إليها العالم الغربي كما يقال ، وينظر إلى الأسرة الأساسية على أنها الوحدة المنتجة الرئيسية في عالم تسوده المنافسة الاقتصادية ، لذا فإنني لا أرى أي سبب يدعو الموظفين السعوديين الموكلين بالبرنامج إلى تحويل البدو إلى أفراد ينفر منهم المجتمع ، بل إن هدفهم هو توفير ما يظنونه أفضل بالنسبة إليهم من حياة البداوة .

وقد أشارت دراسة قامت بها وزارة الزراعة على البدو في منطقة حرض في عام ١٩٦٤ أن ٩٠٪ منهم يحبذون التوطين ، و٩٩٪ يفضلون العيش في منازل إسمنتية . وفي عام ١٩٧٠ ، وعند الانتهاء من معظم الأعمال الفنية ، واخضرار معظم المنطقة ، تبين أن هناك فخذين فرعيين فقط من آل مرّة ممن شاركوا بفاعلية في البرنامج ، بينما لم يشارك فيه سوى عدد قليل من باقي القبائل بصفة يد عاملة .

لماذا لم يحقق مثل هذا المشروع الضخم والحديث والمكلف أي نجاح في مجال التحول إلى مستوطنة تضم آل مرّة وباقي البدو في عام ١٩٧٠؟ إن العامل الأساسي الذي حال دون هذا النجاح هو ندرة الاتصالات التي تمت بين البدو ومخططي ومنفذي المشروع منذ ولادته . ولطالما انعدمت الاتصالات بين البدو والحضر في الشرق الأوسط ، لكن الفجوة بينهما راحت تتسع أكثر وأكثر بسبب الحضر الذين باتوا يشكلون أفراد البيروقراطية الحديثة ، والذين أصبحوا يتأثرون بالأفكار والثقافة الغربية المناهضة للتنظيم الاجتماعي التقليدي القائم في المنطقة بسبب جهلها له .

وقد أقرّ التقرير المرفوع إلى الحكومة بقلة المعلومات المتوفرة حول موضوع «البداوة وكيفية تحويلها» ، لكنه نصح الحكومة السعودية في الوقت نفسه بصرف مبالغ طائلة ليس فقط لتغيير الهيكلية الاقتصادية لأحد أهم مكونات المجتمع السعودي ، إنما لتغيير هيكليته الأسرية أيضاً . والأنموذج المقترح لتحويل البداوة كان مبنياً على المجتمع الغربي ، على الرغم من أن هذا المجتمع يواجه مشاكل عديدة في هذا المجال .

والنقطة الأهم بالموضوع هو أنه لم يتم ، في أي وقت من الأوقات ، استشارة آل مرّة للوقوف على رأيهم بمشروع التحضير وكيفية إعادة هيكلة اقتصادهم ومجتمعهم إذا ما أتيحت لهم الفرصة بذلك . لكن الحوار لم يتم بسبب الحواجز الثقافية القائمة بين المسئولين المعاصرين ورجال القبائل التقليديين .

ماذا حدث لآل مرّة الذين شاركوا في المشروع؟ خلال الفترة ما بين ١٩٦٨ و١٩٧٠ ، ومباشرة قبل الانتهاء من مرحلة البناء ، عمل حوالي ٢٠ فرداً من آل مرّة بصفة دورية في مزرعة نموذجية للتدريب تبلغ مساحتها ٢٠٠ أكر ، وكان ١٠ أفراد من قبائل أخرى يعملون في هذه المزرعة التي تديرها شركة سويسرية بصفة مستشارين فنيين وإداريين إلى جانب الألمان والفلسطينيين ، والأردنيين وسعودي واحد من الحضر . وكان يتلقى كل من العمال الذين كان يشار إليهم «بمستوطني المستقبل» راتباً شهرياً يتراوح بين ٣٠٠ و٥٠٠ ر.س . بينما كان رئيس العمال من البدو يحصل على ١٠٠٠ ر.س . والفلسطينيون والأردنيون على أضعاف هذا الراتب ، والموظفون الأوروبيون على رواتب خيالية .

وانضم إلى مجموعة عمال آل مرّة مجموعة أخرى مختلفة العدد (لكنه نادراً ما يتعدى ٢٠ أو ٢٥) وقامت بأعمال من مستوى أدنى وبأجر أقل بصفة دورية لدى شركة ألمانية متعاقدة مع الحكومة السعودية تهتم بحفر الآبار وقنوات الري ، ومد الأنابيب ، وشق الطرقات وتنفيذ التطويرات الفنية الأخرى ، ولم ينتظر من هذه المجموعة أن تستوطن في المنطقة .

وعاشت مجموعتا آل مرّة من العمال في غرف صغيرة تمتد في صفوف طويلة على شكل ثكنات ، تضم كل منها ٦ أو ٨ أشخاص يفترشون الأرض بغياب جميع أنواع الكماليات ، وانضم إلى أفراد أفخاذ آل مرّة العريقة أغلبية أفراد اليد العاملة في المشروع والذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة في الإحساء ، وعمان ، واليمن ، وحضرموت . وكان أفراد آل مرّة يهربون من تلك الثكنات في المناسبات ويقيمون في خيام أقربائهم الذين كانوا يتوقفون بالقرب من حرض خلال ترحالهم السنوي . وعادة ما ينسى أفراد آل مرّة عملهم خلال الليل

ويتجمعون حول مواقد القهوة للتحدث عن الصحراء ، والأمطار والقبيلة بشكل عام . عندما كنت أجلس معهم كانوا يدعونني لمشاركة طعامهم ، معتذرين عن عدم تمكنهم من القيام بواجبات الضيافة كما يلزم في هذا المخيم .

إلى جانب العمال احتلت أسرتان من آل مرّة مراكز مرموقة بعض الشيء ، فقد نجح أحد أفراد الأسرة الأولى بالعمل بصفة مقاول وسيط بين الشركات والحكومة ، وانضم إليه بعض أقربائه . وقامت إحدى الشركات ببناء منزل خاص به ، كما دفعت له ولأفراد الفخذ التي ينتمي إليها ما يسميه الألمان والسويسريون البخشيش بشكل خراف ، أو منتجات من المزرعة ، أو خدمات خاصة . أما الأسرة الثانية والتي كانت تنتمي إلى القبيلة نفسها ، قبيلة آل غفران فقد نجح الابن الأكبر لديها بالعمل كرئيس للعمال في المزرعة ، والابن الثاني كميكانيكي يتقاضى أجراً عالياً ، وهذه الأسرة أيضاً حصلت على البخشيش . وما كان يثير حفيظة بقية آل مرّة من العاملين في المزرعة هو لقب الشيخ التي كانت الشركة تطلقه على أفراد الأسرتين . على الرغم من عدم تمتعهما بهذا اللقب ضمن القبيلة ، وكان من السخرية أن يسمح أفراد الأسرتين للشركة باستخدام هذا اللقب . وهذه الطريقة في التعامل حالت دون عمل أفراد العشائر الأخرى في الموقع ورفضهم التعاطي مع أفراد الأسرتين .

وما من أحد حتى اليوم من أفراد الأسر التي تتمتع بمكانة الشيخ ضمن آل مرّة كانت له أية علاقة بالمشروع ، فمعظمهم استهجن الطريقة التي يدار بها المشروع من قبل المقاولين الأجانب ، والمكانة الوضيعة التي منحت لأفراد قبيلة آل مرّة في المشروع المعد لتحسين طريقة العيش لدى البدو . وقد أشار أحد أبناء شيخ من آل مرّة بعد سماعه قول أحد مسئولي المشروع إن مخزون المياه يكفي لمدة ١٠٠ سنة ، إلى أن الاستيطان على المستوى الواسع في هذه المنطقة سيكون بمثابة مغامرة لقبيلته التي نجحت بتدبر أمرها على مدى آلاف السنين .

الاستيطان العفوي

كانت آل مرّة القبيلة الوحيدة في المنطقة العربية التقليدية التي لم يستوطن أفرادها الواحات بشكل دائم، بينما كان معظم أفراد باقي القبائل (٥٠٪ أو أكثر) يقيمون في مستوطنات دائمة لعبت دوراً اقتصادياً هاماً في حياة باقي أفراد القبيلة من البدو. فكانت تلك المستوطنات مسرحاً للمخيمات الصيفية، حيث كان الحضر يهتمون بأشجار النخيل المملوكة من قبل البدو في الواحات، وكان البدو يهتمون بالحيوانات المملوكة من قبل الحضر.

وبسبب النقص الحاصل في الموارد المائية لم ينشىء آل مرّة أية واحات في دائرتهم تعنى بالزراعة، وهم يمارسون الزراعة المتعلقة بشجر النخيل في أربعة مواقع مختلفة: في جبرين، والخن، وانباك، والسكك، لكنهم لم يستوطنوا فيها بشكل دائم. فقد شهدت جميع تلك المناطق محاولات للاستيطان فيما مضى، وهي جميعها اليوم تشكل مسرحاً للأنشطة العصرية التي قد تؤدي إلى توطين بعض أفراد آل مرّة. وبما أن تلك الواحات تعكس الطريقة التي حاول البدو العرب من خلالها دمج الزراعة ضمن الاقتصاد الخاص بهم، فمن الأهمية بمكان دراسة واحدة منها باختصار.

تتضمن جبرين، وهي أكبر الواحات الأربع، مجموعات من أشجار النخيل وتمتد على مساحة طولها ١٥ ميلاً وعرضها بين ٢ و٣ أميال، ويسكنها خلال فصل الصيف أفراد قبيلة آل جابر، مع العلم أنه يحق لآل مرّة المطالبة بأية أرض غير مستخدمة وزراعة الأشجار فيها. وتنقسم الواحة إلى قسمين يحتل كل منهما فخذاً مختلفة من قبيلة آل جابر. فأمير آل جابر، ابن المرضف الذي ينتمي إلى واحدة من الأسر الأربع التي تتمتع بوضع المشيخة ضمن آل مرّة، يتخذ من الواحة مقراً له في الصيف، ويمضي فصول الخريف، والشتاء، والربيع في مخيم يقع على أطرافها عندما يرتحل معظم أفراد القبيلة. أما الواحة بحد ذاتها، فلا يسكنها أحد إلاّ خلال فصل الصيف لا سيما في أوقات حصاد

شجر النخيل في شهري يونيو (حزيران) وأغسطس (آب).

وتعتبر التمور المنتجة في جبرين من النوع الجيد الذي يقدره آل مرّة والآخرون أثناء الحصاد، إلاّ أن هذا النوع لا يمكن الاحتفاظ به لفترة طويلة؛ لذا يتم استهلاك معظم المحصول خلال فصل الصيف وأوائل فصل الخريف. وأشجار النخيل في الواحة هي في حالة يرثى لها، مما يعكس عدم اهتمام آل مرّة بالزراعة، فهم سعداء بامتلاك هذا المورد لكنهم لا يفعلون أي شيء لتطويره.

أما العمل الوحيد الذين يقومون به خلال وجودهم في جبرين هو تسلق أشجار النخيل لقطف ثمارها، وفيما عدا ذلك تترك الأشجار بلا أية عناية. وكما أن المياه الجوفية في جبرين هي قريبة من سطح الأرض فلا توجد أية حاجة لري الأشجار.

لا تلعب واحات آل مرّة أي دور هام في اقتصادياتهم، كما أنها تسهم هامشياً في تأمين معيشتهم، ويبقى رعي القطعان يشكل أهم مورد رزق لهم، ومنتجات الواحات نوع من الكماليات الاستهلاكية. أما على الصعيد الاجتماعي فإن للواحات دورا هاما في المحافظة على التضامن القبلي في الوقت الحاضر، لأنه منذ اتساع سوق العمل مقابل الأجر الذي تبع تطور صناعة النفط بدأ العديد من آل جابر الذين يدعون ملكية الواحات ببناء المنازل الصيفية فيها، ويسكن البدو في تلك المنازل المبنية من الطين وسعف النخيل خلال أشهر الصيف الحارة، بينما يعود الذين يعملون في المدن إلى الواحات لقضاء إجازة الصيف وإعادة تجديد العلاقات مع باقي أفراد الفخذ أو القبيلة. وهناك من يتحدث عن تحديث الواحات وتطوير أنواع جديدة من الزراعة فيها، لكن ما من شيء تمّ حتى الآن، كما شهدت جميع الواحات ما عدا واحدة إنشاء المدارس فيها.

تعكس المحاولات العفوية الأخرى للاستيطان المدى الواسع للتغيرات الاقتصادية التي تحدث، إذ إن هناك عدداً كبيراً من أفراد آل مرّة ممن تخلوا عن أنشطة الرعي والعمل مقابل الأجر، وهم إما يقومون ببيع قطعانهم أو تركها

برعاية الأقرباء . وقد بدأت عملية التخلي هذه في بداية الخمسينات وتتزايد يوماً بعد يوم ، ويتمركز أفراد القبائل في مدن من الأكواخ يملكها ويسكنها آل مرّة . أما السبب الكامن وراء التخلي عن الرعي فيعود إلى الأنشطة الصناعية على الرغم من أن عدداً قليلاً منهم قد توجه نحو الأنشطة الزراعية .

وتقع إحدى مدن الأكواخ على أطراف الطريق السريع الذي يربط بين الرياض والظهران ، على بعد ٥ أميال إلى غرب مدينة أبقيق ، وتتضمن أكثر من ٣٠ وحدة سكنية يحيط بكل منها فناء صغير وسور خشبي . وتتضمن كل وحدة ٣ غرف لكل منها مدخلها الخاص ، وتخصص واحدة من تلك الغرف لمجلس الرجال والغرف الأخرى للنساء . تم بناء تلك الوحدات السكنية والأسوار التي تحيط بها بواسطة الألواح الخشبية والمعدنية التي نزعت من المباني القديمة التي تمّ هدمها والعائدة لشركة النفط ، ويتم سنوياً إدخال بعض التحسينات على تلك الأكواخ ، مثل استخدام الإسمنت لصنع أرضية لغرف .

يشكل آل مرّة ثلثي سكان مدينة الأكواخ هذه ، لا سيما أفراد قبيلة بني هاجر ، ويوجد بينهم مجموعات من البيوت تربط بينهم صلات قرابة وثيقة ، لكن هذه المدينة الجديدة لا تتقيد بمبادئ التنظيم الاجتماعي للفخذ أو القبيلة ، ولا يمكن اعتبار المستوطنة وحدة من وحدات الهيكلية الاجتماعية القبلية كما في جبرين ، حيث لا يشعر سكانها بأنهم مجتمع خاص بالنسبة لباقي العالم . فكل بيت هنا يوجد بمفرده بينما يرعى باقي أفراده الإبل في الصحراء . وغني عن القول إنه على الرغم من وجود نوع من الحياة الاجتماعية بين المستوطنين ، فإننا لا نجد أي تنظيم اجتماعي كما في المدن أو القرى ، فالرجل ينظر إلى رئيسه القبلي على أنه رئيسه ، ويسعى للتزاوج مع أقربائه من البدو من دون إعارة أي اهتمام لباقي الأسر الموجودة في المستوطنة .

كل من يسكن في هذه المستوطنة يعمل أو قد عمل في شركة النفط في أبقيق ، أو هو الآن أو كان في خدمة ابن جلوي أمير الإحساء أو أية وكالة حكومية أخرى ، إذن فهم جميعهم معتادون على الحياة في المدينة إذ إنهم قد

بدأوا بالعمل لدى شركة أرامكو أو لدى الحكومة منذ عشرين سنة على الأقل، وقد شارك معظمهم في مخطط أرامكو الذي أدى إلى بناء الفلل في الهفوف وأبقيق، إلاّ أنهم هجروها أو أجروها بسبب تفضيلهم للعيش خارج المدينة. حتى لو لم يكن المرء يعيش مع أقربائه من أفراد القبيلة، فإنه من خلال عيشه خارج المدينة يمكنه المرح مع زملائه من البدو السابقين، وتفادي التعاطي مع الشعوب الحضرية التقليدية. ومع توفر المزيد من المساحات، استأنف المستوطنون بعض أنشطة الرعي وعادوا لتربية الأغنام والماعز التي يتركونها ترعى على أطراف المستوطنة. كما ظهرت الحدائق الزراعية التي تحتوي على شجر النخيل ومزروعات أخرى مثل الطماطم والفصة. ويتم استخدام العمال للعناية بتلك الحدائق بينما يتابع مالكوها عملهم في شركة أرامكو، أو أي عمل آخر في المدينة يدر عليهم المال الوفير.

ويرافق الأبناء آباءهم في رحلتهم اليومية إلى المدينة لمتابعة الدراسة، بينما تبقى النساء في المنزل لتهتم بالحيوانات في حال وجودها. ويحتفظ حوالي نصف بيوت المستوطنة بخيام في الصحراء ينتقل إليها النساء والأطفال في الشتاء والربيع لرعي الأغنام والماعز، وخلال العطلة الصيفية تتوجه النساء والأطفال إلى منطقة الآبار في عمق الصحراء لزيارة الأهل وتفقد الإبل التي تركوها برعاية الأقرباء.

مواقف آل مرّة تجاه التوطين

لا يحتقر آل مرّة التحضر بحد ذاته على الرغم من عدم تقديرهم للشعب السعودي الحضري. وهم يدركون جميعاً أن التوجه العام الحالي لمعظم بدو السعودية هو في الاستقرار على الأقل جزئياً، ويقرّون بالفوائد الجمّة التي تنتج عن بعض أوجه الاستقرار، ويرغبون في المشاركة في الخدمة العامة. والقليل منهم يريدون التخلي عن إبلهم وأنشطة الرعي بشكل عام، كما يرغب كل

واحد منهم بالحصول على منزل صيفي، وقطعة أرض زراعية صغيرة مع بعض شجر النخيل. وإذا ما تطلب الاهتمام بقطعة الأرض تكريس أحد أفراد الأسرة وقته بالكامل لها مقابل إنتاج ما يكفي لدفع ثمن هذا الوقت، فإن كل بيت على استعداد تام لتوفير فرد من أفراده للقيام بمثل هذا النشاط، لكن ما من أحد يريد التخلي عن خيمته وقطيعه بشكل مفاجئ لصالح استيطان المجموعة. وبينما تشكل الناحية العاطفية أحد الأسباب التي تجعل البدوي يتردد في التخلي عن أنشطة الرعي، فإن الناحية العملية تشكل السبب الأهم.

وخلال صيف ١٩٦٩ انتقد عدد كبير من قادة قبيلة آل جابر في جبرين تخلي البدو عن طرق عيشهم المختبرة والأكيدة، وقال أحدهم إن الجزيرة العربية هي أرض شاسعة لطالما نجح البدو والحضر في تأمين معيشتهم فيها من خلال تربية الحيوانات وزراعة التمور، بينما يجب تأمين طعام الأعداد الكبيرة من المهاجرين الذين تدفقوا على المملكة، من خلال شراء الأرز والمواد الغذائية الأخرى، مستخدمين بذلك عائدات الصناعة النفطية. وأضاف إنه بالإمكان «تفجير آبار النفط خلال ٣٠ دقيقة وبغياب الأموال سيموت جميع سكان الرياض والظهران بسبب افتقارهم للمواد الغذائية، ولن يتبقى للأجانب أي وقود للعودة إلى ديارهم.»

والبدو يدركون دقة التوازن البيئي الموجود في معظم أنحاء الجزيرة العربية، وعلى الرغم من قسوة سنوات الجفاف فإن كل واحد منهم يدرك التاريخ الطويل من الصراع من أجل البقاء، ومكانته العالية بكونه فرداً ينتمي إلى قبيلة قوية منذ ما قبل ظهور الإسلام بوقت طويل. فهم محقون في الشك بوفرة الموارد المائية، ويترددون في الاعتماد على الزراعة التي تحتاج إلى ري مستمر. ولا يوجد أي ذكر لعملية التحضر بسبب الأنشطة الصناعية أو التجارية، على الرغم من أن معظم البدو الذين استقروا في السعودية قاموا بذلك بسبب عملهم مع شركات النفط أو كسائقين، أو كموظفين حكوميين.

عندما لا ترتبط عملية التحضر بمسالة البقاء، فإن آل مرّة يتقبلونها شريطة

المحافظة على بعض المعايير الاجتماعية . وقد رفض معظم قادة آل جابر ، على سبيل المثال ، فكرة تحديث جبرين وتطويرها على أي مستوى كان يشبه مشروع الملك فيصل للتوطين ، الذي نفذ في حرض على بعد ٦٠ كم إلى الشمال ، إذ إنهم شعروا أن مثل هذا المشروع سيفتح أبواب الواحة أمام عدد كبير من الغرباء غير المرغوب فيهم ، وعدد مماثل من السعوديين من غير رجال القبائل ، مما يحول دون بقاء جبرين كمركز يتجمع فيه البدو وأقرباؤهم من الحضر والعيش كإخوان في عالمهم الخاص . وهذا ما يشعر به باقي أفراد آل مرّة عندما يقولون إن التحضر مقبول طالما أنه يحافظ على بقاء أفراد الفخذ الواحد سوياً . ولهذا السبب فإن معظم البدو يحتقرون مدن الأكواخ الموجودة خارج المدن الرئيسية ؛ لأنها تمثل انفصال الرجل عن مجموعته القبلية ، وفكرة الاستيطان الوحيدة والمقبولة ، بل التي تعتبر المثلى هي مكان في موقع مناسب ضمن دائرة أحدهم ، يسكنه أفراد من فخذ واحدة ، سواء كان ذلك بشكل دائم أو مؤقت يزوره الأقارب المنتمون إلى الفخذ نفسهاعلى الأقل في المناسبات .

ويمكن لمشاريع تحسين الواحات الموجودة أو التطويرات الجديدة أن تشتمل على برامج لتدريب شباب آل مرّة الذين يتوجهون للعمل في صناعة النفط . وسوف توفر هذه البرامج التعليم اللازم للشباب لكي يقوموا بأنفسهم بأعمال التحسين والتطوير بدرجة أعلى من النجاح ، بدل استقدام الخبراء الأجانب الذين لا يعرفون شيئاً عن اللغة ، والثقافة أو المجتمع .

فمن خلال تفضيلهم للمستوطنات التي تضم أفراداً من الفخذ الواحدة ، يعترف آل مرّة بأهمية الفخذ بصفته وحدة من وحدات التنظيم الاجتماعي الخاص بهم . وقد يوافقون على مشاركة الأفخاذ القريبة المنتمية إلى قبيلة واحدة المستوطنة نفسها ، لكن الخلط بين العشائر في أي نوع من المستوطنات يعتبر أمراً صعباً للغاية نظراً لواجب كل قبيلة للاهتمام بأفرادها ، كما أنه لا يمكن الاعتماد على ولاء الفرد لمن هم من خارج عشيرته . فالقيادة السياسية تتمحور حول التجمعات العشائرية ، كما إزاحة قبيلة من قبل قبيلة أخرى من الحياة

الاقتصادية أو السياسية في المستوطنة يعتبر نوعاً «غير صحيي، وغير قبلي» من المنافسة. بالإضافة إلى ذلك فإن التنظيم المكاني للعشائر يؤدي إلى تشتتهم فوق مساحة شاسعة، والجمع بين عشائر مختلفة في مكان واحد قد يعني إزاحة جميع العشائر ما عدا واحدة من أراضي الرعي الرئيسية الخاصة بها.

كما أن السياسة تلعب دوراً فيما يختص بمواقف آل مرّة تجاه التوطين. فإلى جانب المشاكل الاقتصادية والبيئية هناك نقص في الإدارة، كما أن ضخامة مشروع الملك فيصل للتوطين تشكل أحد الحواجز التي تحول دون نجاحه. فالأفخاذ والعشائر التي تستغل الأراضي المجاورة للمشروع ترفض المشاركة فيه حتى بصفة عمال، بسبب سيطرة قبيلة آل غفران وبعض قادتها على المشروع. ومن وجهة نظر أخرى يخاف بعض قادة القبائل التقليديين من التوطين الدائم؛ لأنه يستخدم كوسيلة لتسهيل تبعية القبيلة سياسياً للدولة، فهم يظنون أنه لن يكون من السهل إرغام البدو على القيام بشيء ما لأغراض سياسية إذا كانوا يرتحلون دائماً من دون أي ارتباط بقطعة معينة من الأرض؛ لذا نرى أنهم يفضلون القرى المعزولة على القرى القريبة من المدن، مما يحول دون اختلاط البدو بعناصر غير قبلية، وكلما زادت العزلة، زادت الحرية.

وآل مرّة لا يعتبرون أنفسهم رعاة أو بدواً فحسب، بل هم رجال قبائل أيضاً. فهم لا يعترضون على الاستيطان إذا استطاعوا المحافظة فيه على طريقة العيش القبلية، لأن تنظيمهم الاجتماعي يشكل جزءاً من تكيّفهم مع البداوة، فالمستوطنات تعني وجود أعداد كبيرة من الأشخاص في مكان واحد، ونوعاً من الترابط يحول دون عملية التجمع والانفصال التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة. كما أن استيطانهم في مدن الأكواخ مؤخراً يعكس الشرخ الحاصل في التنظيم الاجتماعي القبلي، على الرغم من أن المستوطنين ما زالوا يعتبرون أنفسهم أعضاء في القبيلة.

من المتوقع أن يحافظ التنظيم القبلي على ميزته، على الأقل جزئياً، في حال إذا ما تمّ التخطيط للاستيطان على مستوى واسع في جميع أنحاء الجزيرة

العربية ، وفي حال بذل المحاولات الكافية لجعل تلك المستوطنات تتمتع باللامركزية بطريقة تسمح لمجموعات من الأقارب بالاستقرار سوياً ، ودمج أنشطة الرعي مع أنشطة أخرى ، وأنا أشك أن مثل هذا الأمر قد يحدث في يوم من الأيام . إلاّ أن آل مرّة يحبذون الاشتراك بفاعلية في تخطيط وتنفيذ المشاريع التي تهدف إلى تغيير نمط حياتهم ولو بدرجات صغيرة ، إذ لا يمكن لأي مشروع أن ينجح إلاّ هامشياً إذا لم يتم إشراكهم في جميع الخطوات .

التغيرات التي طرأت على عمليات الترحال للرعي

إن التحول الذي طرأ على الريف السعودي ، والذي كان مثيراً للاهتمام ، ولكنه لم يعط حقه من المناقشات ، كان تحوّل البدو من رعي الإبل كمورد لتأمين معيشتهم إلى رعي الأغنام والماعز لتأمين معيشتهم ولبيعها في الأسواق . ففي رأي معظم المعلقين حول موضوع الدولة السعودية الحديثة أن البدو قد اختفوا من الوجود ، فهم يظنون أنهم قد تخلوا عن الصحراء واستقروا في المجتمعات الحضرية . ويشاركهم العديد من الحضر السعوديين في هذا الرأي المبني على أن البدو هم بالفعل استقروا في المدن وحولها ، وأن من بقي منهم في الصحراء قد اختفى عن الأنظار . صحيح أنهم اختفوا عن أنظار أهل المدن ، هذا لأنهم اعتمدوا ثياب الحضر- لا سيما الرجال- ولأنهم لم يعودوا يزورون المدينة وهم على ظهور الجمال ، بل راحوا يتنقلون بواسطة الشاحنات الصغيرة الجديدة . وفي رأيي ، فإن أعداد الخيام والقطعان التي ما زالت ترعى في الصحراء أصبح يفوق الأعداد التي كانت قائمة في الماضي قبل نمو صناعة النفط . تلك هي الحال مع آل مرّة وباقي القبائل .

صحيح أن أفراداً من الأسر البدوية قد استقروا في المدن وأسسوا بيوتاً فيها ، لكن وكما رأينا في الفصل الثالث ، فإن البيوت البدوية التقليدية تشتمل على أكثر من أسرة نووية واحدة ، وفي العديد من الحالات كانت تلك الأسر البدوية

تتضمن عدداً أكبر من الأفراد كما هو مطلوب للعمل ، لذا فقد كان من السهل عليها الانقسام بطريقة تتيح لبعض من أفرادها بالعمل في المدينة ، بينما يهتم البعض الآخر بأنشطة الرعي .

وهذا ما يحدث مع آل نقادان رعاة الإبل التقليديين ومع معظم البدو السعوديين الذين تحولوا من تربية الإبل إلى تربية الأغنام والماعز . وهذا التحول يعتمد مباشرة على توفر الموارد المائية اللازمة من خلال حفر الآبار التي تعمل ميكانيكياً ، واستخدام الشاحنات الصغيرة خلال أنشطة الرعي .

وقد ساهم هذان العاملان في إتاحة المزيد من الفرص لتربية الأغنام والماعز داخل الصحراء . ففي السابق كان الجمل يمثل الحيوان الوحيد الذي كان بالإمكان التنقل به بين المراعي المختلفة بسبب عدم توفر الموارد المائية ، وبما أن الأغنام والماعز لا تتمتع بقدرة الجمل على الاستغناء عن المياه لفترات طويلة ، فقد اقتصرت تربيتها على الأماكن القريبة من موارد المياه .

لكن عملية استحداث الآبار العميقة قد شغلت مساحات واسعة من الصحراء كانت تستخدم فقط للإبل أمام تربية الأغنام والماعز . كما أن استخدام الشاحنات قد ساهم كثيراً في هذا التغيير ؛ إذ أتاح إمكانية نقل الماء إلى القطعان بدلاً من سوق القطعان نحو الماء ، كما مكن البدو من نقل الماعز والأغنام إلى المراعي بواسطة تلك الشاحنات .

وشهدت مناطق الآبار الجديدة نمو مدن صغيرة حولها توفر الخدمات للمواطنين ، ويشتمل سكانها على الرعاة ، والباعة ، وأفراد الشرطة ، والمدرسين ، وفي العديد من الحالات المزارعين الجدد ؛ لأن تطوير الزراعة أصبح يشكل جزءاً هاماً من تلك المستوطنات . وساهم بروز المدن الجديدة في اختفاء البدو من المدن الكبيرة بسبب توفر جميع الخدمات فيها ، وامتدادها حتى المناطق الخلفية . وهكذا لم يعد البدو الذين استمروا بممارسة أنشطة الرعي بحاجة للذهاب إلى المدن الرئيسية .

وبينما كانت تلك التغييرات تحدث في الصحراء شهد النمو السكاني

الحضري قفزة نوعية ، وازدادت القوة الشرائية لدى السعوديين . فحلّق الطلب على اللحوم والمواد الغذائية الأخرى في المملكة ، وتمت تلبية الاحتياجات من خلال استيراد كميات هائلة من المواد الغذائية من الخارج . وشحنت لحوم الأغنام المثلجة من نيو زيلند ، وأستراليا ، والأرجنتين ، كما استقدمت قطعان الإبل من السودان ، وبأت المناطق الخلفية من السعودية بتلبية الاحتياجات المتزايدة للمدن على الرغم من إمكانياتها الضئيلة .

ولحم الغنم في السعودية هو اللحم المفضل لدى الحضر ، أما لحم الجمال الذي يعشقه البدو فهو يعتبر طعام الفقراء من الحضر ؛ لأن معظمه ناتج عن ذبح الجمال الكبيرة بالسن ، والتي عادة ما يكون لحمها قاسياً بعض الشيء . والبدو لا يربون الإبل من أجل لحمها إنما من أجل حليبها واستخدامها كوسيلة للنقل .

لكن رغم ذلك فقد ذكر أحد الدارسين ريتشارد بوليت أن الإبل تشكل المصدر الأساسي للحم في المناطق الصحراوية ، لأنها تأكل الأشواك والنباتات الأخرى التي يستحيل على باقي الحيوانات أكلها . ولا توجد أية دراسات تقارن بين الجمال والماعز والأغنام كمورد لإنتاج اللحم ، لكنه في مطلق الأحوال فإن شريحة كبيرة من بدو السعودية قد تحولت من تربية الإبل إلى تربية الأغنام والماعز . وتربى الأغنام لكي يتم بيعها في الأسواق بينما تربى الماعز لكي توفر الحليب ومشتقاته للرعاة .

والتحول من تربية الإبل إلى تربية الماعز والأغنام قد حصل بطريقة عفوية لدى البدو ، ولم يأت كنتيجة لأية سياسة حكومية أو طلب من الجهات الخارجية . وبسبب طبيعة ثقافتهم المبنية على أنشطة الرعي ، فليس عجيباً أن يتجاوب البدو مع التغيرات التي طرأت على السعودية ، من خلال إدخالهم للتغيرات على الأنشطة التي يمارسونها . فهم يحبون الحيوانات ويعرفون كل شيء عنها ، لكنهم يحتقرون الزراعة ويجهلون كل شيء عنها . وهم اعتادوا على العمل باستقلالية لفترات طويلة داخل الصحراء ، ويقدرون تلك الاستقلالية ،

لذا فهم يجدون صعوبة كبيرة في العيش ضمن مستوطنات ضيقة والاحتكاك بعدد كبير من الناس .

والاتصال بين البدو والحضر ليس بالشيء الجديد في الجزيرة العربية ، ولا يمكن اعتبار البدو بمثابة جزيرة اقتصادية واجتماعية منفصلة عن باقي المنطقة ، بل لطالما كانوا جزءاً من النظام الاقتصادي والاجتماعي الواسع ، على الرغم من أن التبادل بينهم وبين الحضر كان محدوداً . فكل من البدو والحضر في السعودية منفتحون على التغيير والتطوير ، لكنه وبسبب تكيفهم البيئي فإن البدو لا يمتلكون مهارات الرعاة وحسب ، بل أقاموا نوعاً من التنظيم الاجتماعي وهو التنظيم القبلي : الأفخاذ ، والعشائر الذي يتناسب وممارسات الرعي المتخصصة لديهم . ونتيجة لذلك فإن إرغامهم على التخلي عن أنشطة الرعي - كما سعت بعض الحكومات لذلك- يتطلب إحداث بعض التغييرات الاجتماعية والثقافية الجوهرية التي ينتج عنها في الوقت نفسه ضياع الأراضي التي كان يستغلها الرعاة . وحيث إن الطلب على البروتين الحيواني قد تزايد في السعودية ، وحيث إن المناطق الخلفية تمتلك القدرة على تلبية جزء كبير من هذا الطلب ، فسوف يكون من المؤسف التوقف عن استغلال هذا المورد الحيوي .

ما هي التغييرات التي أدخلها البدو على أنشطتهم؟

قبل توفر الآبار الحديثة في الصحراء ، كانت تربية الأغنام والماعز تقتصر على القبائل ذات المكانة الاجتماعية الوضيعة ، والتي كانت تعتبر من تبعية القبائل القوية التي تعنى بتربية الإبل وتوفر لها الحماية العسكرية . أما اليوم فالعكس هو الصحيح ، حيث نجد أن الأثرياء والنافذين من البدو هم الذين يملكون القطعان الكبيرة من الأغنام ، وهذا يشمل معظم القبائل الرئيسية التي كانت تعنى بالإبل باستثناء آل مرّة في السعودية . فالتغيير الذي طرأ على آل مرّة كان أقل بكثير من الذي طرأ على باقي القبائل بسبب عدم ملاءمة ديرتهم ،

الربع الخالي، لتربية الأغنام، وبسبب المساحات الشاسعة التي تفصل بين المراعي، وندرة النباتات، مع العلم أن أفراد آل مرّة الذين خرجوا من الربع الخالي قد تحولوا، أو هم بصدد التحول إلى تربية الأغنام والماعز. وعلى الرغم من أن عددهم أقل بكثير من باقي أفراد القبائل الأخرى الذين سبقوهم في عملية التحول، إلاّ أن هذا النوع من التربية يعتبر بمثابة تجربة جديدة بالنسبة للجميع.

مقارنة مع تربية الإبل، فإن تربية الماعز والأغنام لا تتطلب انتباهاً كبيراً من قبل الرعاة. فالإبل تتنقل ضمن مساحات واسعة، مما يضطر الرعاة إلى تقسيم القطيع الواحد إلى أربعة أقسام، ويحتاج كل قطيع إلى ثلاثة رعاة. بينما لا يحتاج قطيع كبير من الأغنام والماعز سوى راع واحد ولبعض المساعدين في عملية الحلب والسقي. ومثله مثل راعي الإبل فإن راعي الغنم والماعز يمضي فصل الصيف قرب الآبار الثابتة، ويرتحل مع القطيع إلى مراع أخرى خلال الفصول الأخرى، إلى حيث توجد الأعشاب والنباتات. لكنه لا يتنقل أكثر من خمس أو ست مرات في السنة، بينما يضطر آل نقادان مثلاً للتنقل مع إبلهم على الأقل ستين مرة في السنة خلال فصول الخريف والشتاء والربيع.

والتحول من تربية الإبل إلى تربية الأغنام والماعز أوجد أنماط عمل جديدة بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء، باتت تتيح لهم المزيد من الوقت للقيام بأنشطة لا تتعلق بالرعي. فبسبب عدم اضطرارهن للتنقل باستمرار بات باستطاعة النساء إنتاج المزيد من السلع المنزلية للبيع. فنساء آل نقادان كن دائماً منشغلات بعملية الترحال ولم يتمكن من إنتاج أي شيء على الرغم من ضلوعهن في الحياكة، فكن يصنعن بعض الأشياء للاستخدام المنزلي فقط وليس للبيع. أما اليوم فقد أصبحت النساء تصنع السجاد، والسروج، والأشياء الزخرفية، كما أصبح لديهن الوقت الكافي لإعداد الأطباق المعقدة والمتنوعة وصناعة الجبن، والزبد من دهن الحيوان. فهن حالياً يعتبرن من أفضل الطهاة في الصحراء. أما المرأة التي تعنى بالإبل فهي بالكاد تملك ساعة من الزمن لتحضير الطعام فكيف يمكنها تصنيع منتجات الحليب.

وتلعب المرأة دوراً هاماً في تربية الأنام والماعز ، إذ إنها بالإضافة إلى واجباتها المنزلية تعتبر المسئول الوحيد عن القطيع في غياب الرجل في عمله ، أو دراسته ، أو الخدمة العسكرية ، بينما كنا نجد الرجل إلى جانب المرأة دائماً للاهتمام بالإبل .

وقد باشر البدو باستخدام الرعاة من المناطق الفقيرة في العراق والأردن وسوريا للاهتمام بالأغنام والماعز خلال فترة عملهم في المدينة ، لذا بدأنا نرى في السعودية ظهور نوع من المزارع لتربية الحيوانات في الصحراء .

ومع استمرار حاجة القطيع للتنقل بين المراعي في مختلف الفصول ، إلاّ أن أنشطة الرعي لم تعد تشكل مورد الرزق الوحيد بالنسبة للبدو ؛ إذ راحوا يجمعون بينها وبين أنشطة أخرى ، مما وفر لهم مستويات معيشية أفضل ضمن الاقتصاد الحديث .

ومن المبكر جداً الحكم على مدى نجاح البدو في التحول من تربية الإبل لتوفير مورد الرزق إلى تربية الأغنام والماعز لتوفير احتياجات السوق . ويخشى علماء البيئة أن يؤدي وجود هذا العدد الكبير من الأغنام والماعز إلى القضاء على الثروة النباتية في السعودية ، لكنه يمكن السيطرة على هذه المشكلة من خلال وضع برنامج خاص ، والذي كان البدو يطبقونه منذ آلاف السنين .

إن ما يحتاج إليه البدو اليوم هو دعم وتعاون الحكومة . وقد ساهمت الحكومة بشكل فعال من خلال تطوير الآبار وصيانتها ، وتوفير الشاحنات الصغيرة ، وبناء المدن الجديدة . لكن البدو بحاجة إلى تسهيلات تسويقية أفضل تشجعهم على نقل حيواناتهم من الصحراء إلى المدن في الوقت المناسب . كما أن الأعلاف العصرية قد تسهم في تسمين الحيوانات قبل ذبحها وبيع لحمها ، وهناك بعض المؤشرات التي تظهر توجه الحكومة نحو تلبية تلك الاحتياجات . وبالفعل فإن المشروع الذي يتم تنفيذه في حرض الآن سيكون بمثابة محطة على الطريق تتوقف فيها الحيوانات ، حيث يتم تسمينها قبل إرسالها إلى الأسواق أكثر منه كونه مستوطنة زراعية . وما زال هناك العديد من المشاكل بين البدو

والحضر في منطقة الشرق الأوسط وأقلها تلك التي تتعلق بالتحييزات التقليدية القديمة .

وإني لآمل أن تحظى التغييرات التي أدخلها البدو بطريقة عفوية على أنشطة الرعي لديهم باهتمام وتقدير العلماء والمسئولين الحكوميين ، فالبدو الذين يفضلون الإبل ، وهي حيوانات محببة لديهم أكثر من الأغنام والماعز ، وهم يعرفون أيضاً قدرة الصحراء . واليوم ومع تطور عملية تربية الأغنام والماعز لتلبية احتياجات المجتمع الحضري العصري ، فإن البدو يسعون لتكييف أنفسهم مع هذا الواقع الجديد .

وكما رأينا في سياق هذا الكتاب ، فإن البدو أشخاص عمليون في طريقة حياتهم ، فهم لا يريدون خسارة البيئة الصحراوية التي أمنت لهم موارد رزقهم بنجاح على مدى آلاف السنين . ونحن أيضاً ، في عالمنا المزدحم بالناس والذي أصبحت تنقصه الموارد الغذائية الضرورية ، لا نريد أن نخسر هذه البيئة أيضاً .

ولا شك أن البدو سيوافقونني الرأي عندما أقول إن الحياة العملية هي التي تتطلب استمرارية الرعي والبداوة ولا علاقة للرومانسية بذلك .

المراجع

Barth, Fredrik
1961 Nomads of South Persia: The Basseri Tribe of the Khamseh Confederacy. Oslo: University of Oslo Publications.

Bujra, Abdalla S.
1971 The Politics of Stratification: A Study of Political Change in a South Arabian Town. Oxford: Oxford University Press.

Cressey, George B.
1960 Crossroads: Land and Life in Southwest Asia. Chicago: Lippincott.

Dickson, H. R. P.
1949 The Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia. London: Murray.

Evans-Pritchard, Sir Edward E.
1940 The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People. Oxford: Oxford University Press.
1949 The Sanusi of Cyrenaica. Oxford: Oxford University Press.

Fathy, Hassan
1969 Gourna: A Tale of Two Villages. Cairo: Ministry of Culture Publications.

Fernea, Robert A.
1970 Shaykh and Effendi: Changing Patterns of Authority Among the El Shabana of Southern Iraq. Cambridge: Harvard University Press.

Ibn Khaldun
1958 The Muqaddimah: An Introduction to History. Translated from the Arabic by Franz Rosenthal. New York: Pantheon Books.

Lattimore, Owen
1961 Nomads and Comissars: Mongolia Revisited. New York: Oxford University Press.

Musil, Alois
1927 Arabia Deserta: A Topographical Itinerary. New York: American Georgraphical Society.

Peters, Emrys
1959 "The Proliferation of Segments in the Lineage of the Bedouin of Cyrenaica." Journal of the Royal Anthropological Institute 90:29-53.

1968 "The Tied and the Free." In J. G. Peristiany, ed., Contributions to Mediterranean Sociology: Mediterranean Rural Communities and Social Change. Athens: Publications of the Social Science Center.

Polk, William R.
1973 Passing Brave. New York: Knopf.

Rahman, Fazlur
1968 Islam. New York: Doubleday.

Salim, S. M.
1962 The Marsh Dwellers of the Euphrates Delta. London: Athlone.

Smithers, R.
1966 The Haradh Project. Beirut: The Ford Foundation. MS.

Sweet, Louise E.
1965 "Camel Raiding of North Arabian Bedouin: A Mechanism of Ecological Adaptation." American Anthropologist 67: 1132-1150.

Thesiger, Wilfred
1960 Arabian Sands. London: Longmans.

Uhlig, Dieter
n.d. "King Faisal Settlement Project Haradh/Saudi Arabia." WAKUTI Consulting Company.

Wolf, Eric R.
1950 "The Social Organization of Mecca and the Origins of Islam." South-



شباب يضحكون ويمزحون وهم يتناولون طعام الفطور المكون من بعض قطع اللحم المتبقية من ذبيحة الليلة السابق . ونرى في مؤخرة الصورة الشاحنة التي قدمتها وزارة الزراعة والماء السعودية لمؤلف الكتاب وقد أصبح هذا النوع من الشاحنات منظراً مألوفاً في الصحراء



شاب من آل مرّة يجلس على جمل عماني



رجال من جميع الأعمار يجلسون أمام الخيمة ويحتسون القهوة خلال فترة بعد الظهر ويناقشون حالة المراعي أثناء ترحلاهم الشتوي إلى شمال شرق الجزيرة العربية ، ينضم الصبية إلى الرجال أما شقيقاتهم فيبقين مع أمهاتهم في قسم آخر من الخيمة . في مؤخرة الصورة يمكن رؤية الرواق الذي يفصل قسم النساء عن قسم الرجال في الخيمة الواحدة



رجلان كبيران في السن يجلسان بين صبيين على سطح أحد الكثبان الرملية في الربع الخالي .
أحدهما يحمل منظاراً لمراقبة إبله بشكل أفضل .



في نهاية فصل الخريف تبدأ الإبل بالهجرة إلى المراعي الواقعة في الشمال حيث تكون الأمطار قد هطلت



جمال آل مرّة في الربع الخالي



يغادر الشاب في الصباح خيمة أهله لمرافقة قطيعه طيلة النهار ، وهو يحمل بندقية وحزاماً للذخيرة للدفاع عن نفسه على الرغم من عدم حصول أية غزوات لمدة عقود . أما شقيقه الأصغر فهو يقف إلى جانبه حاملاً بندقيته ويتطلع إلى الوقت الذي يصبح فيه كبيراً برعي القطعان



الصحراء في شمال شرق الجزيرة العربية



مؤلف الكتاب يقف أمام جملين مخصصين للركوب فقط وقد تمّ سقيهما من البئر الواقعة في الربع الخالي.



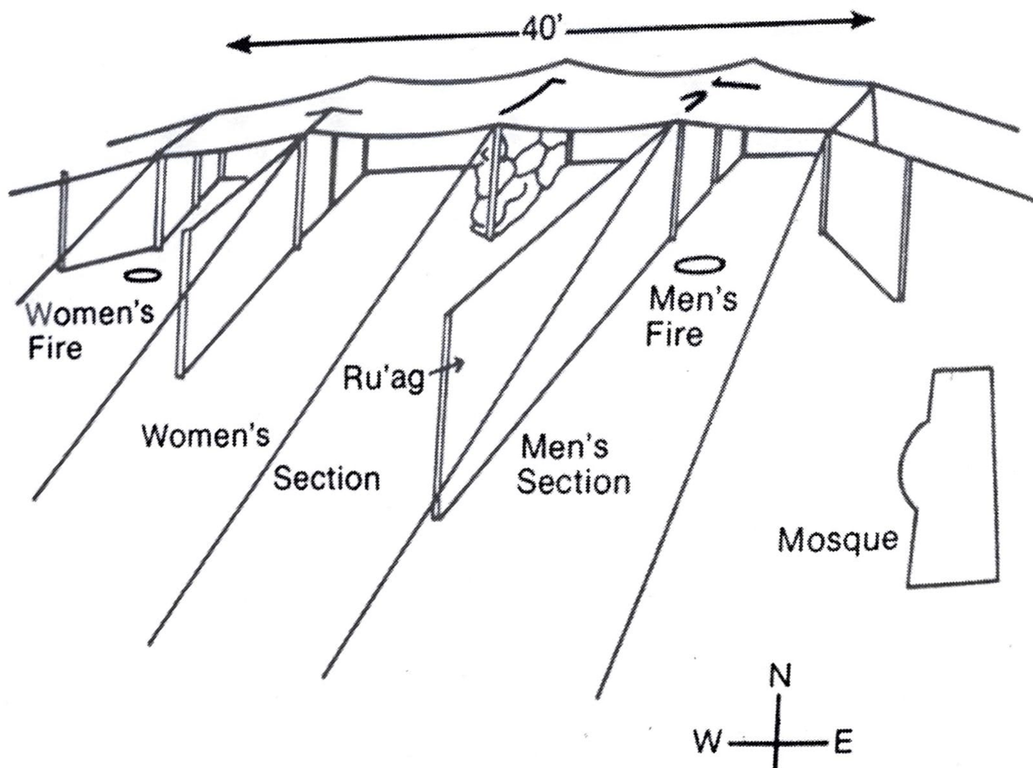
الكربي يقدم بعض الحليب لعمه أمام أعين والده ، وشقيقه الأكبر ، وابنه وابن أخيه . نرى في مقدمة الصورة أباريق القهوة المصنوعة من النحاس .



الكربي (دليل مؤلف الكتاب) يصب القهوة الطازجة لابن خالته وأخيه (من أمه) أثناء رحلة صيد في الربع الخالي . نرى في مقدمة الصورة الأكياس المصنوعة من الجلد والتي توضع بداخلها حبات القهوة والهيل .



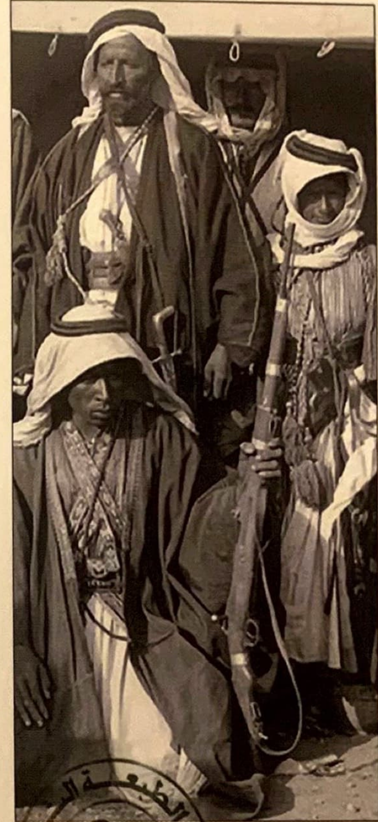
ناقتان تابعان لآل مرّة في الربع الخالي



NOMADS OF THE NOMADS
THE AL MURRAH BEDOUIN OF THE EMPTY QUARTER

أنثروبولوجيا
ANTHROPOLOGY

بدو البدو حياة آل مرّة في الربع الخالي



أنهى دونالد باول كول عمله الميداني ورحلته الطويلة مع آل مرّة ليعود إلى بلاده، ويكتُب بحثه للذكتوراه؛ وقد نُشرَ هذا العمل، عام 1385 هـ/ الموافق1975م، باللغة الإنجليزيّة، ثمّ تُرجِمَ أخيرًا وظهرت طبعته الأولى عام ألفين عن المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر بعنوانٍ (بدو البدو: حياة آل مرّة في الربع الخالي)، ويقع الكتاب في 208 صفحةً، ويتكوّن من سبعة فصول هي:

مقدّمة: البدو الرعاة في الشرق الأوسط (آل مرّة)

البيئة: الأرض، الحيوانات والمهارات الخاصّة، ديرة آل مرّة، الربع الخالي، المياه، القطعان، الإيقاع الموسميّ للرعي، الفصول إو المواسم، الخريف، الهجرة إلى مراعي الشتاء، الربيع، الصيف، مهارات المعرفة الخاصّة بالبدو.

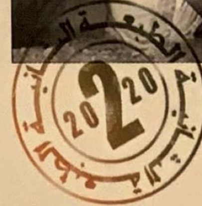
البيت: الزواج والطلاق، الحياة الأسريّة.

التقسيمات القبليّة: الفخذ، القبيلة، القيادات القبليّة.

آل مرّة والمجتمع الكبير.

القيم الإسلاميّة في المجتمع: الإسلام، النهضة الدينيّة وإنشاء الدولة السعوديّة، الإخوان، الإسلام والبدو اليوم.

آل مرّة والعالم المعاصر: النفط وتغيير المجتمع العربيّ السعوديّ، تحضير البدو، مشروع الملك فيصل، الاستيطان العفويّ، مواقف آل مرّة تجاه التوطين، التغييرات الّتي طرأت على عمليّات الترحال للرعي، التغييرات الّتي أدخلها البو على أنشطتهم.



إضافة إلى المراجع الّتي اعتمد عليها، وملحق بالصور الّتي التقطها خلال إقامته وتجواله مع آل مرّة.


9 786144 860991

